على تخوم العالم الإسلامي

حقبة من تاريخ السودان

(١٨٢٢ - ١٨٤١م)

الجزء الأول

الترجمة من الإيطالية الى الانجليزية:
ريتشارد هيل

الترجمة الى العربية:
عبد العظيم محمد أحمد عكاشة

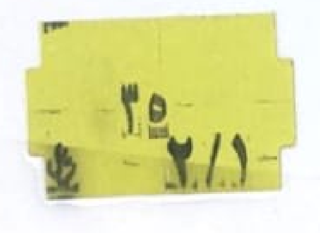


الطبعة الأولى

١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م

المطبوعات العربية للتأليف والترجمة

المقرن ـ مربع ٣ـ عقار رقم ٥٦ ـ مقابل عمارة التوحيد
ص. ب: ١٠١٤٦ الخرطوم ـ السودان. هاتف: ٧٧١٨٨



المطبوعات العربية
للتأليف والترجمة

ص. ب. ١٠١٤٦ الخرطوم - السودان

وحدة الترجمة والتعريب

كلية الآداب

جامعة الخرطوم

على تخوم العالم الإسلامي

"الجزء الأول"

حقبة من تاريخ السودان

"١٨٢٢ ~ ١٨٤١م"

الترجمة من الإيطالية الى الإنجليزية :

ريتشارد هيل

الترجمة من الإنجليزية إلى العربية :

عبد العظيم محمد أحمد عكاشة

بحث تكميلي لنيل درجة ماجستير الآداب في الترجمة

إشراف : البروفسير / علي محمد علي الملك

د. محمد سعيد القدال

١٩٨٤

A B S T R A C T

"On the Frontiers of Islam" is a valuable book translated by Richard Hill from Italian and French. It consists of two mann-scripts concerning the Sudan under Turco- Egyptian Rule during the period 1822-1845 together with an introduction and notes by the translator .

I translated the first part of the book, " A History of the Sudan 1822-1841" which is divided by R . Hill into five chapters and numerous headings that occupy 123 pages .

The fact that the chronicle's author is not known does not, in any way, undermine its significance as an important document dealing with, perhaps, the most notorious epoch in the Sudanese history . On the contrary, a Sudanese would have missed many of these interesting details connected with ways of living, manners and customs on the ground that they would constitute boredom to local readers .

The writer, who was aparertly an Italian pharmacist, is presenting here a full account of Sudanese history during that period, including cultural, economic, social and political aspects, and their impact an formulating the Sudanese character and behaviour .

One finds it difficult to classify the chapters of the book according to their themes, because the writer does not give much care to sequence and priority of events. But, generally speaking, the first chapter gives an account of the Sudanese revolt, slave hunting raids organized by different Turko-Egypatian rulers, and some incidents of minor significance which reflect the nature of the rule.

Chapter two is devoted to religious and social customs and practices, cruelty to slaves, the framework of the government,

and the abuses of the governors and officials.

The most important incidents and informative events are to be found in chapter three. It gives the reader a good idea about the general trend of trade and agriculture and the magnitude of the Turkish interest in the Sudanese gold and man-power. But still we find some examples that clearly show that the Sudanese were not completely submissive to their rulers.

The last chapters may be considered an extension to the pre-ceeding ones, because they deal with slave hunting raids, revolts, conspiracies among rulers, as well as customs and traditions.

اهـــــداء

الى روح مخلص الاول .. والدى عليه رحمة الله .

تصديـــــر

كم أتمنى أن تكون هذه المحاولة اسهاما متواضعا فى المجهـود العظيم الذى يبذل لدفع حركة الترجمة والتعريب فى اقسام جامعـــة الخرطـوم .

شكرى المقرون بالعرفان والوفاء للاستاذين الجليلين البروفســـور على الملك والدكتور محمد سعيد القدال ، فقد اثانانى على ترجمـــة هذا الكتاب الهام بوافر علمهما وصبرهما فى الاشراف والمتابعة والملاحظة والنصح المستمر رغم زحمة العمل وضغوط المشاكل اليومية .

وشكرى موصول لكل الاصدقاء الذيـن لم يبخلوا علـى بنصائحهـم الغالية وتشجيعهم لى طوال فترة اعداد هذا العمل ، وللانســـه عوضية محمد عبيد على تحملها مصاعب الطباعة الشاقة .

واســـأل الله التوفيـــق

عبد العظيم محمد أحمد عكاشة
الخرطـوم ـ ديســـمبر ١٩٨٤م

المحتـــــويات

الصفحة

المقدمة

النافورة والجرة :-

من أقوال ليونارد دافنشى "من يستطيع الوصول الى النافورة ، لا يذهب الى جرة الماء ."[1] ولا شك ان الرسام العالمى يتحدث هنا عن فن الرسم الذى اشتهر به ، وينصح الفنانين أن يستلهموا أشكالهم من الطبيعة الحية دون الالتجاء الى القوالب الجاهزة الجامدة .

ويعلم المترجم ـ اذا كان صادقا مع نفسه ـ أن قراءه هم الذين لا يستطيعون أن ينهلوا الماء عذبا من النافورة أو الينبوع ، لا فرق . أما الذين يملكون حرية الاختيار فانهم يفضلون الأصل دائما . وهذا اعتراف صعب على المترجم ، لأنه يعنى ببساطة ان الاعمال المترجمة تأتى بالضرورة فى المرتبة الثانية . ولكن ينبغى مع ذلك الا نتشاءم فنقرر أن الترجمة بديل ردئ للأصل فى جميع الأحوال .

وتحظى الترجمة ، دون شك ، بسمعة سيئة عند العامة ، بل وعند كثير من المثقفين . فما أيسر الاشارة الى مواضع الخطأ والعيب فى الاعمال المترجمة بينما تمر الترجمة الجيدة مرورا عابرا دون كلمة استحسان الا فيما ندر .

على أن ما يستنبط من قول الفنان الشهير لا ينطبق على حركة الترجمة والنقل فى جميع أوجهها وانماطها وموضوعاتها . فالدارسون لنظريات الترجمة يعلمون أن الأساليب المتبعة فى الترجمة تختلف باختلاف طبيعة المادة المراد ترجمتها . فالكتابة الأدبية مثلا تتطلب ترجمة حرة ، والمواضيع العلمية والسياسية والاقتصادية وما اليها لابد أن نتبع فى ترجمتها أصلها مقيدا

Alan Duff , The Third language, Pergammon, 1981 , p. (1) (1)

وهاربا لا يقبل اللمسات الخاصة من المترجم الا فى أضيق الحـــدود . ويعتقد البعض فى استحالة الترجمة فى بعض مجالات الآداب والفنـــون ، خصوصا تلك التى تجنح نحو الخيال مثل الشعر وبعض الأعمال الأدبيـــة الاخـــرى التى تتسم بالذاتية والتجريـد .

ومن حسن الحظ أن موضوعنا هذا لا ينطبق عليه ما أشرنا اليــــه من صعوبة الترجمة ولو انه يوجع بعضنا من أرض النقيض . وأعنى بذلك أن لغة التاريخ ، وان كانت أقل صرامة ، الا انها لا يمكن أن توصـــف بالتحلل من كل قيد كما فى الكتابة الأدبية . فالتاريخ هو التاريخ بـــأى لغة على وجه الأرض ، رغم أن بعض التفاصيل المتعلقة بالأحداث قد تتغير تبعا لأسلوب من ينقلها من لغة الى لغة أخرى ، وكذلك باختلاف طبيعة اللغة نفسها . ولكن جوهر الأحداث والوقائع يبقى كما هو دون تبديـــل على مر العصور . والمؤرخ قد يطلع على ترجمة لكتاب من تأليفه فلا يضيـف الى الترجمة شيئا لأن الناقل لا يملك غير صب المعلومات التى حواها كتابه فى قالب لغة أخرى بأحداثها وشخصياتها وتواريخها . ولكن دعنا نتخيـــل أن قصيدة لأبى تمام أو شكسبير أو نزار قبانى نقلت الى احدى اللغـــات . أكاد أجزم أن الشاعر قد لا يتعرف فى كثير من الأحوال على قصيدته المترجمة على كثرة ما تبدل فيها اضافة وحذفا وتحويرا للمواءمة مع قواعد اللغـــــة الجديـدة .

على أن ذلك كله لا يعنى أن ترجمة الأحداث التاريخية تتم بصورة تلقائية دون معاناة ، وبلا مجهود ابداعى أو فنى . صحيح أن الاسلوب المتبع فى ترجمة النصوص التاريخية يبدو واضح المعالم لا تعقيد فيه ولا تأويل، فالترجمة هنا أشبه ما تكون بالرسمية (Formal) التى تفرز نقـــلا أمينـــا لكل معنى — ولا أقول كل كلمة — فى النص الأصلى . ولكن حتى داخـــل هذا الاطار الضيق من حرية الترجمة ، فان على المترجم أن يحـذر الوقـــوع تحت "سطوة" لغـة المتـــن .

فالمعادلة الصحيحة ، اذن ، تكمن فى نقل النص نقلا أمينا ، ثم فى نفس الوقت ، صياغة الترجمة وكأنها كتبت أصلا باللغة المنقول اليها . وهذا ما رميت الى تحقيقه فى هذه المحاولة قدر الامكان ، وأخال أن مترجم النص الى الانجليزية قد فعل نفس الشئ عند ترجمته من الايطالية . فالقارئ لا يشعر أثناء قراءته لفصول الكتاب انه كتب بغير الانجليزية ، وذلك لسهولة اللغة وسلاستها وانسيابها . ولست أطمع ، بطبيعة الحال ، فى مثل اجادة المؤرخ الضليع ، ولكن يكفينى أن أوفق فى ترجمة النص الى لغة عربية لا يشوبها الكثير من الخشونة والركاكة مثل أغلب الأعمال المترجمة ، لا سيما والترجمة هذه المرة تتناول عملا منقولا ، فيما يعرف بالترجمة الثانية .

<u>أهمية النص :-</u>

يشكل موضوع هذا النص الجزء الأول من كتاب ريتشارد هيل " على تخوم العالم الاسلامى "[1] . أما الجزء الثانى فهو عبارة عن يوميات تتناول بعض الأحداث أثناء رحلة الى سنار والحجاز فى الفترة من ١٨٣٧ الى ١٨٤٠ كتبها فرنسى عاش فى السودان وعاصر أحداث تلك الفترة مثل زميله الايطالى كاتب الرواية .

وقد ارتبطت فترة الحكم التركى - المصرى فى أذهان السودانيين بكثير من الأهوال والمفاسد . وبالرغم من بعض المآخذ على أول حكم وطنى جاء بعد العهد التركى - المصرى ، ثم السياسات الاستعمارية التى اتسم بها الاحتلال البريطانى ، الا أن الأتراك خلفوا أسوأ الذكريات على أرض السودان . ومعلوم أن أى غزو خارجى لأى بلد يهدف فى الأساس الى فرض السيطرة على ذلك البلد ونهب موارده ، غير أن هذا الهدف كان أوضح ما يكون عندما زار محمد على باشا السودان عام ١٨٣٨ . فقد ظهر

(1) R. Hill, <u>On The Frontiers of Islam</u>, Clarendon Press, Oxford, 1970.

جليا تبنى الباشا لاستراتيجية ترمى الى استغلال موارد البلاد عن طريق التنقيب عن الذهب والحديد ، وتطوير زراعة المحاصيل السودانية بخصوص تصديرها الى مصر (١) .

وتتسم رواية مؤلف الكتاب بالصدق ودقة الشعور ، ذلك لأنه ، وان كنا لا نعرف الا النذر اليسير عن هويته ، فقد عاش بين الناس بسيطا ، لا تحوم حوله شبهة التحيز على نظام الحكم أو الترويج له مثل كثير من الاوربيين الذين كتبوا عن تلك الحقبة . وليس أدل على نزاهته ونبل مقصده فيما يروى عن تلك الفترة من انصافه لبعض الحكام الاتراك مثل فرهاد وخورشيد اللذين يعترف بعدالة سياساتهما وأحكامهما فى بعض الأحوال رغم ما يبدى من حنق وغضب على ممارسات الحكام الآخرين . ليس ذلك فحسب ولكنه ينتقد معظم الاوربيين الذين عاصروه تحت سماء السودان فى تلك الفترة على ما ظلوا يرتكبون من ظلم واستعباد لابناء البلاد المغلوبين على أمرهم .

ولعله مما يشعر القارئ بثقة أكبر على صدق الرواية هو حماس شخص فى وزن ريتشارد هيل لترجمتها ايمانا منه باهميتها بالنسبة للمكتبة التاريخية . فالمترجم يعتبر من خبراء التاريخ السودانى عموما وفترة الحكم التركى ـ المصرى على وجه الخصوص ، وقد كتب كثيرا عن السودان وعاش فيه طويلا حيث عمل موظفا فى الخدمة المدنية على عهد الحكم الثنائى ومحاضرا بكلية غردون التذكارية . ولابد أن ننظر الى الكتاب من خلال هذا المفهوم لا على أساس ما فى بعض صفحاته من تفاصيل أقرب الى التسلية . فالرواية عبارة عن رصد أمين وتصوير حقيقى لواقع السودانيين فى تلك الحقبة من صراعهم مع فئة تسلطت على مقدراتهم واستعبدتهم وأهانت انسانيتهم فى أسواق النخاسة .

---

(١) محسن أحمد ابراهيم ، رحلة محمد على باشا الى السودان ١٨٣٨ ـ ١٨٣٩ ، الخرطوم ، ١٩٨٠ ، ص (١٤) .

ويستهل المؤلف كتابه بانتفاضة السودانيين ، والتي يؤكد المترجم انها لم تفصل فى أى كتب كما فصلت فى رواية هذا الكاتب الذى لا نكاد نعرف له اسما . واعترف ان تلك البداية المتفائلة كانت من دواعى اختيارى للرواية من بين مجموعة لا بأس بها من الاعمال كنت استعرضتها ، وبعضها لا يقل عنها أهمية من الناحية العلمية فى رأيى . والمدلول الواضح للاستهلال بالانتفاضة هو أن الشعوب لا تستسلم للاستبداد والقهر الا الى حين قد يطول أو يقصر . فالسودانيون ، رغم البطش والارهاب والضرائب الباهظة والاتاوات التى اثقلت كاهلهم ، هبوا فى مواجهة الدخيل وكادوا أن يعصفوا به لولا غياب القيادة الواعية المنظمة . أما من كان يفترض فيهم صفات القيادة من زعماء ورجال دين ممن عرفوا بالعلماء فقد تخاذلوا وانضموا الى زمرة الحكام سعيا وراء مصالحهم وخوفا من بطش أسيادهم . ويعتقد ريتشارد هيل أن الانتفاضة لم تكن غير هبة يائسة ، دون قيادة ودون هدف (١) . وقد نتفق معه فى افتقار الثوار الى القيادة ، ولكننا نتحفظ كثيرا على قوله أن الانتفاضة كانت مجرد خبط عشواء . كيف نفسر اذن اندلاع الثورة فى جميع أرجاء البلاد فى توقيت واحد ان لم يكن الهدف هو التخلص من حكم الاتراك ؟ الم يقل المؤلف نفسه ان غرض السودانيين من تلك الهبة هو الاطاحة بالدخلاء ؟

وعلى كل ، فقد أخمدت الثورة فى مهدها لتفوق العدو الواضح فى العتاد وأساليب القمع . وكان على السودانيين الانتظار نحوا من ستين عاما حتى ظهر من بين صفوفهم قائد تمكن من جمع شملهم والنهوض بهم من وهدتهم الطويلة لمواجهة الاعداء . وما كانت تلك السنوات السوداء كلها جمودا وخضوعا كاملا للحكام الجدد . فالرواية حافلة بومضات مشرقة من مقاومة القهر هنا وهناك من جماعات وأفراد لم يرضوا بحياة الذل فى

---

(١) R. Hill, Egypt in the Sudan, Oxford, 1958, P. (18)

وطنهم . ولا يقلل من قيمة كفاح أولئك النفر من السودانيين بعض المواقف الشخصية التى دفعتهم الى حمل السلاح فى مواجهة المستعمر ، اذ يكفى انهم فعلوا ذلك رغم سيف الارهاب المسلط على الرقاب على طول البلاد وعرضها ،(١) ولسنا نملك الا ان ننحنى اجلالا أمام رجال من أمثال رجب ود بشير الغبول ، والملك جمعه ، ومحمد دين ، وعربان قبيلة رفاعة أبى روف ، وأبى ريش شيخ العبابدة وغيرهم . . .

أضواء على صفحات الكتاب :

وبعد السرد المشوق الشامل لاحداث الانتفاضة ، يتناول الكاتب بأسلوبه البسيط بعض الشخصيات من الحكام الأتراك وطبيعة حكمهم الذى اتصف فى معظمه بالظلم والقسوة والتسلط مثل الدفتردار ، وعثمان بك جركس وغيرهما . ثم يخوض فى تفاصيل غارات صيد العبيد لتجنيدهم فى الجيش أو لبيعهم لدعم خزينة الدولة . ولا يخفى اعجابه فى كثير من المواضع بشجاعة السودانيين وقوة تحملهم ازاء القسوة التى كانوا يعاملون بها أثناء تلك الحملات ، فيصف أفراد قبيلة الدينكا والشلك والهدندوة مثلا بالثبات فى مواجهة جيوش المصريين فى أغلب الأحوال . الا أن الكاتب يعطى من خلال وصفه لأحداث الدمتمر وغارات صيد الرقيق نموذجا آخر من السودانيين كانوا يتكالبون على الزعامة وكسب المال بشتى الطرق حتى ولو بالقتل والنهب وممالأة الحكام . ففى الوقت الذى كانت فيه معظم القبائل السودانية ، سيما الزنجية منها تدافع عن كيانها وانسانيتها وأرضها ضد المعتدين ، كان هؤلاء يسعون وراء المناصب والجاه ، فاستغل الأتراك ما اتصفوا به من شجاعة فى البطش بمواطنيهم واستعملوهم أدوات فى صيد الرقيق بما لهم من خبرة بمناطق البلاد ونفوذ بين قبائلها .

---

(١) صديق بشير محمد على ، المقاومة السودانية للحكم التركى - المصرى ١٨٢١ - ١٨٨١ (بحث مقدم لنيل درجة الشرف ، جامعة الخرطوم ، ١٩٨٤) .

فى الفصل الثانى يقترب المؤلف الى قلوبنا أكثر ، ويخاطب عواطفنا دون أن يقصد ، حين يخصص جزءاً كبيرا منه فى وصف المعتقدات الدينية عند السودانيين فى ذلك الحين ، مثل ترقيم الأولياء " والفقراء " الذين ما زالوا موضع الاحترام عند قطاع كبير من أهل البلاد كالفكى الريح فى العيلفون . كذلك يجد وصفه لعادات الزواج وطهارة البنات هوى فى نفس القارئ رغم ما به من اسهاب مما يدعو الى الاعتقاد بانه لم يكتب أصلا للقارئ السودانى . ويعلل الاستاذ يوسف بدرى هذا الاستغراق فى وصف التفاصيل بكون الكاتب اجنبيا له القدرة على الاحاطة بامور قد لا يلحظها المواطن الأصلى ولا يأبه بالحديث عنها (١) . من هنا جاءت عظمة الوصف وروعته حين يتحدث المؤلف عن ود مدنى بمستشفاها وكنائسها وقبابها ، والمسلمية بتجارتها ومعبدها الآخذ فى الأفول ، ثم الزراعة وفنونها وضروبها فى سنار .

ونأتى الى الجزء الثانى من هذا الفصل فنقرأ قصصا كأنها من نسج الخيال . يبدأ الكاتب بوصف صيد العبيد والتصرف فيهم سواء كان ذلك بتجنيدهم أو بيعهم أو استرقاقهم فى سرد دراسى قلما نجده فى كتب التاريخ التقليدية . فالمؤلف لم يكن مؤرخا بالمعنى الدقيق للكلمة ، لذلك لم يشغل نفسه بتحليل ظاهرة الرق من الناحية السياسية أو التجارية ، فأهتم بالجانب الانسانى فى المسألة . ويركز الكاتب على سوء معاملة الاوربيين من فرنسيين وايطاليين واغريق لعبيدهم بصفة خاصة ، فيفرد صفحات كاملة فى ضرب الأمثال على ذلك فى عناد شديد . ولعل اهماله للاشارة الى قسوة غير الاوربيين من أتراك ومصريين وسودانيين الى عبيدهم يعزى الى انطباع لدى الكاتب بأن ذلك أمر مفروغ منه من مثل هؤلاء . ونفترض ذلك لأننا نستبعد انحيازه على بنى جنسه الى هذه الدرجة .

---

(١) يوسف بدرى ، عرض لكتاب "على تخوم العالم الاسلامى " السودان فى وسائل ومدونات ، المجلد (١١١) ، ١٩٧١ ، ص (١١٩) بالانجليزية

وفى نهاية هذا الفصل يلمس الكاتب بعض الجوانب فى نظام الحكم والهيكل الادارى للحكومة كتقسيم المديريات وتعيين الكشاف والشيوخ الخ .. ويسترعى انتباهنا انه يكتفى بوصف ما يراه من اطار عام دون الخوض فـــى فلسفة الحكم وطبيعته والاطوار التى مر بها جهاز الحكم التركى ـ المصرى من تأرجح بين المركزية واللا مركزية وفقا لأهداف سياساتهم واطماع الحكام الذين تعاقبوا على السودان . ثم يعدد مفاسد الحكم والطبقة الحاكمــــة وبطانتها من الكشاف والكتبـــة من الأقباط .

أما الفصل الثالث فيتضمن أهم أحداث الكتاب وأخطرها على الاطلاق وهو زيارة محمد على باشا الى السودان للوقوف على خطوات استخراج الذهب فى فازوغلى . ويتابع المؤلف تحركات محمد على من أجل الوصول الى هدفـــه فى اشفاق لا يخفى على فطنة القارئ ، ثم يصور خيبة أمل الباشا وحنقـــه عندما لا يجد الذهب ، فيجسد ذلك باشارة ذكية الى قرار محمد علـــى باشا بأن يحمل معه المبالغ التى جاء بها من القاهرة ، فلا يترك منها بارا واحدة خلفه فى السودان . وفى هذا الجزء أحداث متفرقات مثـــل غضبه زعماء الشايقية وخروجهم عن طاعة أحمد باشا أبو ودان ، وتمرد الملك محمد ، ومصرع كمبال ، وشنق شيخ الهلالية المأسوى ، وصراع الجبابرة بين الشيخ بركة وسليمان أبى نصر . أحداث ومآسى وقصص بطولية برع فى وصفها المؤلف بتفاصيلها الدقيقة وجوانبها الانسانية المرهفة التى لا يقدر علـــى كشفها الا كاتب ذو شفافية وضمير حى ، فى ذلك الجو المشحون بالكبــت والقهر وسيادة قانون الغاب .

وتتصل المواقف البطولية فى انسياب عبر صفحات الكتاب ، فنشهد الوقفة الاسطورية لابناء الشرق من قبائل الهدندوة أمام القوة الغاشمـــــة المسلحة من جيوش الترك بقيادة أحمد باشا الذى لجأ الى احط الأساليب وأخبثها لاخضاعهم . وتمرد عرب رفاعة أبى روف والشيخ أبى ريش مـــــع

شذرات من أخبار الحكام وبعض الأحداث الصغيرة ذات الدلالات الكبيرة مثل مقتل فرهاد بك بالسم ، والفيضان وانتشار وباء التيفوس في الخرطوم عام ١٢٥٦هـ .

وفي خاتمة الرواية يستعرض المؤلف انماطا شتى من معتقدات السودانيين وعاداتهم ، ويضرب الأمثلة على عمق ايمانهم في السحر والقوى الخارقة الخفية للسحرة . ولا ندري مدى صحة التعميم حين يزعم أن كافة السودانيين كانوا يعتقدون في السحر ، لكننا نعلم ان اقساما لا يستهان بها من قطاعات الشعب السوداني ما زالوا على اعتقادهم القديم حتى في المجتمعات المتحضرة الى يومنا هذا .

ثم يتحدث عن فنون الطبخ وأشكال الطعام عند السودانيين وكرمهم، ويسهب في وصف ظاهرة التكسب من الدعارة التي انتشرت نتيجة للاسترقاق وأسواق النخاسة . وفي الصفحات الأخيرة تعود براعة الوصف وشاعريته مرة أخرى الى قلم الكاتب كما رأينا في الفصل الثاني ، وذلك في وصفه لبلاط الأميرة نصرة وغرامياتها ، وسهريات مارنجان ، ثم حفل العشاء الصاخب المرح الذي يبين حدة التفاوت بين المفاهيم والعادات والممارسات السودانية البسيطة ممثلة في الفكي طه والحضارة الغربية التي وضع من تذيبها الاوربيون الخمسة ضيوف الرجل الطيب .

وخلاصة القول أن هذه رواية فذة وشائقة ، لم يتبع فيها مؤلفها المنحى الأكاديمي المضني ، ولا المنهج الجاد الحاذق كما هو شأن معظم المؤرخين والباحثين . فقد ترك قلمه على سجيته واستطاع تصوير واقع الحال ، ونقل الأحداث بتفاصيلها الدقيقة دون أن يرهق القارئ بتعقيدات التصنيف واقحام النظريات في المناقشة والتحليل . لم يحفل كاتبنا حتى بوضع العناوين الجانبية للموضوعات التي تناولها دون ترتيب ، فجعلها من صنع المترجم رتشارد هيل كما نوه الى ذلك في تصدير الكتاب .

ولعل فى ذلك كله يكمن سر هذه العاطفة الجياشة التى تنتظم الرواية من أولها الى آخرها ، والأسلوب البسيط المعبر ، والصدق فى تناول الأحداث ، والانحياز للمستضعفين ، والثورة على الطغاة وتجار الرقيق .

تصدير مترجم النص ومحققه رتشارد هيـــل

==========

استخدم محمد على باشا ، الوالى العثمانى على مصر وتوابعها من عام ١٨٠٥ الى ١٨٤٨ ، أوربيين فى مرافق الدولة والمؤسسات الاقتصادية . وفى عام ١٨٢٠ بدأت قوات الباشا تغلغلها داخل الأراضى الشاسعة فيما وراء الحدود الجنوبية لمصر ، فآثر نفر قليل من هؤلاء الأوربيين ، وقد كانوا من الاغريق والايطاليين فى غالبيتهم ، مصاحبة الغزاة الى هناك لأسباب شتى . وبحلول منتصف الثلاثينات من القرن التاسع عشر كان يعيش فوق الأراضى السودانية عدد لا بأس به من الأوربيين يعملون مدربين فى الجيش ، ومفتشين وأطباء وتجار وصيادلة .

ولهذا المجتمع الصغير ينتمى صاحبا المخطوطتين المترجمتين فى هذا الكتاب . لقد كان حظهما بسيطا ومتواضعا ، وتشغلهما أمور ذات شأن ضئيل فى زاوية مظلمة من تاريخ السودان . جاهدا لكسب لقمة العيش فى الريف ، وانغمسا فى خضم الحياة بعيدا عن قشورها وبريقها . جاءا من ملكية يوليو بفرنسا ، وجمعية كاربوناري السرية فى ايطاليا ، تماما مثل بقية أفراد الطبقة الوسطى ـ الدنيا فى أوربا . وانقلبت بعض شيوخهم من نظام جيش نابليون الأعظم ، وبعضهم كانوا سانت سايمونيين انسلخوا من جماعة بيير انفانتين الهندسية فى قناطر القاهرة ، وآخرون تمردوا على تنظيم المحاكم المستقرة فى أوربا فهربوا . فاحست رائحة الشوم من أنفاسهم ، فاستفزت سواح أوربا المتحجرفين على ما كانوا يبدون من احتقار لهذا الطراز من البشر . " هؤلاء الطليان والفرنسيين أنهم جهلة وغير متعلمين ... " ، هكذا يصفهم والد أوسكار وايلد الطبيب[1].

على أن ضآلة شأنهم هذا تكسب ما كتبوه صفة الأهمية ، فالصغار كثيرا ما يرون أشياء عابرة فى الحياة اليومية لا تدركها نظرة الكبار الشامخة : العادات المحلية للسودانيين ، علاقات الوجهاء والحكام الاتراك ، تعسف رفقائهم من الاوربيين ، تذبذب قيمة النقد ،

(1) Sir W.R. Wilde, Narative of a Voyage to ..... Egypt (etc.), 2nd. ed., Dublin and London, 1844, P. 188.

أسمار الفتيات والضلال الخ ...

والوثيقتان أولاهما رواية والثانية يوميات أو مذكرات ، وتضمان الرصد المفصل الاوحد للفترة المبكرة للحكم التركي ـ المصري للسودان . وهما مكملان للعمل السوداني الوحيد بالعربية (تاريخ ملوك السودان) ، الرواية الموسعة . ولكن بينما اكتفى الرواة السودانيون بتسجيل حركات وسكنات الحكام ورجال الدين دون غيرهم ، وبينما كان مستخدمو الحكومة يهابون انتقاد النظام الذى يوفر لهم الأجور ، تحرر كتاب الوثائق الاوربية من هذه القيود تماما . لذلك فان سردهم يقدم تحليلا لبعض الاحداث التاريخية الهامة مما لا يتوفر فى المصادر الاخرى بما فيها الروايات الشفوية . وحتى اذا توفر هذا التحليل فى مصادر أخرى ، فهو لا يعدو أن يكون تلميحا مقتضبا فى بعض الآثار القليلة الموجودة حتى الآن .

ولكن ما مدى صحة هاتين الروايتين ؟ ان كاتب الاحداث ، بكل المقاييس التعبيرية ، مغرم بالاسهاب فى وصفه ، وأحيانا تتغلب عليه العاطفية فيهتز قلمه ويعجز عن السيطرة على ملكته الدرامية . أما كاتب المذكرات فلا غرابة فى شعوره بالزهو والاعتداد بالنفس مثل أى شاب نشأ وترعرع فى زمان الصحوة الرومانسية . غير ان الصدق عند الكاتبين كليهما يبقى أمرا فوق كل شبهة . ونستند فى ذلك على اختبارات ثلاثة اجراها المترجم الذى لم يكن بعيدا عن مسرح الاحداث التى يصورانها قرابة واحد وعشرين عاما : المقارنة مع الاحداث المشابهة ان وجدت ، وزيارة المواقع التى يصورها الكاتبان ، ومقابلات شخصية مع أحفاد من جاءا ذكرهم فى الوثيقتين .

والسودان الذى عنى به الكاتبان كان يمر بفترة انتقالية من الغزو الدموى الى الادارة السلمية . وقد انتهت فترة حكم على خورشيد باشا

الدولية عام ١٨٢٨ بنقله من الخرطوم الى باشماليك أدانسا ، لأن المصريين في ذلك الحين كانوا يحكمون سوريا كلها حتى جبال تسوروس وحكم خلفه احمد باشا أبوودان حتى عام ١٨٤٢ ، ثم توفي في ظروف غامضة . ويستحوذ هذا الشركسي القوي القاسي على جل اهتمام الكاتبين .

ولكل كاتب طريقة مختلفة في رسم اسماء الاعلام تبعا للهجته القومية وادارته الشخصية . ولقد تجنبنا وضع هذه الأسماء كما جاءت في النسخة الأصلية درءا لتعقيدات لا داعي لها . كذلك تفادينا شرح أو تصحيح زلات القلم من المؤلفين والنساخ معا في هوامش قد تكثر فتسبب الملل ، فقمنا بتصحيحها دون حرج . وقد كانت المفردات العسكرية والادارية لحقبة كتابة الوثيقتين ، خليطا متنافرا من الكلمات العربية والتركية المعربة ، والتركية الصرف . عليه فقد انتهجت في ترجمتي لها أسلوب نقل الكلمات بحروف عربية ، ثم عاملت مفردات المجموعة الثالثة معاملة الكلمات التركية المعاصرة . أما فيما يتعلق بأسماء الأمكنة ، فقد رأيت أن لا حاجة بي في الدوران حول الحلقة المفرغة لأسماء جغرافية غريبة من الناحية اللغوية وضعها رسامو خرائط من المشرقيين والمصريين والاوربيين ، وذلك لضعف علاقتها بالرسم العربي الصحيح . أما الاصرار على كلمة "خرطوم" بدلا عن "الخرطوم" فلأنني تبنيتها أسلوبا رومانيا في الهجاء وجد قبولا حسنا عند كتابة اسماء الامكنة العربية الاخرى . فثلاثة أسماء لمدن هي اسوان وبربر وشندي لم تكن عربية المنشأ ، وانما احتفظت بالهجاء الروماني التقليدي . أما بقية الأسماء فقد طوعت لتواكب العربية الشائعة .

ومن المحتمل أن تستعمل هاتين الوثيقتين مرجعا للمعلومات ، وهذا ما دعاني لعدم تشذيبهما أو اعادة ترتيبهما لتصبحا قصة مشوقة . لذلك ينبغي على القارئ أن يتهيأ لقبول الحشو مع المعلومة . وقد بينت جميع الاسقاطات في حينها . أما العناوين والهوامش فهي من صنع مترجم النص

ما لم ينوه الى عكس ذلك . وغياب معلومات تتعلق بنشر الكتب بالانجليزية والفرنسية يعنى أن مكان النشر بالنسبة للأولى هو لندن وللثانية باريس .

ثم أن بعض المقالات المختارة من الجزء الأول نشرت فى "مجلة السودان فى رسائل ومدونات" ، الخرطوم ، المجلد ٣٧ ، ١٩٥٦ ص ٢ - ١٩ ، والمجلد ٣٨ ، ١٩٥٧ ص ١٢١ - ٤٦ . وشكرى موصول للناشر على تكرمه بالسماح بنشرهما فى هذا الكتاب .

وأخيرا ، ومع اقرارى الكامل بمسؤوليتى عن كل قصور فى الترجمة والتعليق ، فانى أقدر باعتنان ما قدم لى من نقد ونصح من البروفسور ب . م هولت ، وزميلى محمد أحمد الحاج مما كان له الأثر الكبير فى التقليل من الهفوات والعيوب .

كلية عبدالله بايرو
جامعة أحمدو بلو
كانو ، نيجيريا

مقدمة مترجم النص ومحققه ريتشارد نيكل

= = = = =

الوثيقتان

(الجزء الأول)

حقبة من تاريخ السودان ١٨٢٢ - ١٨٤١م

كتبت هذه المخطوطة على خمس كراسات غير مجلدة ، كل فصل في كراسة منفصلة ، وعلى أحجام متباينة من الورق تبلغ في المتوسط ٣٣ × ٢٠٫٥ سم . وقد عثر عليها الرحالة الانجليزي مانسفيلد باركنز حين وصل الخرطوم من الحبشة في ديسمبر ١٨٤٥ (١) . ومكث باركنز لاشهر في المدينة ، ثم اتجه غربا الى كردفان . وفي يناير ١٨٤٨ غادر الابيض ، عاصمة المديرية قاصدا مصر . وقد فكر باركنز في كتابة تاريخ السودان ، غير أنه عدل عن الفكرة فيما بعد . ولا ندري الظروف التي جعلت الوثيقة بين يديه ، ولكن يبدو من حواشي المؤلف (ص ٢٠٧) أن باركنز حصل عليها مباشرة منه حيث يقول انه جمعها خصيصا ليساعده على اداء مهمته .

وتمكن ج . ر . وايتهيد المعلم بكلية دوفر بانجلترا ، والذي عرف بحبه الشديد للسودانيين وتاريخهم ، من الحصول على المخطوطة من مسز باناتين (ابنة باركنز) من مدينة ملفيلد في ورسسترشير ، ثم بدأ في ترجمتها الى الانجليزية عام ١٩٤٠ . وكانت كتاباته وقتها تعبر عن غبطته لاكتشاف مادة جديدة تعطي اساسا لدراسة تاريخ السودان تحت الحكم التركي - المصري ، لكنها كانت فرحة مشوبة بالشك في وجود ناشرين متحمسين لنشر شيء يتعلق بتاريخ السودان .

وكان وايتهيد قد انجز ثلث العمل في مسودة الترجمة عندما قطعها عليه نشوب الحرب . وبعد وفاة وايتهيد عام ١٩٤٦ ، آلت المخطوطة

مع غيرها الى البروفسور ايفانز بريتشارد الذى اهداها الى الجمعية الملكية بلندن . وقد تمكنت بفضلها من تكملة ما بدأ وانتهيت .[٢]

ولم استطع أن أتبين هوية المؤلف بشكل قاطع . ولكن فى رسالة موجهة الى وزير الخارجية الفرنسية من القنصل العام الفرنسى فى الاسكندرية ، الماركيز دى لافاليت ، نجد وصفا لحملة هائلة قادها الحكمدار أحمد باشا أبو ودان لصيد الرقيق فى شتاء ١٨٤٢ - ١٨٤٣ . وذكر القنصل أنه حصل على تلك المعلومات من طبيب أوربى فى خدمة المصريين شارك فى مثل تلك الحملات .[٣] ونلاحظ تشابها ملحوظا بين رواية القنصل العام وما جاء فى المخطوطة من وصف للحملة .

أما الدليل الآخر ، رغم ضعفه ، فهو أن خبير المناجم جوزيف ريتر فون راسيقر التقى بصيدلى من الجالية عند مروره بود مدنى فى مهمة استكشافية كلفه بها محمد على باشا عام ١٨٢٧ . وكان الصيدلى شابا ايطاليا يتمتع بفضائل رجولية يدعى بارتولى . وقد حكى بارتولى هذا لخبير المناجم تجاربه خلال غارة على الرقيق نظمتها الحكومة فى المنطقة الواقعة جنوب غرب الروصيرص ، وهى نفس المنطقة التى ذكرها القنصل العام الفرنسى فى تقريره .[٤] وقد أكد كاتب هذه الأحداث أن معرفته باقليم سنار ، حسن العملة ، كانت أوثق من أى جزء فى السودان .

اذا صح أن المؤلف هو بارتولى هذا ، فاننا نجده فيما بعد فى الخرطوم ، ضمن قائمة أسماء الاوربيين فى العاصمة السودانية فى فبراير ١٨٢٨ حيث يسترعى نظر كاتب المذكرات تسلكنى يسمى بارتولى (صفحة ١٢٦) . ومن يدرى ، ربما اعتقد راسيقر خطأ أنه طبيب . ثم نجد فى مدونات رجل أعمال يدعى انتاز بالم ، كان يقوم برحلة تجارية ، اسم شخص يقال له بارتولو يحترف الصيد والتجارة فى المنطقة التى تسكنها قبائل الشلك فى النيل الأبيض نحو عام ١٨٤٠ .[٥] ان كثيرا من الأخطاء والحماقة

الأوربيين اتجهوا نحو النيل والغابة بعد تقاعدهم ، ولكن لا يمكن لمن كان يعمل صيادا فى أعالى النيل أو الصعيد ان يرى أحداثا وقعت فى الخرطوم أو سنار . ومع هذا فان بارتولى اسم شائع فى تسكنى ، وربما كان مؤلفنا من خريجى الصيدلة أو الطب من جامعة بيزا .

أما المرشح الثانى بجانب بارتولى لكتابة هذه الاحداث فهو الايطالى الوحيد الذى ذكر باركنز انه قابله فى الخرطوم .. "مشرقى فقير ولد فى نابولى ويعمل صيدليا فى المخازن المركزية ." (٣) والملاحظ انه كلما تحدث المؤرخ عن السودانيين والتسكانيين فانه يفعل ذلك فى استخفاف كما تعود النابوليون . كذلك فان ولع كاتبنا بمرادفة السكون كما فى :

"doppo" "attrece " "abbitati " "Libbera"

يتفق تماما مع اللهجة لهجة جنوب ايطاليا ويضعف الدليل على الاصل التسكانى للمؤلف . وفى المقابل لا يفوتنا أن نذكر ميل المؤلف الى استعمال كلمات مثل " andiede " assieme " وهى من أصل تسكانى . لذلك فمن المحتمل أن يكون كاتب هذه الاحداث هو بارتولى النابولى هذا ، ولكن يبقى ذلك مجرد احتمال .

يستعمل الكاتب التقويم العربى أو الاسلامى باستمرار دون تحويل التواريخ الى التقويم الغريغورى . هذا يعنى أما أن يكون مصدره أوربية مسلم أو مصادر عربية لم تكن منشورة أو مفقودة فى ذلك الوقت . وقد يكون مصدره جريدة رسمية أو لعله قد اعتاد على استعمال التقويم الهجرى بسبب بقائه طويلا فى بلاد المسلمين .

ويبدو أن المؤلف كان وثيق الصلة بموظفى الحكومة من الطبقتين الوسطى والدنيا . يتضح ذلك جليا فى اعتماده أثناء سرد الاحداث على أقوال بعض السودانيين والمصريين وربما يكن اسم المؤلف أو جنسيته فانه عاش فى نفس المحيط الضيق مثل كاتب اليوميات التى تحتل الجزء الثانى

من هذا الكتاب . أما محاولته اخفاء شخصيته ، أو احجامه عن مجرد التوقيع على الوثيقة فدلالة على تدبير للعواقب اذا كان موظفا فى الحكومة عند كتابته للاستعداء .

وتبدأ الحكاية باستعراض لمقاومة السودانيين لاحتلال الجيش التركى المصرى لأراضيهم بقيادة اسماعيل باشا كامل ، ابن محمد على باشا . وتسجل أن مقتل اسماعيل باشا روى بصورة تقليدية كما تناقلته العامة ، الا أن ما تبع ذلك من انتفاضة السودانيين جاء فذا وفريدا .

السودان المعاصر

====

الحكام والرعية :

استحدث أخيرا اصطلاح الحكم التركى المصرى (Turco - Egyptian) لوصف نظام الحكم الذى عاش تحت ظله وعمل فى قبضته المؤلفان ، وهو اصطلاح ملائم ولكنه لم يكن ليخطر على بال أى منهما فى ذلك الحين . والمعنى بهذا الاسم المركب تركى - مصرى هم الصفوة الذين يتحدثون التركية من الالبانيين والشركسيين والاكراد والاتراك الاصليين ، وبعض المسلمين من غير المصريين الذين كانوا يتحكمون فى مقاليد الامر فى مصر والسودان آنذاك . أما المصريون فقد اعتادوا على الحكم التركى لفترة طويلة حتى كان يحيط للمرء انهم استمرأوا فى تعاليهم مع سلطويهم وقهرهم . وكان خضوعهم لهذا الاحتراف مادة تناولها كثير من السواح الذين كانوا فى أوساط المتطرفين ومن بينهم فردناند ديبون الذى قال فى حكمة انه سوف يمضى وقت طويل قبل أن يصير المصرى تحت التبعية الحقيقية للمصرى .

كان السودان فى تلك الفترة ولاية ضمن اقليم مصر التى كانت بدورها

جزء غير مؤثر فى الامبراطورية العثمانية . ولم يتمتع السودان بذاتيــة سياسية الا لفترة تقدر بثلاثة عشر عاما هى فترة الاستقلال فى ظل حكم المهدية من ١٨٨٥ الى ١٨٩٨ ، ثم ظل بعدها خاضعا للسيطرة الاجنبيـة حتى عام ١٩٥٦ . وعندما رقى على خورشيد بك عـام ١٨٢٥ الى رتبـة باشا من الدرجة الرابعة (ميراميران) أطلق عليه لقب حاكـم اقليم السودان التابع للاقاليم المصرية . ولقد أقرت هذه التبعية واعترفـت بها الدول الكبرى التى بعثت بممثليها القنصليين الى مصر موفديـن الـى " مصر وتوابعها " . وانه لأمر عجيب يدعو الى شئ أشبه بالصدمة ان يتجاهل المؤلف أول محاولة من حاكم تركى - مصرى للفكاك من اسـتـار التبعية لسيده فى مصر ، تلك المحاولة التى أدت الى ما يمكـن أن نسميه الاغتيال الدستورى للحكمدار أحمد باشا أبو ودان فى اكتوبر ١٨٤٣ ، مع أنه يشير الى من خلف أحمد باشا مثل أحمد باشا المنيكلى وخالد باشا خسرو . ربما يكون الكاتب قد استقل هذه الواقعة عن طريق السهو لأن عدم الماسه بها مستبعد تقريبا لما أثارتها من بلبلة فى الدوائر القنصلية بمصــر . (٧)

لم تكن للمؤلفين فكرة واضحة عن السودان كوحدة جغرافية ، وما كانا يعرفان بشكل قاطع اين تنتهى النوبة ، أو بلاد السودان (أراضى السود). أما القناصل فقد كانوا أسوأ حالا ، حيث ظلت "سنار" ترد فى رسائلهم على انها "السودان" . ورغم أن الحكومة فى القاهرة كانت تشير الى "السودان" فى مكاتباتها فى فترات متقطعة ، الا أن من كانوا يتولون أمر القنصليـات باتوا على ما هم عليه من جهل وتردد . وثمة مثال للاستعمالات الارتجالية والعلمية لاصطلاح السودان ورد فى رسالة للقنصل العام فردريك بروس للسفير البريطانى لدى الباب العالى بتاريخ ١٨ ديسمبر ١٨٥٦ فى تقريره عن رحلة الوالى محمد سعيد باشا "الى السودان" . (٨)

ولأن كيان الحكم في السودان اتسم بالتفرد وعدم الانسجام التام مع النمط التقليدي للحكم العثماني ، فان محمد على لم يواجه هذا الموقف بخلق وحدات ادارية حديثة ، وانما لجأ الى اعطاء المناصب والدرجات والاقاليم الادارية الموجودة قبلها ومعان جديدة . اضافة الى ذلك فان أسس اختيار الحكام في السودان ظلت تخضع للتعديلات من وقت لآخر كما هو الحال عند اجراء معظم التعيينات ، فالحكام في السنوات الاولى للاحتلال كانوا قادة مناطق عسكرية مثل على خورشيد الذى امتدت فترة حكمه من ١٨٢٦ الى ١٨٣٨ ، وبذلك اصبح أول حاكم يتولى الاعباء العسكرية والمدنية في كل أرجاء المنطقة المحتلة الى الجنوب من مصر بمعناها الدقيق . وكان خورشيد قد عين من قبل مديرا ، وهو لقب يحمل في طياته دلالات أكبر من مجرد مدير حيث كان مسؤولا بصورة مباشرة عن حكم السودان لدى الادارة في مصر . وفي عام ١٨٣٥ رؤى اعطاء المنصب مزيدا من الاهمية ، فرقيت رتبة خورشيد الى حكمدار ، ومعناها في التركية "المفوض" أو "الموكل" أى المندوب من شخص أعلا مرتبة . وباخضاع الكلمة لمفهوم العصر يتبادر الى الذهن مقابل غير دقيق هو المندوب السامى ، أو الحاكم العام ، والأخير أقرب الى فهم الطلاب في المستعمرات السابقة . وكان مقر الحكمدار (وهو اللقب الذى سوف نصطلح عليه) في الخرطوم ، وهى مدينة أرسى قواعدها قائد عسكرى آخر هو عثمان بك جركس عام ١٨٢٥ ، ثم ظلت تتطور في عهد على خورشيد باشا بداية بعام ١٨٢٦ .

وقسم السودان بعد الاحتلال الى خمسة اجزاء صغيرة تضخمت بسبب سوء استعمال الاصطلاحات لتصبح "أقاليم" . وسوف نرجئ البحث في هذا الموضوع الآن مؤقتين لأن اللغة الانجليزية تقف عاجزة عن وصف التقسيمات السياسية غير الانجليزية بطبيعة الحال . كانت "الاقاليم" هى سنار وكردفان وبربر ودنقلا ، ثم التاكا (التى تغير اسمها الى كسلا حديثا) بعد فتحها سنة ١٨٤٠ . وكان من يكلف بادارة اقليم من هذه الاقاليم يسمى

مأمورا ، بمعنى الذى يؤمر بعمل شىء ، وتسمى المنطقة التى تقع تحت دائرة اختصاصه مأمورية. وعندما تغير اسم الحاكم العام فى الخرطوم من مدير الى حكمدار ، تبع ذلك تغيير فى لقب حاكم الاقليم فأصبح مديرا بدلا من مأمور .

والمأمورية أو المديرية أما أطلق عليها فيما بعد ، قسمت هى الأخرى الى مساحات أقل حين على رأسها الكشاف ، وسميت بالكاشفيات أو الأقسام حسب جنسية من يحكمها ان كان تركيا أو عربيا . وكان الكاشف يتعامل مباشرة مع الشيوخ السودانيين الذين كانوا يمثلون - اذا جاز لنا استعمال هذا التعبير الرقيق - جباة الضرائب ، وهم الذين حطوا على كاهلهم ذلك العبء الثقيل نيابة عن الحكومة . وقد عاصر الكاتبان زمنا كان فيه حكام السودان ، بما فيهم الحكمدار نفسه ، ينتحون الى تلك الطبقة ذات اللسان التركى . وينسحب ذلك ايضا على حكام الكشاف وان كان كاتب اليوميات يذكرنا بوجود واحد أو أثنين من السودانيين فى منطقتى دنقلا والشايقية .

ولا ينبغى أن نستغرب اهتمام الروايتين بالموظفين المسيحيين من الاقباط . فقد عملوا سكرتيرين ومحاسبين وصيارفة للحرب ، فلعبوا بذلك دورا غاية فى الأهمية فى ادارة كان يتحكم فيها حكام مسلمون ، اميون واتصاف أميين فى غالبيتهم . واشتهر الاقباط بأنهم أبغض الاجانب من غير المسلمين فى السودان ، فقد كرههم الكاثوليك والبروتستانت على حد سواء . فهم عند انصار المذهب الكاثوليكى كفار ، وبالنسبة للبروتستانت من رواج الخرافة والبدع . لذلك سعى انصار المذهبين الى تحويل الاقباط الى دينهم . أما المسلمون فقد احتقروا الاقباط لكونهم مصريين من الدرجة الثانية ، وزاد من هذا الاحتقار تقوقع الاقباط فى مذهبهم ، الا أنهم مع ذلك كانوا يتطلعون صوبهم لاعتمادهم على خبرتهم فى الحسابات وأعمال السكرتارية .

على أن المؤلفين يميلان الى معاملة الاقباط بنوع فى العدالة والانصاف . حتى استهجانهما لولع الاقباط بالتآمر ضرب بنظرة اعجاب بشجاعتهم فى مواجهة ضروب الاضطهاد المستمر عليهم . وكلاهما يسهب فى شرح تفاصيل معاناة رجال الحسابات من الاقباط على يد الحكمدار . ولكن هل كان للسودانيين ما يدعوهم للاعتراض على تعذيب أحمد باشا للمحاسبين والصيارفة الاقباط ؟ كلا ، فقد تضاعفت كراهيتهم للاقباط لأنهم كانوا الاداة المنفذة فى جمع الضرائب حيث لعبوا الدور القذر نيابة عن الحكومة ، فتولوا أمر دفاتر التقديرات وعائدات الضرائب ، وأهم من ذلك كله ، فانهم كانوا على علم بديون الحكومة على كل فرد . ولا غرو اذا كان صمود القرون لتلك الاقلية الصلبة من المصريين ضد دين الأغلبية قد ترك شروخا وبصمات على كبرياء أسيادهم .

ولعل القارئ قد شعر بهيمنة الشائعة وأهميتها فى الوثيقتين معا . هذه الحقيقة تؤكد دور الشائعة باعتبارها مصدرا للاستخبارات فى عالم ما كان متاحا للمرء الاطلاع على صحيفة ولا مراسلة صديق حميم . ان الازدواجية الكامنة فى سياسة الباب المفتوح عند ممارسة العمل الرسمى التى اتبعها الموظفون الاتراك ـ المصريون مع ولعهم الفطرى للترويج للشائعة قد أدت الى نتيجة ايجابية واحدة على الأقل : لا سر يمكن كتمانه طويلا . ومن الناحية الأخرى فان القيود الرسمية التى فرضتها عوامل اللغة وتقاليد السكرتارية حالت دون التدفق السلس للمكاتبات شبه الرسمية والخاصة من ذلك النوع الذى كان يشكل شريان الحياة لصناع السياسة على بداية عهد الحكم الثنائى الانجليزى ـ المصرى . فالاتراك ، لكونهم أميين فى أغلب الأحوال ، ما كان فى وسعهم المشاركة فى مثل تلك الممارسات التى اعتبروها غير لائقة فى نظرهم . ومما يؤسف له أنه لا يوجد بين ايدينا مثال واحد مما خطه يراع أى من الحكمداريين الذين جاء ذكرهم فى الترجمتين . بل أن المرء يمكنه أن يقرر فى ثقة أن دارس التاريخ لن

يدشروا في المستقبل على أية آثار أدبية في دور الوثائق القومية في كل من مصر والسودان للزعماء السياسيين المعاصرين يمكن مقارنتها بالآثار التي خلفها كرزمر وونجت وسلاطين في ثرائها وتنوعها وكشفها للأبعاد الشخصية لكاتبها .

على أن الحكم التركي - المصري كان له نقاط ضعف وقوة كسائر أنظمة الحكم على وجه الأرض . ومن ميزاته ،التي لا تتناسب مع روح ذلك العصر ، تحرره من الاعتماد على الاعمال المكتبية ، وكسره لقيود الجمود والبيروقراطية . فالقوة البشرية لمكتب الحكمدارية في عهد أحمد باشا أبو ودان كانت عبارة عن خمسة سكرتيرين فقط ، هم مصطفى أفندي (الذي كان يقرأ فولتير) المسؤول عن المراسلات التركية ، رشيدي أفندي ، الرزنامة ، حافظ سجل الأحداث اليومية ، ومعلم خليل الكاتب القبطي ، وناسخان .

أما أهم نقاط الضعف فهي غياب السلطة المؤثرة بين الحكومة والرعية ، حيث لم يشهد السودان انشاء جهاز استشاري أثناء الاحتلال يضم مجالس للسودانيين لكي تمكن الحكومة ، اذا رغبت في ذلك ، من تلمس مشاعر دافعي الضرائب . ومع ان جرثومة الشورى هذه كانت قد بدأت لترها في التسرب الى الاقاليم الاخرى للامبراطورية العثمانية من خلال ما يسمى بقانون الولايات الذي استحدث عام ١٨٦٤ ، الا أن محمد علي ومن جاءوا بعده مباشرة عملوا جاهدين على منع وصولها الى مصر والاقاليم التابعة لها ، كما كان الحال بالنسبة للاجراءات الاصلاحية الاخرى للدولة العثمانية . وعلى هذا أصبح مقدرا لكل من مصر والسودان سلوك طريق مختلف نحو التطور السياسي .

ومع ذلك ، فان الحكومة تبنت اسلوبا آخر ، على سلبيته ، لرصد نبض الجماهير ، فقد كفلت حق الاستئناف ضد الاحكام الجائرة . ولم يكن حق الاستئناف أو رفع العرائض للحاكم منصوصا عنه بصفة رسمية في الاجراءات البرلمانية للحكومة البريطانية ، ولكنه نبع في السودان كتعبير تلقائي للسخط

الجماهيري العالمي . وقد رأينا كيف صور كاتب الرواية ما كان من أمر الاطاحة بحاكم بربر عباس أغا عن طريق المراشي . وهنا نواجه بهوة تفصل الحكم العثماني المسلم من المفهوم الاوربي الغربي لطبيعة الحكومة . ولا يقلل من عمق هذه الهوة الحقيقية التي نعرفها من أن الحكم البريطاني في الهند في الأربعينات من ذلك القرن ، وفي السودان الانجليزي - المصري حتى عام ١٩٣٦ ، قام على أسس اسلامية أكثر منها أوربية . فالمسلمون بطبيعتهم ميالون الى الوحدة والتكاتف لتصحيح ما يعتقدون أنه تصرف خاطئ ، أو للدفاع عن عقيدتهم ضد المخاطر ، أو لاخماد صوت أقلية تشكل معتقداتها وانشطتها تهديدا للاسلام . الا أنهم لا يتمتعون بنفس الحماس حول قضايا تتسم بالجدية والرتابة ، سيما تلك التي تتطلب مواجهتها انضباطا جماعيا متصلاً .

وفي حوض النيل استسلم السودانيون للحكم التركي - المصري بعد أن برهن القمع الدموي لانتفاضة ١٨٢٢ - ٢٥ على عدم جدوى المقاومة . فالحكومة أصبحت في نظرهم كيانا خارجيا غريبا يتسم بطبيعة استبدادية ، ولكن ما لا يمكن تفاديه يتعين احتماله ، كما يقولون . ومع ذلك فقد كانت حكومة اسلامية على الاقل مهما قصرت في واجبها ، ولكن رجال الدين والتجار تعلموا استغلال الطغيان الجديد لمصلحتهم . ويستدل كاتب الرواية على ذلك بغارات صيد العبيد التي كان يشنها الشيوخ تحت حراسة الجيوش النظامية ، وكذلك التجار الوطنيون وهم يصحبون القوات التركية - المصرية الى اراض لم تكن خاضعة لسيطرتهم للبحث عن الرقيق والسلع الأخرى .

ويسخر كاتب الرواية من محاولة أحمد باشا اخضاع الهدندوة في التاكا عن طريق الدين ، وذلك بدعوتهم للتسليم لجيش خليفة المسلمين . وكانت تلك حيلة سياسية قديمة استخدمها الحكام في السودان لتبرير محاربة المسلمين . وفي الواقع فان احمد كان يمارس نفس الاسلوب الدعائي الذي

أتبعه محمد علي نفسه من قبل حين اختار ثلاثة من العلماء أرسلهم في صحبة الجيش الذي احتل سنار عام ١٨٢١ . أما لماذا لم يستخدم مثل هذا الاسلوب في حملة الدفتردار الى كردفان في نفس العام ، فمرده الى طبيعة السكان هناك حيث رأى أن اللجوء الى العنف انجع من استمالتهم عن طريق الدين . وقد لا يكون من الحكمة أن نتساءل عن احتمال وجود بقية من الاحترام للسلطان كخليفة المسلمين عند السودانيين في ذلك الحين ، لأننا لا نملك استبعاد مثل هذا الاحتمال جملة وتفصيلا . وقد جاء في الكتاب العاشر من "Seyahat-name" لمؤلفه اوليا چلبي الذي زعم انه زار مدينة سنار حوالي عام ١٦٧١ – ٧٢ انه سمع اسمي سلطان الفونج والسلطان العثماني يترددان سويا أثناء صلاة الجمعة . وكتب وليم جورج براون ، الذي زار دارفور بقرن كامل بعد ذلك ، أن سلطان دارفور بعث بعد توليه مباشرة هدايا الى القسطنطينية وكأنه يعبر عن ولائه لبيت عثمان .

وكان الاتراك يفهمون سلوك القبائل السودانية المستقرة على طول حوض النيل رغم الشقة التي تفصل بينهم من حيث التاريخ واللغة وطريقة التفكير والعادات والملبس والطعام . وبعض هذه القبائل ، سيما الدناقلة والجعليين ، استغلت الامكانيات التجارية للوضع الجديد ولعبت دورا هاما في اكتشاف الجنوب الزنجي .

أما بالنسبة للقبائل الرحل بعيدا عن النيل ، مثل البجة في الشرق ، أو البقارة والكبابيش في الغرب ، فقد كان الوضع مختلفا تماما ، حيث واجه الاتراك أكبر اخفاقاتهم . كانت قواتهم تتبع فوق الآبار في زمن الجفاف ليرتوي الموحل أو يهلكوا دون ذلك ، وعند ورودهم الماء مضطرين ، يستولون على ماشيتهم عوضا عن الضرائب . ولم تفعل الحكومة شيئا لتشجيع الناس على تكاثر قطعانهم وتحسين نوعيتها . والعلوم

البيطرية كما نعرفها الآن ، كانت في طفولتها الأولى ، والعدد القليل من المفتشين البياطرة في خدمة الجيش كان يتفي بالكاد لعلاج الدواب المستخدمة في نقل الجنود . أما علاقتهم بالعبابدة رعاة الابل الذين كانوا يسيطرون على الممر بين كروسكو وبربر ، شريان النقل البرى بين مصر والسودان ، فقد ساءت بشكل خطير بعد فترة من الود المتبادل كما شرح المؤلف بالتفصيل . ولكن بينما كانت السياسة تقتضي عدم الدخول معهم في قطيعة ، فان طبيعة وجودهم القبلي على الحدود الحبشية لم تهيئ الجو الملائم لصلح دائم معهم . وفيما يتعلق برفاعة أبي روف ورفاعة أبي جن ، فرعي عربان أبي روف اللذين استحوذا على اهتمام الرواية كثيرا ، فقد اتسمت علاقة الأتراك بهم بتوتر مستمر ، لأن هؤلاء الرجال ، مثلهم مثل رجال الحدود في أي مكان ، ظلوا يركنون الى الفرار عبر الحدود عند قدوم جباة الضرائب الأتراك . ولكن حتى ضمن هذه القاعدة العامة فان مراعاة المصلحة الشخصية دفعت بالبعض الى الهجرة العكسية كما فعل أبو جن الذى صرح الى احضان الحكومة طلبا للجوء عندما اغار كاسا ثيودوراس (الامبراطور ثيودور الثاني فيما بعد) في شبابه على السودان ، وطلب اتاوة حرب من رجال القبائل السودانيين على عهد الحكمدار خالد باشا خسرو (١٨٤٥ – ٥٠) .(٩)

كانت مهمة حفظ الامن ، والجزء الأكبر من مسؤولية شن الحملات السنوية على الرقيق تقع على عاتق المشاة النظاميين ، وهي قوة انشأها محمد علي باشا في الفترة من ١٨٢١ الى ١٨٢٤ ، وقام بالاشراف عليها وتدريبها اوربيون . وبمرور الزمن كثرت اعداد الزنوج في قوة المشاة حتى عام ١٨٣٧ ، تاريخ وصول كاتب اليوميات الى السودان ، حين صارت غالبية القوة في الفرقتين الاولى والثامنة من الزنوج ، خصوصا بين جنود الصف نتيجة لحملات صيد العبيد وتنازل دافعي الضرائب عن العبيد للحكومة بدلا من الضرائب . أما الضباط فكان جلهم من الاتراك قبل بروز اتجاه جديد

بتطعيمهم بنفر قليل من الشبان السودانيين المتفوقين من الصف بعد منحهم رتبة ضابط . ومع ذلك فلم يكن " للأحرار " من السودانيين ، أى العرب ، دور فى الجيش النظامى .

جاءت الفرقة الثامنة ، التى تحتل حيزا كبيرا فى اليوميات ، الى السودان عام ١٨٢٨ . وقبلها بنحو ثلاثة عشر عاما كانت نفس الفرقة (أو أخرى تحمل نفس الرقم) تقوم بحملة فى موريا ضد الاغاريق بقيادة ابراهيم باشا . وفى السودان عززت بها الفرقة الاولى التى كانت هنا منذ ١٨٢٤ . وكان غرض محمد على من وجود الفرقة الثامنة فى السودان ، أول الأمر ، هو غزو الحبشة ، الا انه احتفظ بها داخل السودان بعد زوال شبح الحرب . وقد تمركزت الفرقة فى ود مدنى مع كتائب متفرقة تتبع لها فى سنار والخرطوم .

أما بالنسبة للتشكيلات غير النظامية فقد كانت تتكون من الخيالة فى معظمها . وكانت هذه القوات تمثل نمط النظام العسكرية السائدة قبل استحداث محمد على لتوفيه الحديث " النظام الجديد " . وكان عصب هذه التشكيلات من أفراد من قبيلة الشايقية فى السودان ، وعرب الفزارة من صعيد مصر ، ثم مجموعة المغاربيين المرتزقة المعروفين بالاسم الفضفاض " الحضارية " ، اشارة الى الجهة التى اتوا منها ، وقد ضمت صفوفهم جنودا من كل بقعة تقع بين مصر والمحيط الأطلسى . وقوة فرسان أخرى كانت تسمى " دلى " (المجنونة) تتكون من أفراد يتحدثون بالتركية . وقد درج الأجانب فى السودان على تسمية كافة القوات غير النظامية الباشبوزق (باشى بزوق بالتركية وتعنى الجمرة المشروخة) وهو اصطلاح يدل على الوحشية . من بين قوات الخيالة غير النظاميين الثلاث ، لعب الشايقية أكبر الأدوار حسبما ورد فى جزئى هذا الكتاب . وقد استمر ولاؤهم للحكم التركى - المصرى طوال السنين حتى نهايته على يد الثورة المهدية ،

رغم الامتحان الصعب الذى تعرض له بسبب السياسة الضريبية التى اتبعها معهم أحمد باشا . وقد ذكر كاتب الرواية بعض ضباطهم ، ومن بينهم اسلاف للفريق ابراهيم عبود رئيس الدولة الأسبق للسودان .

لم يتورع محمد على باشا فى ايامه العصيبة عن ارتكاب القتل خوفا من ارتداد الخنجر اليه ، غير انه ، وبعد أن تقدمت به السن اتجه نحو تطبيق حكم القانون على معارضيه . ولكن هؤلاء ما كانوا مستعدين ، لكونهم اتراكا ، للاستجابة التلقائية لحكم القانون الذى لا يفرق بين الحاكم والمحكوم . ولو أن الأمر وقف عند حد الاحكام الصادرة من القضاة فى أمور تتعلق بالقانون الاسلامى لهان الأمر ، ولكن اعتراضهم انصب ، بالدرجة الأولى ، على القوانين والأوامر الصادرة من القاهرة والتى تلزمهم بمعاملة الجميع بمعيار واحد من العدالة بصرف النظر عن المكانة الاجتماعية أو الأقدمية أو الجنسية أو الدين . غير أن تلك السنة لم تكن لها جذور داخل حدود السودان كما يؤكد الكاتبان . فكلما ارتفع التركى فى مرتبته ، كلما قل اهتمامه بتفاصيل بنود القانون ، فيطلق العنان لرغباته الشخصية . وفى القاهرة ، ما كان على الوالى اذا أراد التخلص من أحد الرعايا المزعجين الا مجرد الاشارة بذلك ، فيقوم ضابط بوضع حد لحياته . واذا صح أن أحمد باشا قد دبر اطلاق النار على قائد الشايقية كبال بن شاويش كما ادعى كاتب الرواية ، فانه بلا ريب كان يقصد سرعة تطبيق العدالة . فقد كان انصار تلك المدرسة المتهورة يؤمنون بانه ما من قاض يراجع تصرفات الحاكم غير الحاكم نفسه . والحاكم الحق فى نظرهم هو الذى يحكم ليشعر الناس انه يحكم .

واختلاف مفهوم العدالة بين الفرنسيين والايطاليين من ناحية ، والاتراك من ناحية أخرى ، لا يعنى بالضرورة أن الأتراك ما عرفوا العدالة . بل أنهم بالعكس من ذلك تماما كانوا غاية فى الحساسية تجاه ما يظنون

انه حق أو باطل . والرواة السودانيون بدورهم لهم معاييرهم خاصة للحكم على أولياء أمورهم من الأتراك ـ المصريين . فقد يثنون على حاكم أحيانا لفعل قد يعتبره المنظرون الغربيون ضد الاعراف الاجتماعية . ولقد قابلوا بالاستحسان مثلا قرارا أصدره حكمدار باعفاء رجل دين مرموق من الضرائب ، مع أن الحاكم لم يراع فى ذلك صالح دافعى الضرائب الآخرين الذين وقع عليهم عبء النهوض بسد العجز ، وانما كان ينطلق من حبه للتظاهر باعمال الخير .

هذا الاحساس الاعتباطى بالعدالة ، لم يمنع الأتراك بأى حال ، من تبنى بعض الفضائل السياسية المستحسنة . فالاحترام المدروس من قبل الحكومة للأميرة نصرة بنت عدلان ، سليلة حكام سلطنة الفونج السابقة فى سنار ، لا يمكن وصفه الا بالذكاء والشهامة معا . كذلك كان الحال مع كبار زعماء القبائل الذين ما أن يخضع أحد منهم للحكومة ويبدى استعداده لدفع الاتاوة حتى تهدى له الكسوة الرسمية ، وتحترمه رجال الحكومة ، بل أن بعضهم دعى لزيارة مصر ضيفا على الوالى .

دلت التجارب على أن رجال الدين (العلماء) ، دون سائر القطاعات الأخرى فى المجتمع السودانى ، هم أول من كانوا يتصالحون مع الغزاة . وقبل دخول الأتراك الى السودان ، كانت البلاد تعيش تحت التأثير الدينى والاجتماعى للجزيرة العربية ومصر ، وكان سلاطين سنار يحتفلون بالعلماء الوافدين والعائدين من هناك ويضعونهم فى المكانة اللائقة بهم . وفى العهد التركى نفسه ظلت هذه الروابط الدينية والاجتماعية مع الحجاز قائمة ، ولو أن حروب الوهابيين قد اضعفتها كثيرا ، فاتجهت أنظار السودانيين تتجه أكثر الى الأزهر فى القاهرة كهاد ودليل . ومنذ أن رافق الأئمة الثلاثة من الأزهر جيش محمد على باشا الذى غزا السودان عام ١٨٢٠ ـ ٢١ ، ظلت البلاد

تستقبل كبار علماء الأزهر من المصريين لجيل كامل . أما بقية العلماء فقد كانوا أيضا ممن تلقوا تعليمهم بالأزهر . وانخرط كل هؤلاء العلمـــاء الأزهريون فى عمل منظم لاستمالة السودانيين لنظام الحكم . وشعرت الحكومة باهميتهم فاجزلت لهم العطاء فى وظائفهم الدينية والقضائية . فما كان من باب اطلاق القول على عواهنه - اذن - عندما وصف السودانيون أولئك النفر من العلماء باذناب الطغاة ، وذلك حين تهيأت لهم مناهضة الدخلاء أخيرا .

ولم يغب عن بال المؤلفين أمر المواصلات والتجارة ، فالحكم التركى - المصرى اعتمد فى بقائه على شبكة المواصلات النهرية داخل البلاد . وما كانت القوارب باشكالها الكبيرة المربعة معروفة فى السودان . أما قوارب الركاب للمسافات البعيدة (الذهبية ، والكانجا الأصغر والاسرع) فكانت كلها ملكا للحكومة تصنع فى مصر من الاخشاب الاوربية ، وبهياكل مجوفة ، وأشرعة ثلاثية . وأنشأت الحكومة فى السودان ورش لصناعة نوع من المراكب الضخمة بطريقة بدائية ، ودون هياكل لتعمل فى نقل البضائع عبر خطوط الملاحة الداخلية أو فى التصدير شمالا الى الدلتا . ولم تشهد البلاد البواخر النيلية حتى عام ١٨٥٧ حين جاءت أول باخرة صغيرة ذات محركات المتدفعة تعبر عبر الشلال الثانى .

وكانت من الأشكال الفظة القاسية لحركة النقل الحكومية طريقة السخرة . فقد كان الفلاحون السودانيون على ضفاف النيل يستخدمون قسرا فى سحب القوارب عند سكون الهواء ، أو رفعها الى داخل الماء فى الأماكن الضحلة . ويستفيد كاتب اليوميات من هذه الطريقة حين يحتاج لها ، ثم يذرف عليها دموع التماسيح قيط بعد . ومن مظاهر القسوة أيضا أسلوب احتكار الحكومة لتصدير السلع . فلم يكن مفروضا على المزارعين زراعة محاصيل بعينها فحسب ، لكن السلطات فرضت اسعارا لشراء المنتجات منهم فى السودان ، كالصمغ

والصمغ العربى ، والريش والمواشى لبيعها بأسعار مجزية فى أســواق الاسكندرية . ومع أن كاتب اليوميات مغرم بتسجيل أسعار المحاصيل ، الا أنه لا يحفل بالنظريات الاقتصادية السائدة فى أوربا .

الأوربيـــون :

عاش كاتبا الوثيقتين حياة خشنة . فقد حلا فى معسكرات ومستشفيات ومكاتب من الطين . وفى أوقات الاستقرار كانا يأويان الى منازل من الطين أيضا ، منازل ذات نوافذ من الشيش دون زجاج . أما الأرضية والسقف فمن القش وروث البهائم ليزيدها متانة . ولم تكن هنالك ناموسيات تقيهما ويلات البعوض الذى افترسهما من السحر الى الغسق خلال فصل الخريف وما بعده لأسابيع . وبطبيعة الحال ، فان أشياء مثل طب المناطق الحارة ، والرعاية الصحية وغيرها من العلوم الحديثة لم تكن قد بلغت شأوا يعتـد به فى ذلك الوقت . فالملاريا مثلا ظلت تنسب الى الهواء الفاسد والطبيعة ، ناهيك عن طرق علاجها التى لم تكن معروفة . وقليلون وثقوا فى لحاء شجر الكينا ، مصدر الكوينين ، لكن الغالبية العظمى لم تلق له بالا . وقد كان الاوربيون يعتمدون على البراندى فى الحفاظ على صحتهم ، الى جانب عرق البلح بديلا لمن لا يقدرون على شرائه . أما مؤلف اليوميات فقد كــان رومانسيا يشرب لكى ينسى همومه .

وكانت الجوارى يتمن بكافة الواجبات الزوجية بالنسبة للأجانب . اثنان منهم فقط احضرا زوجتيهما من أوربا ، برون رولليت التاجر ، وفيغــورو المدرب بالجيش . وكان الاوربيون والاتراك يلبسون رداء فضفاضا يسمى "النظام" ، أو الزى العسكرى الرسمى اذا كانوا فى الجيش . والمرتبات كانت ضئيلة ، لكنها تكفى لمثل حياتهم البسيطة تلك ، خصوصا اذا اعتدنا

فى الاعتبار التعيينات والملف للعيوانات . ولم يعرف المستخدمون منهم عطلات منتظمة ، لأن عقود العمل لم تنص عليها ، ولا على معاش محدد عند التقاعد . لذلك أصبحت لهذه المخصصات الاضافية أهمية خاصة عندهم . أما أصحاب المهن الطبية كالأطباء والصيادلة ، فقد انخرطوا فى العمل الخاص . وكما يوضح كاتب اليوميات ، فانهم كسبوا الكثير من عطايا المرضى الموسرين . والواقع ان مجال العمل الخاص كان متاحا لكل من أراد الخوض فيه دون قيود . فالحياة ، اذن ، كانت ميسرة الا لمن كان يتمتع بخيال متعصبا .

وقراءة متأنية للوثيقتين تكفى لمحو البقية الباقية من أى انطباع بأن الفرنجة فى السودان عاشوا فى مجتمع متعاصب . بل بالعكس من ذلك تماما سادت بينهم روح العداء والوشاية ببعضهم البعض لدى الحكام المسلمين ، والتآمر والوقيعة . وتشهد على صحة ما يورد المؤلفان من وقائع روايات الرحالة . ومن ألمع ملاحظات الرحالة على الفرنجة ما تقرؤه لفردناند ويرن ، رجل ذكى ، ومتصلب فى رأيه ، ومغرور لكنه مع ذلك لا يخلو من بعض اللطف أحيانا . وهذا الالمانى الذى رافق الحملة الى التاكا ، له كتابات تضعه فى مصاف كتاب من أمثال جون بيركهاردت وونستون تشرشل ممن عرفوا بفخامة كتاباتهم عن السودان .

ويجب أن نتحفظ على النقد المرير لويرن ، فلا نسلم بكل ادانة ساقها على أولئك القوم . فالرجل باختصار لم يصادف أوربيا فى السودان الا وكان فقيرا وبائسا ، وخصص صفحتين من (جولات أفريقية) ذما صرفا للايطاليين كافة . حتى حسنتهم الوحيدة التى اعترف بها ، وهى اعتدالهم فى شرب الخمور القوية ، عزاها ويرن الى رائحتهم الكريهة التى اشتهروا بها من دون الاجناس . ولطالما أيضا كان منفرا شحاذة النفس ، " انهم لا يأكلون من الطعام ذلك العجين الذى يسمونه المكرونة ... وما عرفوا

تقل صفات مثل الشرف والامانة والشجاعة ." والفرنسيون ، على قلتهم فـي السودان ، لم يكونوا في رأيه غير مهرجين ودجالين ومتبججين . أمـا الانجليز فقد كان عددهم قليلا غير مؤثر يحمل معظمهم ميكانيكيين ومهندسين . ولم يجد ويبرن ما يدعو الى الاحترام حتى بين بنى جلدته الالمان الذيـن عاشوا في وادى النيل . فهم فى رأيه ميكانيكيـون غير متعلمين افسدتهـم عادات الشرق فصاروا أوغادا ولصوصا ، ونصابين ، وسكارى وقتلة . ويمضى ويبرن في شجاعته المر قائلا ان الايطاليين من بيدمونت كانوا قمة فـي الغـدر والخيانة ، علاوة على لهجتهم المستهجنة . ثم يضرب مثلا بأحدهـم كـان يدعى لوميلـو ، وهو رائد صيدلى فى الخرطوم ، بدأ حياته العمليـة فـي مصر مسجلا لنقاط البليارد في صالة قطمبس بالاسكندرية .(١٠)

كان من الممكن ان يكون فهمنا أكثر تعاطفا مع محتويات الوثيقتين اذا قدر لنا أن نلم ببعض الخلفيات عن المؤلفين : الوطن ، والتعلـيم ، والغرض من حضورهما الى السودان . وعلى كل ، فمن الواضح ان كليهمـا متعلـم ، ولو أن الفرنسى يبدو أكثر تعليما من زميله الايطالى . وموقـف الفرنسى أفضل من حيث سهولة اللغة وسلاستها ، وغزارة المفردات ، وعمق النظرة الى الحياة . ولا فرق اذا كان وطن كاتب الاحداث ، أو وطن أبويـه فى أواسط ايطاليا أو جنوبها ، فليس هنالك ، في جميـع الأحـوال ما يدفعه الى شعور بالغ بالتفوق العرقى أو القومى . وجاء كاتب اليوميـات من فرنسا في عهد لم تفسده موجات النعـرة القومية العارمة ، فلا نـرى بادرة تنازل من الكاتبين لنزعات الحنين الى الوطن أو التفاخر به . وهـذا كاتب اليوميات يروى حدث سقوط القسطنطينية على يد جيش فرنسى دون أن يهتز حسه الوطنى . أما موقفه من الدين فغاية فى السلبية وعدم الاكتراث ، ولا يخفى كراهيته لمواطنه سانت سايمون . من الناحية الأخرى نجدهمـا مفتونين بالايمان القاطع للمسلمين السودانيين البسطاء .

ولم يرتكب أى من الكاتبين خطأ تقويم دوافع وأفعال حكام النظـام

التركى ـ المصرى بالمعايير الأخلاقية والقانونية السائدة آنذاك فى كل من فرنسا وايطاليا . ولولا انغماسه من رأسه الى أخمص قدميه فى الحياة البدائية البسيطة من حوله ، لانزلق الفرنسى بسهولة الى ترديد آخر صيحات الدعارة فى المجتمع الفرنسى الأنيق فوق الأراضى السودانية . وبالمثل كان يمكن للايطالى ، نظرا لما تلقاه من تعليم ثقافى أفضل ، وربما لحداثة عهده بالحياة الطلابية فى وطنه ، أن يسوّد الصفحات بكلمات غريبة من ايطاليا السالفيولكونية التى كانت تموج بالمؤامرات ، ولاختلط عليه الهابسبورغى بالتركى .

والمؤلفان فوق ذلك كله تبرآ من شبهة الرياء والنفاق . كتب بكلر ـ مسكاو يقول " ان أمر بعض الاوربيين ، ومنهم الانجليز ، لعجيب حقا . فهم يستهجنون مجرد سماع كلمة الرق ، ومع ذلك لا يجدون حرجا فى امتلاك الجوارى عندما يأتون هنا ." على أن هذا الأمير العالم نفسه لا يختلف عن ابناء جنسه . والا فما سر انشراح قلبه عند رؤية تلك الفتاة الراقصة فى القاهرة ؟ بل ما تفسير احلامه ، وهو فى طريقه من الاسكندرية الى القاهرة ذات يوم ، حين تمنى حدوث ما كان يسمع من هجوم عربان مصر على الفتيات فى عرض النيل للظفر بالعشاق المولهين من المسافرين ؟ وقد وقع بعض الاوربيين ، للأسف ، فريسة لانواع شتى من النفاق الرومانسى الغالى مما كان سائدا فى ذلك الزمان . فهناك النفاق فى دنيا التجارة ، وكان أقوى تأثيرا على مجموعة رجال المال الاوربيين فى الاسكندرية ، حيث تدفقت منها المذكرات الغاضبة لتملأ دور الوثائق للقوى الاجنبية الكبرى وهى تحكى الصراع بين سوق الاحتكار المحطاوى من ناحية ، والاوربيين المستنيرين المنافحين عن التجارة الحرة من ناحية أخرى . وطغى على السطح حديث عن محاربة تجارة الرقيق يمتزج بالنفاق ، رغم نبل المقصد فى الظاهر . وكان فى جوهره حديثا مشوبا بالعبارات الطنانة الجوفاء والجهل بالواقع ، والا فكيف ترتفع

الأصوات بالغاء تجارة الرقيق بصورة لا زب ، مع انها كانت مؤسسة اقتصادية ارتكز عليها الاقتصاد السوداني . ثم النفاق السياسي الذي تمثل في سيل المجلات التي نشرها الرحالة على ضفاف النيل دون أن يتجرأ أحدهم على التوغل جنوب وادي حلفا . قصص عن المعابد القديمة الشامخة ، تلميحات عن الكتاب المقدس ، مناظر غروب الشمس البهيج ، جميعها موضوعات تناولها كاتب بعد آخر .. الا مصير العبيد من حولهم ، لم يقربن اليها أحد .

ومن الأشياء التي تحرر منها المؤلفان تماما هو ذلك الشعور بالشبق الذي تميز به أدب كثير من الرحالة في وادي النيل حينذاك . أما الاوربيون المقيمون في السودان فما كان انفعالهم بالجنس في شكل انفعال الرحالة ، فقد كان متاحا لهم شراء الجواري من غير المسلمات ، والا تعرضوا للمشاكل مع القانون . ولم يعرف السواح الانجليز والفرنسيون باقتناء الجواري لكنهم تزاحموا على أسواق القاهرة لمشاهدة الفتيات شبه العاريات في المزاد . وحتى حصر الاسواق عقب اضمحلال هذه التجارة في أواخر القرن ، اقتصرت وكالات السياحة على تنظيم أسواق وهمية للرقيق لبعض الزوار من ذوي الميول الشهوانية . وداوم الفرنسيون على زيارة صعيد مصر طلبا للراقصات اللائي استبعدهن محمد على باشا الى هناك من باب الاحتشام .

أما موقف الكاتبين من ظاهرة استئثار التجار وكبار القوم من السودانيين للفتيات للتكسب من الدعارة ، فلم يرق الى ادانة قاطعة ، بل نفور وعدم رضى . فكلاهما يسلم بان تجارة الرقيق مؤسسة قائمة بذاتها ، ومع أن كاتب الرواية يمتعض من القسوة التي تصاحب صيد العبيد الا انه لا يجد منها بدا ، ولكنه مع ذلك لا يكف عن التنديد بانحراف الاوربيين على تلك الوحشية تجاه الرقيق .

ان غياب التعصب الديني عند القرنجية لم يشر تعاطفا بين المسلمين ، لأن المسلم بطبيعته لا يبالي كثيرا بالنواحي الدينية عند غير المسلمين ، بل

انهم لا يتدخلون عادة فى الأمور اللاهوتية . فى عام ١٨٤٨ حضر اثنان من القساوسة الفرنسيين الى الخرطوم قادمين من الحبشة ، وبذلا جهدهما لانشاء ارسالية ، ولكن رئاسة الرومان الكاثوليك اعترضت على الفكرة . ومع أن الاعتراض قد يكون نابعا من بعض تقارير الصحف الشخصية فى القسسين ، الا أن المفارقة تكمن فى أن نفس هؤلاء الاوربيين الذين تنكروا لدينهم هللوا عند قدوم بعثة تبشيرية أخرى عام ١٨٤٨ بقيادة الاسقف اقنازكنوبليشر الى الخرطوم حيث انشأت مدرسة وكنيسة . قامت نفس الجماعة المرتدة ، وضمهم عدد كبير ممن جاء ذكرهم فى هذا الكتاب ، باستقبال البعثة بحماس عظيم ، وسارعوا فرحين فى زواج جواريهم وتعميد أطفالهم غير الشرعيين . ويشهد بيت المعمودية فى ابروشية الخرطوم على هذا الفصل المفجع من تهافت البشر .

الوثائق المقابلة :

القارئ الذى يبحث فى مقارنة هاتين الوثيقتين باخرى تماثلها من رسائل القناصل فى مصر الى سفراء دولهم فى السودان ، أو لممثليها لدى الباب العالى ، سوف يصاب بصدمة عنيفة . فقد كان السودان يعتبر من الاصقاع البعيدة التى لا تمثل أهمية تذكر . هذا بالاضافة الى عدم وجود نواب أو عملاء للقناصل فى الخرطوم ، الأمر الذى جعلهم يعتمدون فى تلقى المعلومات على ما يسمح بها مترجموهم من دواوين الحكومة فى مصر نقلا عن الرحالة القادمين لتوهم من الخرطوم ، أو عن الشركة فى القاهرة .

الأمر الآخر هو أن رسائل قنصليات الدول الكبرى الضالعة فى مسألة الشرق كانت تتميز بالتحيز والغرض . وقد ظل السفير البريطانى فى القسطنطينية ، وممثل بريطانيا وقنصلها العام فى مصر يرددان تهديدات

الكبير بالموسيقى لمحمد علي باشا بصوت أعلا من صوت سيدهما . أمــــا القنصل الفرنسي العام فقد أضاع جل وقته في منازعات مع زميله البريطاني . ولم تنتعش المطامع النمسوية في السودان الا بعد وصول البعثة الارسالية الكاثوليكية الى الخرطوم عام ١٨٤٨ . ومن الذين تركوا الحقيقــة عنــد الكتابة عن السودان ممثلو الدول الاوربية الصغيرة ، خصوصا ساردينيــــا ودوقية تسكاني النمسا ، ومملكة الصقليتين . ولكن الممثلين كانوا أنفسهـــم تجارا عرفوا بالحذق ، ولكنهم مع ذلك تعرضوا لاقسى ضروب التنكيـــل أحيانا .

والرواية السودانية تحكي قصة سلطنة الفونج في سنار وما جاء بعدها من حكم تركي ـ مصري مما يكون مادة لهاتين الوثيقتين . (١١) والرواية تفسهـــا من صنع اياد عدة تعرف منها نصوص روايات متباينة ، اثنتان منهمـــا قد طبعتان (تاريخ ملوك السودان) ، مكي شبيكة ، الخرطوم ، ١٩٤٧ ، ثم نص منقح آخر هو (مخطوطات كاتب الشونة) ، الشاطر بصيلي عبد الجليـــل ومحمد مصطفى زيادة ، القاهرة ، ١٩٦١ . وهنالك ملخص للروايـــــة بالانجليزية في كتاب السير ه.أ. ماكمايكل (History of the Arabs in the Sudan, ii, Cambridge, 1911, London, 1967.)

وليس لنا علم بوجود ترجمة كاملة لها بأيــة لغــة .

والحقبة التاريخية التي تتناولها الرواية واليوميات عن الســـودان مسجلة بصورة متفوقة غير متوازنة في الأدب الأوربي . فالاسهام القليـــل مـــن الكتب لمؤلفين صحبوا اسماعيل باشا في حملته على سنار عام ١٨٢٠ ـ ٢١ ، أو ذهبوا هناك في أعقاب الحملة مباشرة ، قد التزم الصمت المطبق حيـال الفتح التركي ـ المصري لكردفان عام ١٨٢١ ، وانتفاضة السودانيين التـي أعقبت مقتل اسماعيل باشا عام ١٨٢٢ ، مما يعتبر هذا الكتاب المصــــدر الوحيد لتفاصيلها . ولقد كانت حصيلة الأعمال المكتوبة للأوربيين شحيحـــة جدا خلال معظم فترة حكم خورشيد باشا ، ولكنه على أيامه الأخيــرة فـي

السودان ، وخلال الأمد القصير لتولي خلفه أحمد باشا أبو ودان (١٨٣٨ - ٤٣) ، بدأ الاهتمام الاوربي يتجدد قليلا . ولقد لخص المؤلفان الاسباب التي أدت الى عودة الاهتمام فيما يلي : رحلة محمد علي باشا الى السودان في شتاء ١٨٣٨ - ٣٩ ، والرحلات الثلاث اللائي قام بهن سليم قبودان في الأعوام ١٨٣٩ - ٤٠ و ١٨٤٠ - ٤١ ، ثم في ١٨٤١ - ٤٢ لاكتشاف منابع النيل الأبيض ، وأخيرا غزو التاكا عام ١٨٤٠ .

سجلت الجريدة الرسمية (الوقائع المصرية) رحلة محمد علي باشا الى السودان في عبارات طنانة . وقد نشر أدمون جومارد ترجمة لها بالفرنسية تسلمها من مصر تحت عنوان :

(Etudes geographiques et historiques sur l' Arabie, Suivies de la relation du voyage de Mohammed Aly dans le Fazoql, (etc.), 1839)

كذلك نشرت ترجمة فرنسية لمذكرات سليم قبودان (أو سليم بمباشي - بكباشي بالتركية حسب رتبته في البحرية المصرية) جمعت خلال رحلتيه الأوليين بواسطة جومارد في (Bull. de la Societe de Geog. de Paris, XVii, 1842, XX, 1843).

وهناك نسختان استنبطتا من الترجمة الفرنسية ، الأولى لمحمد مسعود (سليم قبودان ، الرحلة الأولى للبحث عن منابع النيل الأبيض " الخ " .) ، القاهرة ١٩٢٢ ، والثانية لنسيم مقار (البكباشي المصري سليم قبطان والكشف عن منابع النيل) بمقدمة من محمد شفيق غربال ، المجلد الأول ، القاهرة ، ١٩٦٠ . وقد اتيحت فرصة عمل لفردناند فيرن على نحو الأسطول الصغير لسليم في رحلته الثانية ، فوصف أحداثها في كتاب بالالمانية نقله اوريلس الى الانجليزية تحت عنوان (حملة لاكتشاف منابع النيل الابيض) في مجلدين عام ١٨٤٩ . وكان ما كتبه ج . تيبوت عن رحلته مع سليم عام ١٨٣٩ - ٤٠ والذي نشر في (Bull. de la Societe de Geog. de Paris, XV, 1841, PP. 127 - 32).

أقل شأنا من الناحية العلمية كيفا وكما .

لقد ظل الكاتبان برقبان فى شك ورببة مغامرة محمد على لاكتشاف ما كان يتوقعه من ثروات هائلة ، لكنهما مع ذلك يظهران اهتماما مصطنعا بها ، ثم بواسياته بعد أن خاب ظنه فى العثور على الذهب المزعوم فى فـــازوغلى . وكان الجدل العلمى عن مكان منابع النيل على أشده بين الجغرافيين فى العالم ، الأمر الذى دعا محمد على الى تفسير هـــذا الاهتمام الاكاديمى لصالح تحقيق المطامع الخاصة . ومن هنا بدأت هواجسه من أجل الوصول الى جبال القمر قبل الآخرين ، وبدأت محاولاته المدروسة فى اخفاء هذه الهواجس فى أحاديثه مع الاوربيين .

برهنت رحلات سليم على أن منابع النيل الأبيض ربما تكــون فــى الغالب الأعم على نفس المواقع التى حددها الجغرافيون البطالسة . وقــد كان الكثيرون فى أوربا ومصر والسودان يعتقدون حتى ذلك الحــين أن النيل ينحدر من الغرب وليس من الجنوب . وفى الأطلس الضمن فى كتاب :
(L'Egypte et la Turqùie de 1829 a 1836, vol. 1, Egypt et la Nubie, 2 pt., 1836.)
لمؤلفيه ا د مونديبير ـ مارى كادالفين ، مدير مكتب البريد المصرى بالاسكندرية ، و ج . دى بروفرى ، يظهر النيل الابيض وكأنه ينبع من جنوب جبل مــرة منحدرا صوب الشرق ، ثم شمالا فى اتجاه الخرطوم فى شكل قوس كبــير . وخارطة فى نفس الكتاب توضح انه ينبع من الغرب استنادا على شرح مــن السلطان تيمـة ولد المسبعاوى حاكم كردفان الذى زعم ان للنيل منبــع ثلاثى الى الجنوب من جبل مرة مباشـرة . كذلك آمــن اقتاز بالم ، الذى كان فى كردفان حتى عام ١٨٣٨ ، على هذا الاعتقاد القائــل بأن أصــل النيل فى الغرب على أثر محادثــة مــع أحد الأهالى فى دارونقــــا ، وهى حجة واهيـة تبناها ستتقـارت وتوضـح فى كتابهمـا بالالمانية والــذى ترجـم الى ... (رحلات الى كردفان .. الخ) ١٨٤٤ .

والرصد الكامل الذى أورده كاتب الاحداث لحملة التاكا ينبغـــــى قراءتـــه مع النسخة الوحيدة المنشورة لشاهد العيان فرد ناند ويرن فى سفره

(Felzug von Sennaar nach Taka, Basa und Beni-Amer mit besonderem Hinblick auf die Volker, von Bellad-Sudan (etc.), Stutgart, 1851)

الذى نقله الى الانجليزية ج.ر. جونستون تحت العنوان السجع (جولات افريقية .. الخ ..) عام ١٨٥٢ . ولا يحق للمؤلف التباهى برحلاتـــه الى الباسا حتى عامر لأنه لم يتوغل داخل أراضيهم. ان الجهل باللغة العربية ، ثم بشؤون السودان أوقعا مترجم ويرن فى مطبات صغيرة عدة ، لكنها عموما لا تحجب براعة الوصف عند ويرن . ويمكن أن نقـــرر باختصار أن الصور الوصفية عند ويرن سوف تبقى ظلا جديرا بالاعجـــاب لوصف كاتب الاحداث الذى يتمتع بقدر أكبر من الواقعية ومعايشة الأمور عـــن قـــرب.(١٢٣)

هوامش مقدمة ريتشارد هيل

١ . استبعدنا الاسم المعاصر اثيوبيا بصفة مطلقة .

٢ . هنالك قائمة بمخطوطات باركنز فى ورقة وايتهد (Mansfield Parkyns and his projected History of the Sudan.)
مجلة السودان فى رسائل ومدونات ، الخرطوم ، المجلد ٢٣ ، ١٩٦٠ ، ص ١٣٣ - ٤ .

٣ . (Ministere des affaires etrangers, Paris, Correspondance politique des Consuls, Alexandrie et le Caire, Xvi, 1843 P. (37)
وقد نشرت رواية مشوهة للحملة فى كتاب ف . سكوشر (L'Egypte en 1845, 1846, PP. 114 - 20)
بصورة اقل اسهابا فى كتاب : (A.A Paton, History of the Egyptian Revolution, 1863, PP. 228 - 32)

٤ . (Reisen in... Africa, ii, pt. 2 Stuttgart, 1844, PP. 459 - 60)

٥ . (Travels in Kordofan, 1844, P. (149) . أما الامير هـ . ل . هـ فون بكلر - مسكاو (H.L.H. Von Puckler - Muskau) - الذى كان فى ود مدنى فى أبريل ١٨٣٧ فيطلق عليه "بارتولو" (Egypt under Mehemet Ali), Transt. H.E. Lloyd, ii, 1845, P. (338).

٦ . (Life in Abyssinia, ii 1853, P.429) ومن الواضح انه كان "اليهودى الصقلى .. ذلك المخلوق الحقير" الذى باع زجاجة خمر رديئة بثمانين قرشا لبكلر - مسكاو فى الخرطوم (Egypt under Mehemet Ali, ii, P. 297)

٧ . ناقش ريتشارد هيل (Richard Hill) ظروف وفاة أحمد باشا فى مقال (Death of a Governor-General) المنشور فى (مجلة السودان فى رسائل ومدونات ، المجلد ٣٩ ، ١٩٥٨ ، ص ٨٣ - ٨٧ .)

٨ • (Public Record Office, London, Foreign Office Papers (below, passim, P.R.O., F.O.) 195/522, pt. 2 .)

٩ • "بقايا مخطوطة لم تنشر عن أحداث السودان ، ١٨٤٣ - ١٨٤٨" ، نشرها هيل فى (مجلة السودان فى رسائل ومدونات ، المجلد ٣٦ ، ١٩٥٥ ، ص ١٠ - ١١)

" 'Nouvi documenti per la storia d' abissinia nel secole XIX', ed. C. Conti Rossini, REND. ACC. NAZ. DEI LINCEI, Rome, Ser. VIII, ii, 1947, P. 396 .)

١٠ • "جولات افريقية ، ص ١٤٧" ، لاحظ عالم نبات بريطانى ، زار الخرطوم عام ١٨٥٦ ان مجتمع الاوربيين كان من نفس هذا النوع من البشر • ويقول ان الاوربيين يعيشون حياة شبه متحضرة ، تماما مثل الأتراك ، فتشكل نتيجة لذلك مجتمع منبوذ وجاهل كأشد ما تكون الجهالة ، تسوده روح معنوية متدنية • فكل شئ خارج نطاق هذا الوسط الصغير المنتقى يعتبر بربرية صرف ، وفقر وفاقة أو كبت ، (Letters from Egypt and Syria, 1856, P. 140 .)

١١ • يشرحها الدكتور يوسف فضل حسن فى (العرب فى الســـودان) ، أدنبرة ، ١٩٦٧ ، ص ٢١٢ - ٢١٣ •

١٢ • تضمنت دفتى الكتاب ملوطات فهرســية أشمل •

الجـــزء الاول

حقبة من تاريخ السودان (١٨٢٢ - ١٨٤١)

الفصـــل الاول

انتفاضة السودانيين : ١٨٢٢ - ١٨٢٥م :-

عاد اسماعيل باشا الى سنار بعد ان تقاضت له النوبة العليا واصبحت تحت سيطرته حتى فازوغلى . ومن هناك قاد بعض معاونيه وقلة من الجند قاصدا شندى عن طريق النيل . وبعد ايام قليلة وصل الى شندى ، ونزل مع ثلة من رجاله من المماليك فى مقر الشيخ نمر زعيم المنطقة . ثم استدعى اسماعيل باشا الشيخ نمر وطلب منه ضريبة باهظة . وعندما احتج الشيخ بأن ما طلب منه فوق طاقته ، أصر الباشا على طلبه بحجة أن رجال القبيلة يملكون ذهبا كثيرا وفى مقدورهم الوفاء بالضريبة ، واعطاه مهلة مقدارها اربع وعشرون ساعة .

وما استطاع نمر تدبير طلب الباشا ، ففكر سريعا فى طريقة للتخلص منه . ولم يتبادر الى ذهنه ، بالطبع ، الدخول معه فى معركة لانه كان ادرى بقوته ، لذلك لجأ الى الحيلة والدهاء . أمر نمر رجاله بجمع كميات هائلة من حطب الحريق وأعواد الذرة فى ساحة المنزل الذى كان يأوى اليه الاتراك . وعندما فطن بعض أعوان اسماعيل لما كان يجرى ، بادروا باخطار سيدهم بمخاوفهم ، غير أنه لم يكترث لذلك ، وطمأنهم على سلامتهم . ولكن الباشا ، مع ذلك ، سأل نمر عن الهدف من جمع الحطب ، فأجاب بأنه يعد وقودا للباشا ومرافقيه ، فبدا ذلك ردا مقنعا . وكان على الباشا أن يدفع ثمنا غاليا على غفلته ، فما أن حل الظلام حتى أمر نمر باشعال النار على الحطب المتراكم حول المنزل . وفى ثوان كانت السنة اللهب تلتهم كل من فيه . فى نفس

الوقت تماما ، هجم رجال القبيلة على الأتراك فى المراكب ، ففروا هاربين الى بربر بعد أن عجزوا عن انقاذ سيدهم من النيران .

وحين انتشرت الأخبار عن مصرع اسماعيل عمت الثورة أرجاء البلاد ، واندلعت الانتفاضات للاطاحة بالمعتدين الأجانب . ولم يحقق السودانيون ما أرادوا لأن سيوفهم وحرابهم لم تصمد كثيرا فى مواجهة أسلحة عدوهم النارية المدمرة . على أن هذه الانتفاضة قد لاقت نصيبا من النجاح فى مواقع كانت فيها القوات التركية هشة وضعيفة كالحلفاية ، حيث التجأ الكاشف داخل سوره مع حفنة من الخيالة يقدرون بعشرين رجلا ، وظل يقاوم عدة أيام . وأخيرا استعان ببعض المراكب التى كانت تحمل جنودا هاربين من كررى فى طريقهم الى ود مدنى ، وبمساعدتهم تمكن من رد هجوم الثوار . وبعدها ، حمل خزينة الحامية وعتادها على ظهر مركب وسار بها فى محاذاة المراكب الأخرى الى العيلفون بهدف الانضمام الى كاشف تلك القرية ، ليواصلا معا طريقهما الى ود مدنى .

غير أن كاشف العيلفون نفسه كان قد أجبره الثوار الى العبور للضفة الشرقية للنيل الأزرق ، وكان يسرع الخطى للانضمام للحامية الصغيرة بالكاملين . ثم واصلت الحاميتان الطريق الى ود مدنى ، رغم ما لقيتا من مقاومة ووصلتا فى سلام بعد ثلاثة أيام . أما كاشف الخرطوم ، التى تقع بين النيلين الأبيض والأزرق (عاصمة النوبة العليا والسفلى الآن ، وقد كانت حينذاك مجرد غابة كبيرة تتخللها أكواخ السكان) فانه كان مهددا أيضا من السكان الأهليين وبعض القبائل العربية من غرب النيل الأبيض . وقد استطاعت هذه القبائل هزيمة الأتراك من كررى ثم عبرت النيل من موقع يبعد جنوب الخرطوم بساعتين ، وهددت بمحاصرة القرية وجعلها بين قوات العسكر من جهة والنيل من الجهة الأخرى .

ولما كان الكاشف يملك المراكب ، فشرح لرجاله الموقف الحرج وكيفية وصولهم الى ود مدنى حيث الحامية ورجالها البالغ عددهم أربعمائة مع بعض

الفلول الهاربة من الحاميات الأخرى . ولكن ولحسن حظهم ، فإن سكان الريف ، وهى قرية تقع شرق الخرطوم لم يكونوا مناوئين للأتراك . بل أن شيخهم بشير الدار أتى يعرض خدماته للقيادة المجروحة الى ود مدنى . وكانت سمعة بشير الدار تكفى لحماية القافلة من الهجوم ، وهذا ما حدث بالفعل خلال اليومين الأولين . ولكن وعند وصولهم الى أبو عشـــــر ، هاجمهم الشكريون وأنصار قبيلة الحلاويين . ثم واصلوا مسيرتهم بعدهــا الى ود مدنى دون حساب . ولكن عند عودته واجه بشير الدار هجومـــا من الأهالى فى ود الشلمى والثلاثة وجزيرة توتى غير أنه قاومهم وتغلــب عليهـــم .

هكذا كانت الأحوال فيما كانت تعرف بمملكة سنار من قبل حينمـــا وصل خبر مقتل اسماعيل باشا الى محمد بك الدفتردار فى كردفـــان فقام على الفور بجمع قواته ومضى بها فى اتجاه النيل للانتقام لمقتـــل صهره ولمساندة كتائب الجنود المنتشرة فى جميع أنحاء المملكة . ولكـــن وقبل متابعة سيره الى هناك ، علينا أن نبين للقارئ كيف أمكـــن لـــه اخضاع كردفان .

عندما سمع المماليك فى صعيد مصر بمذبحة عشيرتهم من المماليـــك فى قلعة القاهـــرة على يد محمد على باشا (١) ، اجتمعوا للتفاكر فى مصيرهم . وبما أنهم كانوا قلة قليلة لا يستطيع المقاومة ، آثروا التقهقر جنوبـــا الى صعيد النوبة لتأسيس كيان لهم هناك ، أو الهلاك دون ذلـــك . وقد نجحوا بالفعل فى اخضاع دار المحس ودخلوا منها الى دار دنقلا واحتلوها وبنوا حصنا على مسافة بضع ساعات جنوب قرية دنقـــلا ، وهو الاسم الذى أطلق على الاقليم بأكمله (٢) .

ولما تقدم اسماعيل باشا ابن محمد على فيما بعد بجيشه جنوبـــا فى مجرى النيل للسيطرة على المنطقة كلها حتى كردفان ، لم تتوفر للمماليك الامكانيات لمقاومته (٣) ، فآثروا الانسحاب المطلق والهروب الى المقدوم مسلم ،

وهو منصب نصبه سلطان دارفور على كردفان ، فسمح لهم المقدوم بدخول كردفان لاجئين .

وبعد زحف اسماعيل باشا الى سنار بقليل ، أرسل محمد على جيشا الى كردفان بقيادة زوج ابنته محمد بك الدفتردار (٤) . وتبع الدفتردار نفس خط سير اسماعيل حتى وصل الى الدبة ، وهى مدينة صغيرة على الضفة الغربية فى النيل وتبعد نحوا من أربعة أيام سيرا على الاقدام من دنقلا ، ومنها يبدأ الطريق الصحراوى الى كردفان . ومكث الدفتردار فى الدبة بعض الوقت لجمع المؤن والعتاد والجمال وغيرها من مستلزمات شق الطريق الصحراوى الطويل وغزو كردفان . وما أن أحس المقدوم بحركة الدفتردار حتى شرع فى تنظيم جيشه استعدادا للمقاومة رغم ضيق الوقت المتاح . جمع المقدوم قبائل الكبابيش والحسانية وبعض الزنوج من الجبال المجاورة ، وبضع رجال كان قد أتى بهم من دارفور (٥) . ثم أرسل بعض رجاله عيونا لمعسكر الأتراك فى الدبة بعد أن تنكروا فى هيئة رجال صحراء من كردفان . ولكن عند ما قدم هؤلاء أنفسهم للأتراك على أنهم خبراء للطريق الصحراوى ، تكشف العدو أمرهم ، وقتلهم خارج المعسكر ، وعرضت جثثهم على المزارعين فى المنطقة .

وبعد أيام شد المصريون الرحال متجهين الى كردفان . وكانت الرحلة شاقة ، فقد عانوا من شح فى الماء حتى وصلوا الى جبل عيد المرادى ، أو جبل حرازة وهى منطقة مأهولة على حافة الصحراء (٦) ، فاستراحوا هناك ثلاثة أيام .

ولما سمع المقدوم بقدوم العدو ، خرج اليه بجيش يتألف معظمه من الفرسان بالاضافة الى بعض المشاة ، وجميعهم مسلحون بالسيوف والحراب ، لملاقاة العدو فى سهول بارا .

وفى اليوم الثالث استأنف الأتراك الزحف بعد أن أخذوا قسطا من الراحة . وفى اليوم التالى كانت القوتان تتقابلان وجها لوجه . وبدأت المعركة حوالى الساعة الثالثة صباحا بعد أن بادر الطرفان بالهجوم فى وقت واحد . وكانت الحرب سجالا ، فرجال كردفان تفوقوا على أعدائهم شجاعة وعددا ، أما الأتراك فقد تفوقوا بالمدفعية الثقيلة التى أبادوا بها أعدادا هائلة من رجال المقدوم . وبعد خمس ساعات من القتال ، استسلم جيش كردفان بعد قصف متواصل من النيران وتساقط معظم الجنود صرعى . ولقد أبلى المقدوم ، كقائد عام ، بلاء حسنا وحاول الاحتفاظ بتماسك جيشه ، ولكنه فى النهاية قتل وهو لا يزال يدافع بشجاعة عن أرضه مع القلة الباقية من رجاله .

واستغل الجيش المنتصر هذه الفرصة الى النهاية فطارد الهاربين حتى حلول المساء . ثم أسرع الدفتردار متتشيا الى الأبيض ودخلها دخول الفاتحين ، وأخضع اقليم كردفان حتى النيل الأبيض لسيطرته الناظمة . أما المطاليف فقد هربوا الى دارفور حيث استقبلهم السلطان خير استقبال ، واتخذهم استأذنوه فى المضى قدما نحو تونس للانخراط فى خدمة الباى .

وشرع الدفتردار فى فرض ضرائب باهظة على البلاد ، وتنظيم الحكم ، وتعيين الكشاف على الأقاليم والشيوخ على القرى . وكان الدفتردار يمارس العدالة بطريقته الخاصة ، حيث كان يسأل أطراف القضية أن كانوا يريدون الاحتكام الى عدالة السماء وكانوا كمسلمين يردون بالايجاب . عندئذ كان يسوقهم الى "القاضى" ، وهو الاسم الذى كان يطلقه على المدفع .

واليك مثال آخر على قسوته . لاحظ شيخ فى طريقه الى الدفتردار فى الأبيض ، حقلا من الحمص يملكه الدفتردار نفسه وقد اشترى الحمص ، ولم يكن عليه من الحمال أحد . ولما أتى الشيخ الى حضرته ذكر فى معرض حديثه أمر الحقل للدفتردار الذى انتفض قائلا : "وما شأنك انت يا غلطنى ؟ أتسرق نفسك الى أكل جانب منها ؟ ولكن ، مهلا ، فانى أقسم أنك لن تتذوق

ضبطا شيقا " ثم أمر بخلع أسنان الرجل جميعها.(٧)

وعندما دار على مسافة أربعة أيام من المتمة بدأ الدفتردار في تدمير القرى وتخريبها ، ولم يبق من بلغه كبير أو صغير ، رجل أو امرأة . ثم تقدم نحو المتمة وهزم مجموعة كبيرة من السكان تجمعوا لمقاومته . وبعد أن اختار منهم عددا قليلا لارسالهم عبيدا الى القاهرة(٨) ، أدخل الباقين في سور بني خصيصا لذلك ، وجمع الحطب حوله واشعل فيه النار.(٩) ثم عبر النيل الى شندي ، وعاث فيهما فسادا ، واتجه جنوبا وهو يخرب ويدمر القرى الآمنة . وفي العيلفون واجه بعض المقاومة بين السكان ، ولكنه قتل الكثير منهم ووسم الباقين على أذرعهم بعلامة العبيد وأطلق سراحهم بعد ذلك .

عثمان بك جركس :

(١٠) أرسل محمد على الفرقة الاولى من المشاة والتي كانت تضم خمس كتائب (أربعة آلاف رجل) تحت قيادة عثمان بك بالاضافة الى بعض المجموعات من الخيالة الأتراك غير النظاميين . وانطلقت القوة من معسكرها في بني علي (بني عدي) عام ١٢٣٩هـ (١٨٢٤م) في طريقها الى امدرمان . وقد عبرت كتيبتان الى كردفان وعلى رأسهما البكباشي ، بينما عبرت الكتائب الثلاث الأخرى النيل الأبيض وعسكرت في الخرطوم . ولدى عودة الدفتردار الى القاهرة حل محله عثمان بك .

وكان عثمان بك خير خلف لمحمد بك الدفتردار ، فقد كان أيضا يتصف الدفع قاسيا(١١) وكان يطلق أيدي جنوده ليفعلوا بالناس ما شاءوا . وكان يسألهم مثلا كم يساوي الرجل السوداني في نظرهم . واذا أجاب الجندي بأنه لا يساوي غير طلقة واحدة عاقبه ، أما اذا أجاب بأنه يساوي ربع طلقة فانه كان يكافئه .

قسم عثمان بك قواته الى ثلاث مجموعات : الكتيبة الخامسة وقد احتفظ بها لنفسه فى الخرطوم ، ثم أرسل كتيبة واحدة الى كل من سنار وود مدنى . ولم يلبث أن تقدمت سرية الى القضارف تحت قيادة ابراهيم أفندى الذى قتل عددا من السكان وأصطحب معه مجموعة من الشباب باعهم فى الخرطوم لحساب الحكومة .

وعند وفاة عثمان بك فى رمضان ١٢٤٠هـ (مايو ١٨٢٥) خلفه عثمان أغا (٢١) الذى أطلق عليه الناس لقب "أبو سلعب" لأنه احتال ، عندما توفى عثمان بك ، على الناس بحيلة طويلة . وأخفى عثمان أغا خبر موت عثمان بك خوفا من اندلاع ثورة ، لأنه كان يعرف مدى كراهية الناس له . ولاضافة مزيد من الغموض والتمويه ، أمر الاطباء بدخول حجرة عثمان بك المسجى بالداخل عدة مرات فى اليوم ، وأمر الخدم بحمل التبغ والقهوة والطعام الى داخل الحجرة . وحينما يطلب أحد الشيوخ مقابلة عثمان بك كان يقال له أن الدخول اليه ممنوع بأمر الاطباء . وفى نهاية المطاف دفنت الجثة داخل الحجرة نفسها .

واستمرت هذه المسرحية حتى بداية عام ١٢٤١هـ (سبتمبر ١٨٢٥) حين وصل محو بك من بربر الى الخرطوم . وقد اتسمت فترة حكمه القصيرة ، التى امتدت ثمانية أشهر ، بالعدل والرحمة مما جعله موضوعا للحديث بين الناس حتى يومنا هذا . وكان محو بك قد عاد لتوه من حملة لضم القضارف فورد خورشيد اغا وقد أتى الى الخرطوم يقود نحوا من أربعمائة جندى من غير النظاميين ليحل مكانه .

غارات خورشيد أغا – ١٨٢٦ = ١٨٣٨م

قام خورشيد أغا بحملة على الشلك بعد عام واحد من تسلمه مقاليد الامور ، فكانت أقرب الى نزهة انتهت بعودته عام ١٢٤٢هـ – (شتاء ١٨٢٦ – ١٨٢٧ تقريبا) . وفى نفس العام ، وبعد موسم الامطار ، سار بقافلة صغيرة الى أطراف أعالى النيل الأزرق وأخضع القبائل

التى تقطن جنوب أبى العباس (تقرأ ود العباس) دون صعوبة تذكر ، وأسر الكثيرين منهم وباعهم لحساب الحكومة ، ثم عاد الى الخرطوم (١٣) .

وفى العام التالى ، وبعد الخريف مباشرة ، أى فى عام ١٢٤٣ هـ (خريف ١٨٢٧) قاد خورشيد أغا حملة أخرى الى الروصيرص قوامها ثلاث كتائب نظامية وتشكيلتين من الخيالة (١٤) . ومن هناك فارق النيل الازرق وتوجه الى منطقة الدينكا على شاطئ النيل الابيض - وكان فى حملته تلك يصطحب معه حليفا يدعى شيخ سليمان من قبيلة أبى روف - ومعه عدة مئات من أفراد قبيلته النوبة (١٥) . ويمتاز الدينكا عن غيرهم من القبائل المجاورة بسهامهم المسمومة برؤوسها التى تمزق الجسد تماما .

وتمكن خورشيد اثناء الحملة من القبض على بعض افراد قبيلة الدينكا وهم يغطون فى النوم فى قراهم ، ولكنه واجه فيما بعد مقاومة قوية منهم . فقد هجم الدينكا على المشاة بضراوة وهم يتصايحون ويصوبون السهام نحوهم ، فولى المصريون الادبار ، ولكن الدينكا استداروا فى خفة ورشاقة وطاردوهم وأوسعوهم ضربا بالسهام وعصى من الابنوس كانوا يحملونها . ولم يطلق المشاة النار عليهم خشية ان يصاب زملاؤهم ، وأخيرا لم يجدوا غير الاسراع للدفاع عن أنفسهم واستطاعوا صد هجوم الدينكا . وقد تكبد الجانبان قتلى كثيرين ، ووقع مئتان من الدينكا فى الاسر ، مات معظمهم متأثرا بجراحه . ولقد وصف صول فى الكتيبة الخامسة للمؤلف تفاصيل الوقفة الشجاعة للدينكا فى تلك المعركة .

واصل خورشيد رحلته ، بعد ان اعطى رجاله راحة مدة يومين ، متجها الى نهر السوباط وهو يشق طريقه فى صعوبة بالغة . ومن السوباط رجع الى الروصيرص ، ثم توجه عن طريق النيل الى الخرطوم حيث وصل بعد غياب امتد لثلاثة أشهر كاملة . أما الكتيبة الخامسة فقد لحقت به بعد حين حاملة معها مجموعة من الدينكا الذين تم توزيعهم على كبار رجال الحكومة والضباط ، وبلغ ثمن الفرد منهم حوالى ثلاثمائة قرش (١٦)

خليفة ود الحاج محمد ال بادى والطريق الصحراوى :-

فى وقت الحملة على الدينكا ، تمرّد الشيخ خليفة على الحكومـــة بسبب خلاف مع عباس أغا مأمور بربر.[١٧] وكان خليفة زعيما للعبابدة ، وهـــم قوم يقطنون فى المنطقة التى تقع بين البحر الاحمر وقبيلة البشاريين ،وقبائل الكنوز وحوض النيل شمالا حتى قـنا .

ولقد اتخذ خليفة دراو (شمال اسوان) مقرا له قبل الفتح التركى ، حيث كان يتجمع قيمة التجار فى طريقهم الى سنار ، فيزودهم نيابة عـــن الحكومة بالجمال والاسلحة ثم يقوم بحراستهم حتى يعبروا الصحراء .

وكانت الرحلة بين دراو الى بربر ، عبر ديار البشاريين ، تستغـــرق اثنى عشر يوما . وفى بربر كان الشيخ يجمع الهدايا من التجـار قســرا ويقدمها الى مـلك سنار حتى يأذن لهم بالدخول الى أراضيه بغـــرض التجارة .[١٨] وكان الملك بدوره يرسل رجالا يحتفظ بهم خليفة حـــتى عودة التجار من سنار ، وعندئذ يذهب معهم خليفة حتى شندى ثم يتركهم وشأنهم يكملون الطريق ، ويبقى هناك فى انتظارهم فيأخذهم مرة أخرى الى دراو .

ولم يكن الطريق ممهدا امام التجار ، فقد تعود زعماء القبائل أثنــاء عبورهم ديار البشاريين وبربر والدامر أو حتى شندى على ابتزازهــــم فيضطرون الى المقاومة دفاعا عن النفس . وقد هاجم مرة شيخ أبو حمـد ، وكان يكنى "بالاسد" لشجاعته ، قافلة تحت حماية الشيخ خليفة وسلــب بعض الجمال المحملة بالبضائع . وصمم الشيخ خليفة على الفور على القيــام بحملة تأديبيـة ، ثأرية على "الاسد" فاختار ثلاثمائة من رجاله وسار بهـــم على ظهور الجمال الى قرية الشيخ المعتدى ليـلا ، فقتله وأشعل النار فـى القرية ثم عاد الى دراو .

وابان فتح اسماعيل باشا للسودان ، اقترح عليه الشيخ خليفـــة أن يكلفه بفتح طريق بين كروسكـو وأبو حمد ، فوافق اسماعيل باشـا ، وبــدأ

خليفة العمل بحفر الآبار على الطريق فى واد ضيق بين سلسلتين من الجبال . ثم أحاط الآبار بكتل من الصخور حماية لها من الرمال . وهذه الآبار موجودة الى يومنا هذا وتحتوى مياهها على سلفات المغنيزيا التى تعد من أقوى المسهلات .

بعدها عين خليفة شيخا على الصحراء بعد مفاوضات أجراها مع الحكومة ، وأوكلت له مهمة تجهيز الجمال لنقل مستخدمى الحكومة وعامة الناس باجور محددة تصل الى تسعين قرشا لكل جمل فى الرحلة الواحدة من بربر الى كروسكو ، وثلاثين قرشا لكل قنطار من البضائع .

وكان الشيخ يجنى أرباحا طائلة من عمله هذا . ويكفى للتدليل على ذلك أن تعلم أنه قد فرض رسوما على كل جمل يستأجره من صاحبه بمقابل بخس قد يكون من العبيد من الدرجات الدنيا ، أو جمال هزيلة لا تكاد تصمد لرحلتين أو ثلاث . أما من يستعمل دابته الخاصة ، فعليه أيضا دفع رسوم للمرور ، على أن خليفة كان فى بعض الحالات يقوم بنوع من التعويض . فالمفقودون نتيجة لموت الدواب تقع مسؤوليتهم على الشيخ ، وكذلك البضائع المفقودة حيث يعوض أصحابها بعد نهاية الرحلة . والبشاريون الذين يستخدمهم الشيخ يطلبون أجورهم نقدا بحكم العادة . واذا حدث خلاف بينهم وبين الحكومة ، فانهم سرعان ما يغيرون على القوافل . ولقد حدث أن انقض البشاريون على مجموعة من الخيالة الاتراك يقدر عددهم بخمسمائة رجل فى منطقة أبى حمد أثناء عودتهم من مصر . وازاء ذلك هرب الجنود وضلوا طريقهم فى الصحراء ومات منهم عدد كبير من العطش ، ولم ينج غير عشرين رجلا واصلوا طريقهم حتى وصلوا سالمين الى بربر بصحبة دليلهم .

والطريق بين كروسكو وبربر عبر الصحراء هو فى الواقع أقرب كثيرا من طريق دنقلا . ويصبح الطريق صحراويا بعد جنوب قرية مرّات ، حيث تبدأ سلسلة من الآبار المالحة ، وحيث الرحلة طويلة وشاقة تستمر أياما ثمانية

طولا . وفيما عدا أميال معدودة ، فان الطريق مطموس المعالم بفعل الرمال المتحركة باستمرار والتى تمحو أى أثر يرشد المسافرين . ولا يستطيع أحد عبور هذا الطريق بمفرده دون مخاطرة غير العبابدة فهم يعرفون بالممارسة دروبه ومسالكه . انهم يتخذون النجم القطبى دليلا فى طريقهم من أبو حمد الى كرسكو ، جاعلين النجم على الناحية الغربية دائما . أما لدى العودة فانهم يستدلون بنجوم أخرى غير معلومة لدينا . وأثناء النهار حين تختفى النجوم يعتمد العبابدة على الملاحظة الدقيقة لعلامات على السهول أو الجبال . والعبابدة لا يتوقفون عادة للراحة الا مرتين كل أربعة وعشرين ساعة ، وتمتد كل فترة للراحة لاقل من ساعة واحدة ، وذلك لعدم وجود ماء أو علف للحيوانات على الطريق ، عدا كميات قليلة من الذرة تقدم للجمال فى الليل .

أما الامطار فنادرا ما تهطل هنا الآ فى الاجزاء الجنوبية ، فتنمو الاعشاب ، ويتجمع الماء فى فجوات الصخور فى الجبال . وأكبر هذه الفجوات أو الاحواض موجودة فى جبال "الحدينة" حيث تبقى فيها المياه عدة سنوات . ورغم معرفة العبابدة بهذه الخزانات ، الا أنهم قلما يدلون عليها أى غريب .

فى عام ١٢٣٧ هـ (١٨٢١ - ١٨٢٢) كانت قوة مصرية من الخيالة قوامها [illegible] رجل تتحرك من كرسكو عبر الصحراء بصحبة دليلين . وبينما هم فى قلب الصحراء ، بدأ أحد الدليلين فى تعاطى الخمر بعد أن جاد به عليه قائد القوة الذى كان يحمل عدة قوارير . وقبل وصولهم الى أبو حمد بمرحلة واحدة ، حطوا الرحال لقضاء الليل ، وأرسلوا بعض الجنود ومعهم دليل الى أبو حمد لاجراء ترتيبات الاستقبال . وأثناء الليل ، دعا القائد الدليل الآخر الى خيمته وأغدق عليه البراندى حتى الثمالة .

واستأنفت المجموعة سيرها حوالى الثانية صباح اليوم التالى . وعند حلول منتصف النهار عرف الدليل أنه ضل الطريق ، وتوغل فى الصحراء بدلا من السير فى اتجاه النيل . فأوقف القافلة وذهب بناقته متفقدا الطريق .

انسحب خورشيد أغا من الروصيرص ، وسلم القيادة للبكباشي ابراهيم أفندى ، ثم سافر بالحربية الى الخرطوم .

حملة أخرى على الشلك :

بعد مضى عامين وعند نهاية موسم الامطار عام ١٢٤٦ هـ (نوفمبر ١٨٣٠) اتجهت حملة بالمراكب الشراعية التى شقت مياه النهر حتى انتهت الى ما يمكن أن نسميه الارخبيل (مجموعة جزر) وهو موطن الشلك . غير أن القوة عند نزولها على احدى هذه الجزر ، لم تجد أثرا لافراد قبيلة الشلك ، فقد احتمى بعضهم بدينكا من الهجوم المتوقع (٢١) . وواصلت المراكب طريقها الى منابع نهر السوباط دون اعتراض من الشلك حتى وصلت الى دينكا . وهنا فوجئت القوة بوابل من السهام بمجرد نزولها من المراكب . ووقف الشلك موقفا شجاعا امام النيران التى انصبت عليهم . ولدى شعوره بالعجز عن فك الحصار ، أو حتى استرجاع أفراد القوة مرة أخرى الى المراكب ، أمر خورشيد باطلاق المدفع من على ظهر المركب . وكانت النتيجة أمرا لم يكن متوقعا حتى من خورشيد نفسه ، فقد كانت القذيفة عنقودية ، لهذا فقد سببت اضرارا بالغة على الشلك ، ففروا هاربين فى ذعر فتبعهم الجنود وأسروا منهم من أسروا ونهبوا ممتلكاتهم واحرقوا القرى .

وبعد حين استعاد الشلك شجاعتهم فعادوا الى مهاجمة العدو واجبروه على التقهقر الى المراكب تحت غطاء من قذائف المدفع ، تاركا خلفه الاسلاب . أما الشلك فقد ارتفعت روحهم المعنوية ، ولم يعد المدفع يخيفهم ، الامر الذى جعل خورشيد أغا ، وقد شعر بضآلة جيشه ، يفكر فى العودة الى الخرطوم مكتفيا بأسر مائتين من الرقيق . وقد كان الهدف من هذه الحملة هو عقاب الشلك على أعمال القرصنة التى ظلوا يمارسونها ضد جيرانهم العرب فى الشمال بقواربهم الطويلة .

غارة على التاكا :

في عام ١٢٤٧ هـ (١٨٣٢) شكل خورشيد اغا قوة قوامها ستة آلاف رجل لغزو منطقة التاكا ، متخذا قرية سمهدرات هدفا له . سار جيش خورشيد عن طريق قوز رجب ، ثم عبر نهر عطبرة حتى انتهى الى منطقة الغابات . في البداية طلب خورشيد من السكان اعلان الاستسلام ، وحين شعر بميلهم نحو المقاومة ، دخل بجنوده الغابة التي لم تساعدهم كثيرا على التقدم . ودارت معركة بين الجانبين دمر فيها الخيالة وابيدوا عن آخرهم تقريبا . كما اشتبك المشاة من بعدهم في معركة ضارية خسروا فيها الكثير . وأخيرا وجد خورشيد اغا ، ومعه خمسمائة من جنده ، نفسه في فضاء صغير بين الاشجار ، فوقفوا يدافعون عن موقعهم في استماتة . أما بقية الجنود فقد تفرقوا بين ثنايا الاشجار في مجموعات صغيرة غير قادرة على أن تعين بعضها بعضا . في هذه المعركة خسر جيش خورشيد اثنين من مدافع الميدان وحمل اعداؤه عجلات مدفع آخر في موقعة استمرت مدة ثمان واربعين ساعة . ولم يتمكن القوة من شق طريقها خارج الغابة نحو المعسكر الا بعد انتظام تلك الرجال البيجا . وفي الطريق وجدوا المدفعين بعد أن تركهما العدو لثقل وزنهما . وعاد خورشيد وجنوده الى المعسكر بعد أن تكبدوا خسائر في الارواح بلغت نحوا من الف وخمسمائة رجلا ماتوا متأثرين بالجراح والعطش .

وبعد هذا الدرس ، قرر خورشيد اغا البقاء في المعسكر الذي احسن تحصينه . غير أن العدو اراد استغلال نجاحه في المعركة الى ابعد الحدود وبدأ يتحرك نحو المعسكر نفسه . واخذ خورشيد يرقب تقدم عدوه حتى اضحى على بعد مائة وخمسين خطوة تقريبا من المعسكر ، ثم أطلق القذائف المدفعية عليه ، وكبده خسائر فادحة . ودخل من نجا من السكان نحو الغابة في هلع ، فطاردهم افراد قوة الخيالة الصغيرة واسروا بعضهم ، ولكنهم تحاشوا الدخول مرة اخرى الى الغابة . وعاد خورشيد اغا بعد ثلاثة أشهر الى الخرطوم مهزوما اكثر منه منتصرا .[٢٢]

حملات الى فازوغلى وتفتيش فى كردفان :

عاد خورشيد بجيشه عام ١٢٣٨هـ (١٨٢٢) الى فازوغلى وتوغل حتى انتهى الى قامبيل . وكانت حصيلته عند عودته الى الخرطوم مرة اخرى مجموعة كبيرة من العبيد وكميات ضخمة من الاتاوات . وفى نفس العام قام بجولة تفقدية الى كردفان بعد أن منحته الادارة فى القاهرة حق التصرف تحت مسؤوليته بناء على طلبه . ورجع خورشيد اغا الى الخرطوم فى صفر من العام التالى أى ١٢٣٩ (نهاية ١٨٢٣) ليعاود الكرة بقيادة حملة اخرى الى فازوغلى .

ترقية خورشيد واستدعاؤه :

جاءت الاخبار من القاهرة فى نهاية العام بان مرسوما قد صدر بترقية خورشيد الى رتبة لواء (٢٣) وهى رتبة لا تقابلها زيادة فى المرتب لأنه كان أصلا يتقاضى ستمائة كيسا (٢٤) ، أى نصف مرتب باشا فى مصر . والسبب فى ذلك هو أن الباب العالى كان قد خلع عليه ، قبل ذهابه حاكما للسودان ، لقب (Kapici baei) أى رئيس البوابين وهو منصب تشريفى يتمتع بموجبه بهذه المخصصات . أما من ينعم عليه محمد على باشا بلقب الباشا فكان يتقاضى ثلاثمائة كيسا . وكانت نية محمد على تتجه نحو ترقية خورشيد الى قائمقام برتبة بك ، ثم الى باشا فيما بعد .

فى عام ١٢٤٠هـ (١٨٢٤) طلب خورشيد الاذن للذهاب الى القاهرة للعلاج من مرض الناسور الذى كان يشكو منه منذ زمن طويل ، وكلف زوج ابنته ، وهو الالبانى يدعى يوسف اغا ، بتصريف شؤون الحكم . ويوسف اغا كان يحمل لقب الخازندار ، اى الصراف الخاص ، ولكنه فى حقيقة الامر كان يدير دفة الحكم بالنيابة عن خورشيد . ومع أنه عرف عموما بعدم الاطاعة الا انه كان يميل الى العدالة فى احكامه . استقبل محمد على خورشيد

استقبالا دليا لدى وصوله القاهرة . وبعد حين أجرى له كلوت بك الحطية (٢٥) فى منزله . ثم قام بزيارة محمد على مرة أخرى ، فانعم عليه بلقب الباشا وفوضه أن يحكم السودان وفقا لسياساته الخاصة تفويضا كاملا . ولما جاءت أخبار هزيمة الجيش المصرى فى "رمال الماء" وهى ناحية من نواحى عسير فى الحجاز فى سنة ١٢٥١هـ (١٨٣٥ - ١٨٣٦) أمر محمد على باشا خورشيد أن يعد لدى عودته للسودان مباشرة فرقتين من الزنوج للخدمة فى الحجاز .

تكوين فرقتين جديدتين :

أصبحت الحاجة ماسة الى تجنيد الزنوج لهاتين الفرقتين وارسالهما الى الحجاز على جناح السرعة عن طريق سواكن . وفى سبيل الحصول على الزنوج ، تم الاعداد لغارتين ، احداهما الى فازوغلى ، والأخرى الى كردفان . كما فرض على أهل السودان المساهمة عن طريق التبرع بالعبيد ، (٢٦) ومن ضمن الذين اجبروا على المساهمة بنصيب كبير أبوروف وادريس ود عدلان . (٢٧) وكان على ضباط الجيش التبرع بعدد من الزنوج كل حسب رتبته . ولم يستثن من هذه الضريبة حتى الموظفون المدنيون . وبعد أن استعد تماما زحف خورشيد نحو الروصيرص .

ثورة رجب ود بشير الغول :

(٢٨)

بينما كان خورشيد لا يزال فى الروصيرص ، نقل اليه أحمد كاشف أن رجب شيخ العبابيش قد اتصل بـ "كنفو" ، وكان حاكما حبشيا فى غندار ، طالبا منه المساعدة وذلك بتأثير من كاتبه القبطى . (٢٩) وكان كنفو فى تلك اللحظة يتحرك نحو العبابيش على رأس ألف جندى . وفكر خورشيد فى الذهاب لنجدة أحمد كاشف ولكنه تخلى عن الفكرة امام اصرار محمد على لكى يقوم باعداد الفرقتين ، فتوجه الى فازوغلى للحصول على العبيد . على أن خورشيد ، مع ذلك ، تمكن من ارسال بعض جنوده الى أحمد كاشف ،

ثم عاد الى الخرطوم بعدد كبير من الرقيق بعد نجاح عمليته فى فازوغلى

وقد عززت قوات أحمد كاشف بامدادات عسكرية تألفت من كتيبة نظامية ومائتين من الخيالة ، بالاضافة الى مدفع ميدان ، الامر الذى شجعه على الخروج لملاقاة الشيخ رجب وحليفه الحبشى بنحو الف وارسطاقة من المحاربين . والتحم الجانبان فى معركة تكبد فيها الاحباش ، رغم تفوقهم العددى ، خسائر كبيرة فى الارواح والمعدات . وبعد المعركة طاردهم أحمد كاشف وتمكن بعض من وقع فى قبضته وأسر البعض الآخر . ولجأ الشيخ رجب الى الحبشة مع الاحباش الهاربين تاركا خلفه كاتبه القبطى الذى وقع فى الأسر .

فى خريف عام ١٢٥٢هـ (ربيع ١٨٣٦) سلم ككشو الشيخ رجب الى المصريين مقابل مبلغ من المال تقاضاه نظير خيانته لصديقه ، فجىء به الى الخرطوم ، حيث أمر خورشيد بقتله على الخازوق . أما كاتبه ومستشاره فقد تقرر أن يشنق لكونه قبطيا لا يستحق هذا الشرف . ولقد كان رجب رجلا فى مواجهة مصيره ، حيث وضع أمله فى هدوء وشجاعة وأخرج شباكا شفاع التأثير امام جمهرة النساء ، ثم اتجه فى خطوات واثقة نحو الخازوق ، ومن هناك شاهد الناس الا لماحة بحكم الاتشرات البخيش . وقام الطروبه بدفنه . أما الكاتب فقد شنق فى اليوم التالى .

(٣٠)

الحملة الثانية على الأحباش :

كان أحمد كاشف متشوقا للقيام بحملة تأديبية على الاحباش لوقف مضايقتهم التى تسببت فى النهب عبر الحدود واقلقت راحة السكان . ومضى فى حملته ومعه قليل من الجند ، فاكتسح قرية صغيرة وهدمها ، ولكنه وجد مقاومة من السكان فى القرية التالية وكانوا على أتم الاستعداد بعد أن تلقوا تحذيرا من الذين هربوا من القرية الاولى . ومع ذلك تغلب عليهم رجال أحمد بعد لأى ، وآثروا الانسحاب

ملتفين بعدد من الاسرى اوساط المتراكوم وكان من بينهم أحد القساوسة . هذه الواقعة سجلت للمربين الاولى والثانية مع الاحباش .

فقد ارسل تكلهو فى سرية تامة بينهما الثأر من أحمد كاشف . وكانت المخابرات الخاصة بمزوهيد بأنها قد احلت معلومات غير دقيقة فيما يتعلق بالقوة الحقيقية بجيش تكلهو ، فأعتقد مزوهيد أنه جيش صغير الحجم . لذلك أرسل مزوهيد ستمائة رجلا فقط تحت قيادة قائد الكتيبة الخاصة ، ومعهم اربعمائة من الخيالة المغاربة وكتيبتان من الفرسان الشايقية . (٢١) واذا اخذنا فى الاعتبار القوات المرابطة فى الحاميتين (٢٢) فسان جملة القوات تحت قيادة أحمد كاشف تصل الى الف وخمسمائة رجل .

ما أن عبر أحمد الحدود الحبشية حتى تقدم تكلهو على رأس ألفين رجل وأحاط بقواته بجيش المصريين ، واخذ يكيل له الضربات من كل ناحية . (٢٣) هنا لجأ أحمد الى سالم أفندى قائد الكتيبة الخاصة وطلب مشورته فيما يختص بما له من الخبرة والدراية ، ولكن سالم ، وقد اغضبه تعالى أحمد للقيادة العليا فى وجوده ، رفض الادلاء بأى رأى ، واكتفى بالقول بأنه سينفذ أوامر أحمد كاشف دون أى ابطاء . وفى هذا الاثناء كان جيش الاحباش يتقدم والوقت يمضى سريعا فى غير صالح قوات احمد كاشف . ولما كان أحمد رجلا قبليا ، ولكنه كان يجهل العلوم العسكرية ، فاختار فى أسره . وفى نهاية الامر وجه هجمة على الاعداء بسلاح الفرسان بمساعدة من سالم افندى الذى قام بدوره بشن هجمات متفرقة . واستمرت المعركة لساعة من الوقت ، وبعدها تمت هزيمة الخيالة فى أيدى الاحباش ، وانسحب الجيش المصرى ، وفر أحمد كاشف ومعه نفر قليل من اتباعه على صهوات جيادهم .

فى هذه المعركة أسر تكلهو ثلاثة رجال من ذوى المكانة هم سالم أفندى (٢٤) ، وعلى اغا المسلمى (٢٥) قائد فرقة الخيالة المغاربة ، (٢٦) والذى افتدته أمه فيما بعد ، وقائد الشايقية ، وقد افتداه اقرباؤه .

وعاد أكفسو بعد الهزيمة مرتدا الى غسندار (٣٧) . أما أحمد كاشف فقد كتب الى خورشيد وهو يتهم سالم افندى بما حدث ، ويرجح عودة أكفسو للحرب من جديد .

ولعل خورشيد باشا كان يتجنب الاصطدام بهذا ، أو ربما أراد المداراة على اخطاء أحمد كاشف (٣٨) ، فقد كتب الى القاهرة محذرا من خطورة الموقف واحتمال فقدان السودان نهائيا على ايديهم (٣٩) . ثم الحق ذلك كتابه بارسال تقرير عن هزيمة جيشه والنقص الذى كان يعانى منه فى الات الهجوم والدفاع . واعلن عن استعداده لهزيمة أكفسو فى غسندار اذا ما وضعت فرقة من المشاة أو الفرسان تحت تصرفه . وعندما اطلع محمد على باشا على هذا التقرير ، راوده بعض الامل فى غزو الحبشة ، فتضمن رده وعدا بارسال قوة كبيرة قريبا تحت قيادة أحمد باشا أبو ودان ، وخيره بين القبول بها والا فليرسلها مرة أخرى الى القاهرة ان كان لا يحتاج اليها . كانت هزيمة أحمد كاشف هذه فى ١٥ محرم ١٢٥٣هـ (٢٢ ابريل ١٨٣٧) (٤٠) .

مصير الفرقتين الجديدتين :

فى عام ١٢٥١هـ (شتاء ١٨٣٥ - ٣٦) ، وفى أثناء وجود خورشيد باشا فى كردفان ، وصل افراد احدى الفرقتين الى بربر قادمين من القاهرة ، بينما رؤى تكوين الفرقة الثانية من أفراد الكتيبة الاولى الموجودة فى السودان (٤١) . وعين سليمان باشا - قائدا للفرقة الاولى . أما قائد الفرقة الثانية فكان محمد الوابلى . وعند اكتمال عملية التجنيد نقل الرجال الى سواكن ، ومنها الى جدة (٤٢) . ولقد تسببت رداءة الطقس وسوء الطعام فى موت الكثيرين منهم ، ولم يثمر ما بذل من جهد فى التجنيد المستمر لسد النقص ، وما أرسل من طعام خاص لهم ، مما اضطر الحكومة أخيرا لاستدعاء القوة الى مصر . وضمت فلولها التى وصلت القاهرة الى الفرق الاخرى .

وكان هؤلاء الجنود قد غادروا بربر في النصف الاول من عام ١٢٥٢هـ (ابريل / مايو ١٨٣٦) . وقد تمت ترقية محمد افندي المرابط من قائد للكتيبة الخامسة الى قائمقام وحل محله سالم افندي السعدي أسيره الاسبق فيما بعد . وفي نهاية ١٢٥٢هـ (فبراير / مارس ١٨٣٧) عين محمد افندي قائدا للكتيبة الاولى ومأمورا على كردفان محمد صادق بك الذي ترقى الى رتبة لواء وعين مديرا لسنار . أما الرئاسة فكانت في الخرطوم لأن حدود اقليم سنار امتدت حتى الحدود الحبشية . ووصل محمد افندي الى الخرطوم حوالي نهاية ١٢٥٢هـ (مايو ١٨٣٧) لتسلم مهام منصبه .

خورشيد باشا يتأهب لغزو الحبشة :

استدعى خورشيد باشا كتيبة قوامها الف وخمسمائة رجلا (وهي القوة العادية للكتيبة) من كردفان الى ود مدني التي كانت نقطة التجمع . تلتها جاءت كتيبة اخرى من دنقلا وهو الاقليم الذي وضع تحت سيطرته منذ زيارته الى القاهرة ، فبلغت قوته نحو سبعة الاف محاربا غير التعزيزات التي كان يترقبها من القاهرة . عند وصول خورشيد باشا الى ود مدني عين صادق بك لقيادة قوة من ثلاثة الاف جندي وامره بالتوجه الى فازوغلي . أما خورشيد نفسه فقد قاد بقية القوة الى القلابات وبقي هناك دون أن يواصل تقدمه . ووضح فيما بعد أن توقف خورشيد كان سببه اشارة من التدخل البريطاني العام في الاسكندرية مفادها أن حكومة صاحبة الجلالة لن توافق على غزو محمد علي باشا للاراضي الحبشية ، فاضطر الأخير الى التراجع . (٤٣)

في ٢٠ ذي القعدة ١٢٥٣هـ (١٥ فبراير ١٨٣٨) وصل أحمد باشا مع الكتيبة الثالثة وخمسمائة من الخيالة المغاربية بقيادة محمد أغا الادهم ، واربعمائة من الفرسان الاتراك بقيادة عابدين بك ، ومعهم اثنان من مدافع الميدان . وقد عبرت القوة البرية الصحراء من كرسكو ، وعند

وحولها نصبت الخيام فوق قبة خوجلي [٤٤] . لدى دخوله الخرطوم ، وجد أحمد باشا تعليمات من خورشيد باشا بان يتوجه الى ود مدني لانتظاره هناك . والتقى الرجلان في ود مدني في أواخر ذي الحجة (آخر مارس ١٨٣٨) .

أصدرت الادارة التركية قرارا ببناء ثكنات في الخرطوم ، ففرض على كل شيخ في مديرية سنار ارسال عدد معين من الرجال لصناعة الطوب الاحمر . وشرع الرجال في العمل على الطرف الشرقي من المدينة . وبعد عمل استمر زهاء شهر ونصف ، غير المسؤولون رأيهم حول تشييد الثكنات ، فسرحوا العمال وقرروا ترك الفرقة حيث كانت في ود مدني ، باستثناء كتيبة واحدة حولت الى الخرطوم وتم ايواؤها في مساكن خاصة على نفس موقع الثكنات التي لم تكتمل .

عاصفة غير عادية في سماء الخرطوم :

في تمام الساعة الثانية والنصف مساء يوم ٢٦ من شهر محرم ١٢٥٤ هـ (٢١ أبريل ١٨٣٨) كانت سحابة داكنة ذات أشكال والوان غريبة تزحف من الجهة الجنوبية الشرقية للخرطوم نحو الشمال الشرقي . وبعد ربع ساعة فقط أطاحت بالمدينة عاصفة رملية من كل جانب ، فخيم ظلام شامل رهيب . ولم ينقشع هذا الظلام الا بعد خمس عشرة دقيقة ، هبت على أثره رياح عنيفة . وفي الشهر التالي أيضا ، أي في صفر (أبريل / مايو ١٨٣٨) تكررت هذه "الزوبعة" مرتين في بداية الشهر .

راشد أفندي ، القبطي الذي اعتنق الاسلام :

كان لخورشيد باشا سكرتيرا يدعى راشد عرف بعدم امانته ، ولكنه رغم ذلك كان مقربا للباشا الى الحد الذي يمكن اعتباره الحاكم الحقيقي . [٤٥] وكان راشد غنيا جدا ، ويمتلك منزلا أفخم من منزل الحاكم نفسه زيادة على عدد ضخم من الخدم والحشم من الجنسين . وكانت من بين هؤلاء

الخادم جارية شركسية ابتاعها راشد سرا لأن الحاكم وهو شركسي لم يكن ليسمح لمسيحي أن يشتري شركسيا . وازدادت مخاوف راشد حين سمع خورشيد مثلا رادعا للذين يرتكبون مثل هذه الافعال ، فقد سمع بجارية شركسية أخرى اشتراها موظف الحكومة ، ولم يكتف بذلك بل عاقبه بأسطاقة بلدة والقاه في النيل . لذا كان لراشد الحذر في اخفاء أمر الجارية عن خورشيد رغم صداقتهما .

وكان راشد يمتلك عددا كبيرا من الجواميس والسواقي ، وثروة من المال الذي كان يستثمره عن طريق بعض الوسطاء . كان يعطي الواحد منهم مبلغا من المال ليعمل في التجارة على حسابه في المناطق المجاورة ، رغم أنه حين قدم الى سنار لم يكن يملك من متاع الدنيا سوى ما عليه من رداء . وبعد أن استقر في سنار اشترى منزلا بالدين . وخلال سنوات ، استطاع تسديد قيمة المنزل وتوفير بعض المال ، ثم فكر في اعادة بناء المنزل على طراز جديد . وبينما هو منهمك في عملية البناء ، عثر على جرة مليئة بالذهب ، ولكنه لم يفكر في اخطار الحكومة بهذا الاكتشاف كما يجب العادة . وبمرور الزمن ارتفعت أسهمه بين زملائه من الكتبة حتى عين سكرتيرا لخورشيد باشا . وبعد أن توسعت أعماله ، أرسل يطلب ابنه ، وقد كان يافعا لم يتعد الخامسة عشرة من العمر ، ليقوم بمساعدته . غير أن الصبي خيب آماله فيه وفشل فيما عهد اليه .

وذات مرة صحب راشد سيده خورشيد الى الكلابات وترك أمر منزله لشخص يثق فيه ، وأوصاه بألا يدع الشركسية تبارح المنزل تحت أي ظرف من الظروف . وفي يوم من الايام ، قررت الجارية ، التي ملت العيش مع راشد المسيحي كزوجة ، الهروب من المنزل والالتجاء بنساء الباشا . وبينما هي تحاول تسلق الجدران ، تسرع اليها الخصيون الذين كانوا معها في المنزل ، فاستنجدت وهي تصرخ بأعلى صوتها ، وتوسلت بأنها تريد الخلاص من قبضة المسيحي الكافر . ولم ينس الرجل بالطبع أن يخبر راشد عند وصوله ما حدث من جاريته ، فقرر اشهار اسلامه

لسببين : الأول أنه كان يحبها ، أما الثانى فهو أن الخوشية كانت حبلى . وذهب راشد بنفسه الى خورشيد مدعيا أن وحيا قد نزل عليه من السماء بترك دينه الذى ظل يؤمن به طوال حياته . كان ذلك حوالى نهايـــة ذى القعدة ١٢٥٣ هـ (النصف الاخير من فبراير ١٨٣٨) .

ولما كان خورشيد نفسه يعد من المسلمين المتمسكين بآداب دينهم فقد احتفل بهذا الحدث ايما احتفال ، وامر بالاحتفال بالمناسبة الدينية فى موكب كبير . وصار اسم راشد منذ ذلك اليوم محمد نور الدين ، وعند ختانه انهمرت عليه الهدايا والهبات من علية القوم . ولقد قاوم ابنه رغبة والده فى البداية ، ولكنه رضخ أخيرا بعد أن واجه وقفة صارمة منه ، فاسلم هو أيضا وصار اسمه عليّا .

احمد يخلف خورشيد حكمدارا للسودان :

عاد خورشيد الى الخرطوم ومعه أحمد أبو ودان . وقد اشتد عليه مرض النقرس ، رغم الحطيبة حتى أنه لم يعد قادرا على ركوب الخيل . وكانت هذه سانحة لأحمد الذى نصح خورشيد بالاستئذان فى العودة الى القاهرة على أن يقوم هو مقامه فى حكم الخرطوم . فحمل خورشيد بنصيحته ، ووافق محمد على . ثم بدأ خورشيد يتشكك فى نوايا أحمد ، فجمع كل الدفاتر الحسابية وأمر بمراجعتها ، ثم وضعها بعد ذلك امام أحمد للتوقيع عليها فى حضوره . (٩٦)

وأخيرا سافر خورشيد ، وأعقبه فى التقاعد نور الدين أفندى ، وكاشف الحسابات أحمد . وخيم حزن عميق بسبب سفر خورشيد وأسرته ، فقد حكم السودان على نهج أبوى . ومع أن الرجل كان سريع الغضب ، الا أنه كان ينسى غضبه بنفس السرعة أيضا .

أزمة نور الدين المالية :

لم يكن نور الدين مخلصا من الالتزامات تجاه الحكومة ، فقد كان مدينا للدولة بمبلغ ألف وأربعمائة وثلاثين كيسا . وصار فى حرج شديد بسبب تهديدات أحمد باشا له فى هذا الشأن . ولكن وهو فى قمة أزمته المالية ، وصل جنلب الباشا محمد على الى المورة (٤٧) وبصحبته شخص عام موريا (The Morea) وكان يدعى توستزا (Tossitza) فوجد راشد فرصته فى عرض قضيته على الباشا بواسطة (٤٨) شخص يسمى لاسكارى (Lascari) كان يعمل كبيرا للصيارفة فى الحكومة . ونجح الاخير فى استصدار أمر منه يقضى بأن يدفع راشد المبلغ على أقساط خلال عدد من السنين . ثم قدم نور الدين استرحاما لمراجعة حساباته بطريقة أكثر دقة ، ولكن طلبه لم يجد القبول .

حواشي الفصل الأول

١ . حدثت المذبحة فى أول مارس ١٨٢١ ، وكانت هنالك مذبحة أقـل منها فى اسنا .

٢ . سمى الحصن "خرطى المنفوخ" اى معسكر المنفوخ نسبة الى قائد من المماليك اسمه محمد المنفوخ وهو أول من احتل المكان . والمنطقـة التى تجاور الحصن ، وتسمى دنقلا العرضى ، لا تزال عاصمة للمركز حتى الآن .

٣ . المقدوم رتبة رفيعة فى سلطنة دارفور ، وتعنى هنا الوالى الفوراوى على كردفان التى ظلت خاضعة لدارفور منذ نحو ١٧٩٩ .

٤ . الدفتردار معناها فى الاصل ماسك الدفاتر أو السجلات ، أى الموظف المسؤول عن تسجيل المسوحات ، أو كبير ضباط الايرادات فى الحكومة المصريـة .

٥ . الكبابيش قبيلة تشتغل بالرعى وينتشر افرادها على برارى بيوضة غربـا حتى حدود دارفور . وقد وجد ادولف لينانت (Adolf Lenant) قطيعا كبيرا من ابلهم فى الحلفاية ، بعد ان هرب اصحابه امام الدفتردار الى النيل طلبا للحماية من اسماعيل باشا الذى لم يمسسهم بسـوء

(Lenant, Journal d' un voyage a' Meroe ... 1821 et 1822, ed Mr. Shinnie, Khartoum, 1958, entry for 10 Jan. 1822)

وكان جنود المقدوم من محاربى كنجارا ، وهم رأس الحربة لجيش الفور .

٦ . سميت المنطقة هكذا على زعيمها عبدالهادى الذى اخذه الدفتردار معه الى الابيض والقاه سجينا داخل بئر حسب التقليد السائد .

٧ . كثرت الاقاصيص عن قسوة الدفتردار مع مرور الزمن ، وقليلون هم الذيـن كانوا يسافرون الى مصر والسودان دون ان يضيفوا شيئا اليها ، مثـل ج . أ سانت جون (J.A.St. John) فى كتابه (Egypt and Mohamed Ali, 1824, ii, PP. 589-90)

الذى أورد ما اسماها "طرائف الدفتردار بك" . وبعض ممارسات الدفتردار الوحشية مثل قطع آذان الاسرى بعد معركة بارا صارت ، رغم بشاعتهـا تقليدا عسكريا فى ذلك الوقت . ولكن مع ذلك تصعب معرفة الحقيقـة من الخيـال .

٨. كانت مخيلته مضروبة الى الدرجة التي لم يفكر فيها ان افراد قبيلـــــة الجعليين الذين استعبدهم كانوا مسلمين ويتحدثون العربية .

٩. هنالك جانب آخر لهذه الرواية . في عام ١٨٣٢ اخبر كاشف المتمـــة (الذي أكد وجوده هناك منذ زمن الدفتردار) الرحالة بكلر - مسكاو (Puckler-Muskau) بان الدفتردار بعد ان دمر شندي ، أعلن عفوا عاما . وبعد قليل ، وفيما كان ينزل ضيفا على شيخ المتمة ، فاجأه زنجي بضربة من حربته ، فانفجر غاضبا وقتل الشيخ وجميع اهل المتمـــة

(H.L.H. von Puckler-Muskau, Egypt under mohemet Ali, ii, 242-3)

١٠. النواة الاولى لجيش محمد علي " النظام الجديد " الذي انشئ على النمط الفرنسي بمدربين عسكريين من اوربا . وكان الفرنسيان كايسون ، كبيـــر المدربين ، وأندريه نادبان ، المدرب قد التحقا بخدمة الفرقة الاولـــى بالســـودان .

١١. عبر مؤلف (تاريخ ملوك السودان ، ص ٢٦ - ٧) عن الصدمة الـــتي اصابته حيال بدعتين استحدثهما الاتراك : الخوزقة ، وقتل النــــــاس بالمدافع .

١٢. أغا (أغا بالتركية) كان لقبا تشريفيا للعسكريين ورجال البحرية الذيـــن هم دون رتبة بك ، اى الجنود والبحارة ممن لم ينالوا حظا من التعليم . وبالمقابل منه تطلق كلمة افندي التي كانت تطلق على المتعلمين . وكـــلا اللقبين لا يتم خلعهما على الاشخاص بصورة رسـمية .

١٣. يجيء هذه الحملة حمد حمدة أبو روف ، وكان زعيما ذو هيبة بقســـم قرب مسمرز من نواحي سنار (تاريخ ملوك السودان ، ص ٢٨) .

١٤. يشير (تاريخ ملوك السودان ، ص ٢٨) الى ان بداية الحملة كانـــت في محرم ١٢٤٣ هـ (يوليو / اغسطس ١٨٢٧) . ثم يضيف ان موسى كاشف وهو " أسد الصعاونين " مات في جبال الفونج غرب الروصيرص .

١٥. سليمان ابوروف ، احد افراد العائلة الحاكمة في الفرع الشرقي لعســـرب رفاعة . وكان اهله ، ويعرفون بـ " ناس ابوروف " يتخذون الضفة الغربية للنيل الازرق ، بين سنار وفازوغلي ، مرعى في موسم الجفاف (هـ . أ . ماكمايكل ، تاريخ العرب في السودان ، ص ٢٤٠ - (٤)) .

١٦- القرش المصرى ، وكان اساس العملة المصرية فى ذلك الوقت .
وكان الجنيه الاسترلينى يساوى سبعة وتسعين ونصف قرشا عام ١٨٤٣
فى الاسكندرية .

١٧- اورد (تاريخ ملوك السودان) ان تمرد خليفة حدث عام ١٢٤٣ هـ
(١٨٢٧-٢٨) . ولانه كان يميل الى الحكومة ، وصف الكاتب السودانى
الخليفة قائلا : "اظهر منه مخالفة وعصيان ، وحضر ببربر وحارب
العساكر الذين كانوا بها" . وتذهب رواية اخرى الى ان عباس هو
البادئ بالعدوان ، وهى مضمنة فى كتاب (من زوايا التاريخ السودانى
فى القرن التاسع عشر ، القاهرة ، ١٩٤١ ، ص ٥) وهى نبذة
موجزة عن تاريخ قبيلة العبابدة لحسن احمد حسين خليفة العبابدى ،
موظف سابق فى الحكومة وحفيد خليفة .

١٨- ملك (والجمع ملوك) وتعنى ملك بالوراثة فى سلطنة سنار القديمة .
ويقصد الكاتب هنا ، فيما يبدو ، السلطان نفسه .

١٩- البشاريون الذين جاء ذكرهم من قبل فى هذه الرواية هم من
الحاميين ، ويتحدثون مجموعة من اللغات البجاوية . ورغم ان العبابدة
ينسبون انفسهم الى اصل عربى ، الا انهم ينتمون عرقيا الى البشاريين .
ويسوق البشاريون ابلهم على الصحراء الشرقية فى المنطقة الممتدة من
شمال حدود جمهورية مصر العربية الى نهر عطبرة ، وحتى تلال
البحر الاحمر شمال سواكن .

٢٠- انظر صفحة (١٦٢) "ط" ادناه .

٢١- أثناء وصفه لبداية الحدث ، وقع المؤلف فى خطأين : دنقلا تقع الى
الداخل ، ونزول القوات كان فى اقرب نقطة على النيل الابيض . اذن
فهى قشوعة على الارجح وليست دنقلا . اما الخطأ الثانى فهو ان الشلك
لا يستعملون السهام .

٢٢- يقول المؤلف السودانى المتطلق ان خورشيد قد نجى فى هزيمة المذكورة
(تاريخ ملوك السودان ص ٢٦) .

٢٣- مير اللوى . بما ان جيش مصر "النظام الجديد" كان على غرار النظام

النابليونى كان الرتبة هى (General de brigade) وتعادل لواء فى النظام الانجليزى الحديث .

٢٤- ما يسمى كيس فضة ، ويساوى خمسة قرشا ، وكان يعادل نحو خمسة جنيهات استرلينية . والكيس أينما يرد فى هذا الكتاب يعنى كيس فضة .

٢٥- أنطوين - بارثليمى كلوت بك (١٧٩٢ - ١٨٦٨) مدير المستشفى ومدرسة الطب فى ابو زعبل ، وعمل فيما بعد فى القصر العينى بالقاهرة حيث تم تدريب معظم صغار الاطباء الذين التحقوا بالجيش المصرى فى السودان .

٢٦- هو سليمان ابو روف .

٢٧- ادريس ود عدلان محمد ابولكيلك ، زعيم قبيلة الهمج فى جبل قلى بين النيلين الابيض والازرق ، والذى عينته الحكومة شيخا على المشايخ . وقد خلف الاتراك المنصب ليخلدوه على الشيوخ الحكام . وكان ابولكيلك احد الشخصيات المعروفة فى قبيلة الهمج الذين تنازعوا حكم سلطنة سنار عشية الفتح التركى ليتعاقب على السلطة مجموعة من السلاطين الذيول للعائلة المالكة فى الفونج . وقد تزوجت شقيقته نصرة من الارباب محمد دفع الله من السروبية بالقرب من ود مدنى ، وهو ايضا احد زعماء الهمج ، وابرم اتفاقية سلام مع الغزاة . وارباب رتبة شرف كان يمنحها السلطان لشخصيات ذات وزن كبير فى الحكم .

٢٨- كان كاشف كل من القضارف وراشد .

٢٩- رجب ود بشير الغول ، شيخ من شيوخ العبدة الذين كانوا يعرفون باسم "ناس ابو جن" وهم فرع شرقى لعرب رفاعة الذين كانوا يرعون فى الصليعى وجنوب البطانة بين النيل الازرق ونهر عطبرة . وخصصت الحكومة كاتبا وعددا من الدفاتر لكل شيخ قبيلة لاغراض جمع الضرائب . وكان كتفو دجاج "دوارا" (وهو مركز على الحدود الحبشية) وهو ثيودور الثانى الذى صار امبراطورا فيما بعد . وقد ذكر القنصل البريطانى العام فى مصر ان رجب كان شقيقا لابى ريش الذى وصفنا احداث تمرده

على المنظومة فى الصفحات (١٨٦-٩) . وقد غضب رجب بعد تعيين المنظومة لابى ريش ، فهرب الى الحبشة ثم عاد بعد اربعة اشهر مع جيش يقوده كنفو . وبعد ان سلب من ابى ريش نساءه وعبيده وغلمانه ، انسحب نحو الحدود . وقام خورشيد باشا برشوة احد رجال كنفو لتسليم رجب فقبل ، ووضع رجب فى السجن بعد خمسة اشهر من هروبه (ب . كامبل الى اللورد بالمرستون ، اكتوبر ١٨٣٧ ، P. R. O., F. O., 1 / 3) .

٣٠. نعوم بك شقير (تاريخ السودان القديم والحديث ، ص ٢٢) ، الذى اعقب (تاريخ ملوك السودان ، ص ٢٠ - ٢١) يورد رواية مختلفة عن كيفية القبض عليه . عين خورشيد باشا احمد أبا جبن شيخا بدلا عن رجب وأعدّ منطقة لاستقرار قبيلته على نهر الدندر حول دباركي . وكتب باركنز (Mansfield Parkyns) اثناء وجوده بالقضارف نحو نهاية ١٨٤٥ يقول ان احمد ابا جن كان شيخ الشكرية فى ذلك الحين . ثم ذكر مخطئا انه زعيم الدافيناس "الضباينة" (Life in Abyssinia, ii, P. 405)

٣١. المغاربة (المغربيون) تعبير عام لتعريف المتطوعين من شواطئ البحر وما بعدها غربا ، ومن اواسط افريقيا وصعيد مصر . وتلك المجموعة من المغاربة التى هزموا فى الحرب كانوا فى الواقع من الهوارة ، وهم من بطون البربر كانوا يعيشون فى صعيد مصر . وعندما جاء احمد باشا ابو ودان بعد خورشيد باشا ، استغنى عن المغاربة وارسلهم الى مصر ، واعتمد فى تكوين الفرسان غير النظاميين على الشايقية بصورة مطلقة .

٣٢. يسكن الشايقية فى منحنى النيل بين الشلال الرابع ودنقلا . وبعد هزيمتهم على يد الاتراك ، صاروا حلفاء لهم يعطون فرسانا غير نظاميين فى جيوشهم ليعطاها لهم العبيد ويجبوا الضرائب .

٣٣. ذكر انطوين د ، ابادى (Antoine d'Abbadi) فى معرض خطاب له موجه الى بى . ت . جومارد ، وهو يعلن موت كنفو بان المعركة كانت فى المتمة (اى القلابات) على الحدود السودانية الاثيوبية الحالية . أما

مؤلف (تاريخ ملوك السودان) فيزعم انها وقعت في ودكلتابو بالقرب من راشد (ص ٢٦) .

٣٤. كتب خورشيد باشا الى القاهرة يصف الهزيمة قائلا "حتى اذا نجح سالم في النجاة من قبضة الاعداء ، فانه لن يستعيد رتبته في الجيش بسبب فشله في المعركة . ارجو الموافقة على تعيين بمباشي جديد لأن موسم حمل الاتبيبة قد حان ، وموسم صيد الرقيق على الابواب" (من خورشيد الى مدير ديوان خديوي مصر ، وثائق عابدين ، القاهرة ، الملف ٢٦٦ ، ٢٣ / صفر ١٢٥٣ هـ - ٢٦ / مايو ١٨٣٧) .

٣٥. واسترسل خورشيد في تقريره " وقتل معظم جنوده . ولأنه كان يعاني من جروح خطيرة ، وفرصته في الهروب من الاسر ضعيفة ، اضافة الى انه مثقل بالديون من التجار السودانيين ، فقد رأيت ان من الحكمة تحويل رجاله الى قيادة احد اقربائه ." غير ان هذا الضابط قد تمكن من الفرار ، أو ربما اقتفى لان ويرن اثر وجوده اثناء الحملة على التاكا عام ١٨٤٠ وهو يقود ثلاثمائة من الفرسان المغاربة غير النظاميين وعلى رأسه آثار جرح غائر قديم (جولات افريقية ، ص ٤٤) . ثم يسرد ويرن نبذة تاريخية موجزة ووصفا للفرقة المغاربة : كيف ان معظمهم اتوا من طرابلس في بربرى مع عائلة الادغم عام ١٨٢١ ، وقد تسلح كل منهم ببندقية طويلة وحزام من المسدسات ، وحمل الضباط منهم سيوفا .

٣٦. الملف نفسه . وكان من بين الموتى ميرى ، شيخ التكارير في القلابات ، واحمد ود عمران قائد السواراب وهم فرع من الشايقية (تاريخ ملوك السودان ، ص ٣٦) .

٣٧. يصف مؤرخ البلاط الحبشي المعركة في كلمات بطولية . اذ يقول بعد وصف عدالة كنفو "لقد قطع ايدى وارجل اللصوص" ، انه عندما جاء الاتراك لاخذ الاتاوة من العرب ، وعسكروا في المتمة بالقرب من موقع القلابات حاليا ، خرج اليهم كنفو للمعركة في المتمة . وكان عدد الاتراك اربعمائة رجل قتلهم كنفو جميعا مع حلفائهم العرب . ولقد غاب قائدهم عن ساحة المعركة حيث بقى في سنار . والاشارة هنا لخورشيد

باشا . وعندما سمع الفرنسيون بالحدث ، انذروا محمد على باشا على الفور وابدوا استياءهم .

(Cronica reale ambissina ...... all anno 1840, ed.
C. Conti Rossini, "Rend. R. Accad. dei Lincoi, Ser. V, XXV,
(1916, P. 913, Cited in S. Rubenson, King of Kings, Towadros of
Ethiopia, Addis Ababa and Nairobi, 1966.)

٣٨ . لم يتستر خورشيد باشا على احمد كاشف فى تقريره : "ذهب احمد كاشف مع اربعمائة من النظاميين ومائتين من الفرسان لجمع الضرائب . وكان قد وزع القوات لهذا الغرض عندما جاء كنفو (سر عسكر) قائد الاحباش النفسار من فوق القلابات وهزم القوات الامامية لاحمد ، واجبرها على الانسحاب الى "سوف الرحيم" . وبعد معمعة تلقى جيش احمد هزيمة اخرى وفقد كثيرا من رجاله ما بين اسير وقتيل . وقد قوبل طلب العدو للفدية بالرفض لأن هؤلاء الضباط تسببوا فى الهزيمة باهمالهم فى تطبيق القوانين العسكرية المناسبة فى تشكيل صفوفهم والسيطرة على اطلاق النار . ان هدف الكفار هو استعادة المطيش ، والقلابات ، وقدبسو ، وواياتو، التى كسبناها عام ١٢٤٥ هـ (١٨٢٩)" . وقد نصح خورشيد بشن هجوم مضاد خوفا من ان تكون تلك المناطق ملجأ للهاربين من الضرائب فى سنار اذا بقيت فى قبضة كنفو (تقرير خورشيد المشار اليه أعلاه) .

٣٩ . سجل بكلر ـ مسكاو سير احمد كاشف الى الخرطوم عن طريق ود مدنى لشرح اسباب هزيمته للحاكم العام. وقد عزى الرحالة الالمانى (الذى من المحتمل ان يكون قد جمع معلوماته فى ود مدنى من كاتب هذه الرواية نفسه) اسباب هزيمة الاتراك الى القسوة المتناهية لأحمد كاشف فى صيد الرقيق على الحدود الحبشية وذلك عندما حمل معه قسيسا كان يمت لكنفو بصلة الرحم (Egybt under Mohomet Ali, Pt 2, P. 375)

٤٠ . هنالك رواية عن هذه الحملة تستند اساسا على المصادر الدبلوماسية البريطانية والفرنسية ، ومعلومات من الرحالة فيما كتبه م. أبير (M. Abir) اصول مشكلة الحدود الحبشية ـ المصرية فى القرن التاسع عشر ، المجلة

التاريخية ، المجلد رقم (٨) ، ١٩٦٧ ، ص ٤٤٣ - ٤٦١) .

٤١ . جيش محمد على باشا الذى اسماه "النظام الجديد" كان على النمط النابليونى ، وكانت القوة المعتادة لمشاة النظام الجديد تبلغ ثلاثة الف واربعمائة رجلا .

٤٢ . فى أوائل صيف ١٨٣٧ استعرض بكلر - سداو فى شندى مائة من المجندين للحجاز يرتدون ملابس قطنية بيضاء . وكانوا يحتفظون بهم داخل سور القلعة خوفا من هروبهم ليلا (Egypt under Mehemet Ali,ii,P. 121)

٤٣ . ظل القنصل العام باتريك كامبل يرسل النصائح الاخوية المتكررة للباشا خلال شهر اكتوبر ١٨٣٧ ويرفع بها تقارير الى اللورد بالمرستون

(P.R.O., F.O., 1 / 3)

وقد رد عليه محمد على فى عناد بانه لا يضمر شرا للأحباش .
وفى عام ١٨٣٢ أكد لكامبل جنوحه نحو السلم بالرغم من تعيين ابنه ابراهيم باشا واليا على الحجاز التى كان الباب العالى يضع الحبشة تحت نفوذه فى المعادة (Campel to Palmerston,P.R.O.,F.O., 1/3)

٤٤ . من ضواحى الخرطوم ، وجزء من الخرطوم بحرى الآن . ومن اشهر معالمها قبة الصوفى خوجلى بن عبدالرحيم بن ابراهيم .

٤٥ . ظهر الاسم "رشيف" . ورشيد كما يذكر كامر . ليبسياس كان قبطيا كاثوليكيا (Letters from Egypt, 1853, P. 163) وسلالة هذا الموظف القديم ، ويعرفون "بأولاد الافندى" لا زالوا يعيشون فى منطقة الكاملين .

٤٦ . نوع من الحصافة والدهاء تحت نظام حكم سادت فيه عملية القاء تبعات المفاسد على من يتولى مقاليد الحكم من بعدك .

٤٧ . ميشيل توستزا (١٧٨٧ - ١٨٥٦) صديق الطفولة لجنابه محمد على باشا فى قافلا ، وقد صار ممثلا دبلوماسيا فى القاهرة لأول مملكة

هيلينية انشئت . وكان القنصل العام البريطاني يحتقره ويقول "ان السيد ترستزا جاسوس لصالحه وولي نعمته محمد علي" . (كابـــل للــورد بالمرستون ، ٩ اكتوبر ١٨٣٧ ، (P.R.O., F.O., 78/320

٤٨ . الافريقي السمريونوثي لاسكارس الذى جاء ذكره عدة مرات فـــــي المخطوطـة الثانيـــة .

الجزء الثاني

الفقى الريحى فى أبيـــة :

تقع على الاتجاه الغربى من مدنى ، فى منتصف الطريق بينهـا وبين المسلميـة قريـة أبيـة ، وهى من القرى الكبيرة . ويدعى سكـان أبيـة من "الفقـراء"(١) (جمع فقى) لأنهـم ، فى واقـع الأمـر ، من أتباع زعيمهـم الفقـى الريحـى المعروف كأسلافه قاطبـة بأنه ولـى من أوليـاء الله الصالحـين .(٢) ويعتقـد مريدو هذا الشيخ أنه يـزور مكـة كل يوم لاداء فريضـة الصـلاة . وفى الليـل ، عندما يخرج الشيخ من منزلـه ، أو يمشى القريـة ، يتجمهـر الناس حولـه ، ويتزاحمـون لتقبيـل يده ، ومن يظفـر منهم بهذا الشـرف يرى نفسـه قد تطهـر من جميع الادران والذنـوب .

ويقولون أيضـا أن لحيـة والد الشيخ ، مع أنه قد توفـى منـذ سنين عدة ، قد نمت فى قبره حتى اننى سمعتها منهم أن شعيراتها يمكن رؤيتهـا خارج القبـر .(٣) وعند مـرور محمد على باشا بود مدنـى عام ١٢٥٤ (هـ) (ديسمبر ١٨٣٨) فى طريقـه الى زيارة مناجـم الذهب فـى فازوغلى ، التقى به الفقى الريحى واستصدر منه أمـرا المقتدار باعفائـه هو وجميع سكان القريـة من ضرائب الاطيـان وغيرها . كان الفكى يجمـع بين صفات الكرم والحزم فى المعاملات فى آن واحـد ، فقد كان يتكفـل باعاشـة وايواء كثير من الاسـر الفقيرة فى القريـة . ولعل هـذا هـو السـبب فى الثقة التى أولوها اياه ، والنفوذ الذى تمتع به ، الأمـر الذى دفع الحاكم الى الحفاوة به واحترامـه .

عـادات غريبـة فى الـــزواج :

تعرف قبيلـة الحسانية ، التى تعيش بين النيـل الابيض وكردفان ، بعاداتها الغريبـة المتعارف عنها فى حالة عقد الزواج . فلابد أن يبيـن فى العقد ، وذلك قبل دخول الزواج على شريكة حياته ، على أن الـزوج

لا يملك سوى ثلاثة أرباع الزوجة ، فالربع الباقي ملكا خالص للزوجة . يعني هذا ، بالمساواة أكثر وضوحا ، أن الزوجة ، وقد ملكت ثلاثة أيام من زوجها ، لها مطلق الحرية في قضاء اليوم الرابع في خدمة عشيقها أو أي زوج آخر .

الطهارة البنات :

يمارس جميع السودانيين ، عدا البقارة وبعض الزنوج في الجبال ، نوعا خاصا من الطهارة . فما أن تبلغ الفتاة سن الثانية عشرة حتى تجرى لها عملية جراحية يستأصل فيها الفرج والبظر . وبعد الفراغ من هذه العملية تثبت قناة خشبية يقدر طولها بحوالي ثلاثة أنملة ريش الاوز من الأسفل . ثم يضم الجزآن الخارجيان الى بعضهما ما عدا الجزء الذي أدخلت فيه القناة ، ويربط الفخذان لمنع الحركة حتى يساعد على اندمال الجرح . وبعد فترة من الزمن يتم فك الرباط واستخراج القناة ، فلا يبقى في مكانها غير ثقب صغير لا يكفي الا لخروج السائل ، وبذلك وحده يضمن عدم حدوث أي جماع غير شرعي .

وعند زواج الفتاة تأتي امرأة خبيرة وتفتح عضوها التناسلي بموسى حادة ليتمكن الزوج من الاتصال بها ، ثم توضع قناة ذات حجم مناسب على الجرح حتى يلتئم . وتتلقى العروس قبل اجراء هذه العملية الاخيرة هدايا من العريس عبارة عن ذهب وأشياء أخرى ثمينة . أما اذا امتنع الزوج عن تقديم الهدايا ، فانها ترفض العملية أيضا .

في عام ١٢٦١هـ (١٨٤٥) استجاب حاكم الخرطوم (٤) لموجة من الاستنكار لهذه العادة ، فاصدر قانونا منع بموجبه هذا الاسلوب من الطهارة ، ولكن القانون لم يشمل ما كانت تسميه بالطريقة المصرية لأنها تقضي بازالة البظر فقط . كما نص القانون نفسه على منع المتزوجات من المطالبة بالهدايا قبل اجراء عملية ما بعد الزواج . وحرص الحاكم على

ارسال بعض رجاله للمرور على المديريات للتأكد من سريان القانون خشية أن يخالفه البعض سرا . وبعد استدعاء الحاكم الى مصر ، الذى خالفه القانون ، ليعود الناس من جديد الى ممارستهم القديمة .

ولقد سألت أحد الاهالى عن أصل هذه العادة البربرية التى تبيح ازالة الاعضاء التناسلية ، فأفاد بأنها عادة قديمة يرجع تاريخها الى أحد الفراعنة الذى فرضها حسبما روته التقاليد (٥) . ومنذ ذلك الوقت لم يتوقف الناس عن ممارستها ، غير أن محدثى ما كان يعرف اسم ذلك الفرعون ولا العصر الذى عاش فيه .

ود مدنى :

تقع مدينة ود مدنى فى شبه جزيرة سنار ، على مسيرة يومين بالحمير من مدينة سنار ، على الضفة الغربية للنيل الازرق . والضفة عند ود مدنى منخفضة ومتآكلة بتحدر رؤيتها على القادم اليها بسبب الغابات الكثيفة . وشيدت المبانى هنا دون تنظيم ، ولا تكاد تعثر على مبنى يستحق الانتباه عدا ثكنات الجيش ، وهى عبارة عن حصن ضخم مربع الشكل تحيط به الاشياء المبنية ، ويقع على بعد أربعين خطوة من النيل . على الواجهة المطلة على النهر للثكنات ، المقر حتى آخر ، أو على الاصح منزل آخر ، أحسن شكلا وارتفع عن بقية المبانى ، وهو منزل الضابط المسئول .

أما المستشفى العسكرى ، فيقع على بعد حوالى مائة خطوة من هذا الحصن ، وقد أعيد بناؤه حديثا على ذات الموقع القديم . تتوسط المستشفى الجديد ساحة واسعة تظلل جوانبها أشجار النخل . وحول الساحة حجرات بعضها مخازن وبعضها الآخر مساكن للمرضى ، وحجرات أخرى للصيدلى العسكرى ، والكاتب ، ومدير المستشفى ، واجزخانة بمحتوياتها ، ثم المطبخ . ويقوم البناء المقابل للساحة ، فى مواجهة باب

المدخل تماما يوجد باب آخر يفضي الى صحة ثانية أكبر من الاولى . وفى منتصف هذه الساحة الكبيرة نلمح مبنى مربع الشكل به باب يؤدى الى غرفة متوسطة الحجم تتوسطها مستودعا للجثث . هنا تغسل جثث الاموات وتكفن ثم تؤخذ للدفن فى المقابر المحيطة آخر منزل فى المدينة . تجاور هذه الغرفة فى نفس المبنى ، غرفة أخرى ضخمة صفوف على جدرانها نوافذ من جميع الجهات ليعبر منها تيار الهواء من الساحة لتبريد الماء فى الازيار المحافظة على طول الاسرة وعرضها . نعبر هذه الساحة ، فتواجهنا ثلاث مجموعات كبيرة ، تقع واحدة منها قبالة البوابة التى تؤدى الى الساحة الاولى . وبعد العبور بالمدخل الثانى هذا ، نجد مجموعات عديدة ، ومن نماذج مختلفة للمرضى المتماثلين للشفاء . تحتوى واحدة من هذه المجموعات على معدات العمليات الجراحية ، والاخرى هى عبارة عن مدرج لاجراء العمليات ، أما باقى المجموعات فلايواء المرضى فى حالة امتلاء بقية الاجنحة بالمرضى . وفى الطرف الجنوبى من واجهة المبنى نجد بابا يؤدى الى ساحة صغيرة اتخذت مواقعها مجموعات ضيقة تستخدم كمراحيض .

هكذا حال المستشفى . وواضح أنه لا بأس به مقارنة بانعدام الدراية والجهل النسبى لدى من يقومون بادارته (٦) .

على بعد نحو أربعمائة خطوة شمال الثكنات يطل على النهر منزل أمين بيك قائد الفرقة الثامنة التى تحتل الحصون الكبرى الحامية . هذا المنزل لا يضاهيه حسنا أى منزل فى المدينة ، فقد بنى من طابقين بجدران صلبة ، وبشرفة تطل على النيل لتكشف الحدائق الممتدة أمامها بما فيها النهر والغابات على الضفتين . ولا تتمتع باقى المنازل بمثل هذه الميزة لانها من طابق واحد ولا يستطيع السور ، الذى يلف المدينة نفسها من ثلاث جهات ، أن يخفيها .

وفى منتصف المدينة تبة مرتفعة من الطوب الاحمر على شاكلة سائر المنشآت والمنازل التى شيدت بالطوب الاخضر ما عدا الثكنات التى بناها

إسماعيل باشا بالجسر الحديد المعلق بالدايم ، الا انه ومنذ ذلك التاريخ ظلت الامبراطورات تمرون عليها بالدروب كلما دعت الحاجة لذلك .
وتضم تلك القبة فى جوفها ضريح الشيخ مدنى ، وهو الذى تحمل المدينة اسمه ، والذى يجله الاهالى ويحترمونه لكونه من الاولياء (٧) . وبالقرب من هذا الضريح الضخم مسجد يضاهى أرضيته الطوب الاحمر ، وقد بنى حديثا بأمر من الحكمدار خالد باشا (٨) . وبعد أن استكمل بناؤه ، فوجئ الناس ذات يوم بالجزء الاعلى من المئذنة جاثما على الارض . وكان يخيل للناظر الى ما تبقى منتصبا من المئذنة أن ذلك الجزء الذى هوى قد اقتلع منها بعناية فائقة . أدى ذلك الى اعتقاد الناس بأن نية الحكمدار لم تكن خالصة لوجه الله عند بناء المسجد ، وانما كان الامر كله خداعا وتطلعا لعواطف الناس .

أما السوق ، اذا صحت التسمية ، فهو عبارة عن مجموعة من الاكواخ أخذت مكانها على صفين متوازيين ، مشكلا دكانا أو دكانين ـ لو جازت لنا تسمية الدكان لمجرد وجود أبواب تفتح وتغلق . ولا نجد فى السوق غير بعض الاقمشة ذات الالوان الباهتة ، الحديث كما تسمى ، والاحذية والارز ، والسكر ، والبن ، والبهارات وما شاكل ذلك . وأفضل "دكان" هو ذلك المبنى الذى يحتل ركنا من مربع عند نهاية الاكواخ . فى هذا الموضع تباع الذرة ، والذرة الشامية ، والقمح ، وغيرها مما يجلب السكان من المناطق المجاورة .

والمدينة بصفة عامة قذرة الى حد البشاعة ، وتكثر فيها الامراض والاوبئة . فبالرغم من موقعها فى منخفض تحلوه ارتفاعها بالحفر التى تمتلئ بالمياه فى فصل الخريف . وتظل هذه المياه الآسنة باقية حتى فى زمن الجفاف حيث لا يوجد نظام للمجارى ، فتتعفن تحت أشعة الشمس مسببة أنواعا مختلفة من الحمى . ويزيد الامر سوءا عدم وجود دورات المياه ولا مراحيض فى المنازل ، فيضطر السكان بما فيهم الرقيق والجنود الى قضاء الحاجة على حافة النيل ، فيستحيل الاقتراب من الشاطئ ، خصوصا فى

الامسيات . ولولا ذلك لكان التجوال على النيل متعة لا تدانيها متعة .
ويبلغ عدد سكان ود مدني ما بين اربعة الاف الى أربعة الاف وخمسمائة نسمة .

المسلمية :

المسلمية قرية كبيرة ، أو مدينة أن صحت أن نسميها ، يقطنها تجار المركز . في الماضي كانت المسلمية من المراكز التجارية للسلع التي تتدفق من الحبشة ومصر والجزيرة العربية عن طريق سواكن ومصوع ، ثم من دارفور والى بارا التي يسكنها الزنوج . على أنها الآن ، ومع تأخر الخرطوم في الآونة الأخيرة ، فقدت كثيرا من أهميتها التجارية . فالخرطوم عاصمة جميع المديريات في السودان حيث تمدها بحاجاتها ، فتوزع من هناك على بقية أنحاء القطر . ولكن رغم ذلك فللمسلمية أهمية خاصة .

ويقام سوق في المدينة كل ثلاثاء تعرض فيه سلع شتى مثل الاقمشة كالموسلين الهندي ، والعقاقير الهندية والسلع المصنعة الواردة من أوربا ومصر عبر الجزيرة العربية ، والمصنوعات العربية والسودانية ، والمنتجات الحبشية ، بالاضافة الى منتجات من مناطق الزنوج في جنوب القطر . بجانب كل هذا هنالك الخيول والحمير والابقار والابل والبغال وغيرها مما توفره المنطقة نفسها . أما الذهب فيمكن الحصول عليه من التجار الذين يشترونه من الزنوج في الجبال بالمقايضة مقابل الملابس الشمسية والذرة والخرز . فهذا اذن ، مركز تجمع لخلق كثير يأتون للحصول على حاجياتهم ، بينما يأتي آخرون لعرض بعض الحيوانات للبيع مثل النعاج والخراف .

ومعظم سكان المسلمية يعملون بالتجارة ، ويسمونهم " الجلابة " بلغتهم . وجميعهم تقريبا يمتلكون أراضي بعضها يروى بالمطر بعيدا عن النيل (تبعد المسلمية مسافة ساعتين من النيل) ، والبعض الآخر يروى بماء النيل بآلات رافعة كما في مصر ، والتي ظهرت في السودان بعد الفتح التركي .

الزراعـة فـى سـنار :

يمتلك أثرياء القوم مساحات شاسعة من الاراضى على بعد مسافات من النيل ، يقوم بفلاحتها العبيد فى فصل الخريف . ويسكن هؤلاء الرقيق فى قرى آمنة مع أسرهم ، ويتكاثرون تحت رعاية الحمايـة من أسيادهم الذين لا يحرمونهم من أطفالهم عن طريق البيع . والعبيد فوق نهوضهم بأمور الزراعة يهتمون أيضا بالاغنام والابقار ، ويحلبونها ثم يستخرجون الزبدة "والروائب" من ألبانها ، ويعدون بتهيئة الارض للزراعة قبل حلول الخريف بحرثها وتسوياتها ، وحرق الاعشاب حتى تمتص المياه فيها فتتخمر الارض . بعدها يستخدمون آلة مسماة ، وهى عبارة عن عصا يبلغ طولها حوالى ثلاثة أو أربعة أقدام ، تشبه مؤخرتها قصر المقواة ومثبتة فى نهاية العصا بشكل عمودى . يحمل الرجل منهم هذه الآلة ويمشى حول رقعة الارض محدثا حفرا يبلغ عمقها الابهام تقريبا ، وتقدر المسافة بين حفرة وأخرى بحوالى قدم واحد ويتبعه رجل آخر يحمل البذرة ليلقيها على كل حفرة . ثم يأتى خلفهما ثالث يهيل طبقة رقيقة من التراب على البذور . هذه هى الطريقة المتبعة فى زراعة الـذرة والدخن والقطن .

وهنالك أنواع عدة من الذرة تزرع فى فصل الخريف ، وأشهرها هى أقلها جودة حيث تنتج حبوبا دقيقة ، ولا يتعدى طول ساقها ثلاثة أقدام ، وتعرف بالفتريتة . وثمة نوع آخر يسمى العقد ، وينقسم الى صنفين : أبيض ناصع ، وأحمر ، ويبلغ طول ساقه من ثمانية الى عشرة أقدام ، أما الحبوب فأكبر حجما وأغزر من الفتريتة . وصنف ثالث يسمى الحنكوليب ، طول سيقانه مثل العقد ، ولكنه ينتج حبوبا أقل وذات مذاق حلو لاحتوائها على نسبة عالية من السكر . ويمتص الاهالى قصب الحنكوليب الذى لا يوازى قصب السكر حلاوة بأى حال . ويستخرج الناس من القاطنين عصيرا من الحنكوليب ويصنعون منه شرابا يماثل عرق البلح بعد تخميره وتقطيره[٤] . ولا يسمح المجال لذكر اصناف الذرة الاخرى .

ولا يعود المزارع عادة الى الحقل مرة أخرى بعد بذر البذور حتى يبلغ طول الاعواد مقدار قدم . حينئذ تبدأ عملية تنظيف الاعشاب والعناية بالزرع كقلع النبات الكثيف حتى يساعد على اكمال عملية التغذية ، وبالتالى ضمان انتاج وفير . ثم يقطع القندول فى أعلى القصب عند نضوجه ، وهو مخروطى الشكل كالصنوبر ، ويؤخذ الى مكان مخصص للدق بواسطة العصى . وبعد ازالة القشر من الحبوب ، تنظف وتنقل الى داخل آبار عميقة ويغطى بحصائر لتأمينها ضد الرطوبة والحشرات ، وتقطع السيقان من بداية الجذور وتخزن علفا للحيوانات . تسمى هذه الآبار التى تخزن فيها الحبوب "المطامير"

ويشترك فى عملية لقيط القطن جميع النساء والاولاد والبنات بصناديق يحملها كل منهم . ويزرع القطن بعيدا عن النيل فى الغالب حيث تكثر الامطار ، وكذلك على جانبى النيل بعد انحسار مياه الفيضان .

وفى أوقات الفراغ يقضى الاهالى ساعات فى عمل منسوجات من أشجار الدليب ، [١٠] تعينهم على حياتهم ، مثل السلال والقفاف والطاقيات [١١] التى يستطيعوها النوم والجلوس عليها داخل الاكواخ . كذلك ينسج الاهالى ملابسهم الخاصة وأشياء أخرى ناعمة كأبسطة النوم ذات الاشكال والالوان من أوراق الاشجار ، ومن أصواف البهائم لاتقاء البرد . وقد نبغ منهم كثيرون فاصبحوا موسرين بفضل براعتهم فى هذه المهنة .

عاونت فى هذا الوقت العبيد الذين كانوا يكلفون من قبل أسيادهم بالقيام بالمهام التى ذكرناها ، وهم فى واقع الامر ، الفئة المحرومة من الترقية . أما أسلوب الزراعة الذى تحدثت عنه فهو الاسلوب السائد فى جميع أنحاء السودان .

<u>عمل الصناعيين فى المملكة</u> :

لا ينبغى للقارئ أن يقتصر الاهتمام فى حول التجار الاثرياء فحسب ،

المسلمية . فقد اكتشف عام ١٢٥٩هـ (١٨٤٣) ، على أثر سرقات وأعمال نهب في أنحاء مختلفة من السودان ، الى جانب اختفاء بعض التجار أنفسهم ، ان كثيرا من العبيد يعملون لحساب نفر من تجار المسلمية فى قطع الطريق على العابرين وقتل الاثرياء منهم لنهب اموالهم وتسليمها لاسيادهم . وحدث ذات مرة في تلك الفترة نفسها ، ان ضيوفا من التجار نزلوا على أحد تجار المسلمية ، ولكنهم اختفوا بعد قضاء ليلتهم عنده . لقد كان صاحب المنزل يقتل ضيفه ليلا اذا كان من ذوى المال ، فيستولى على ثروته ويدفن القتيل ليخفى آثار الجريمة .

وأخيرا سمع الحكمدار أحمد باشا بما كان يجرى من أحداث ، فأمر باعتقال عدد كبير من المتهمين لتقديمهم للمحاكمة ، غير انه توفى فى هذا الاثناء ليطلق خلفه سراحهم جميعا . ويقال أن شيوخ المنطقة (١٢) والقاضى وكثيرين آخرين كانوا بين المتهمين . ولو أن الحكومة ثابرت على متابعة الأمر لاكتشفت مزيدا من الضالعين .

صيد الرقيق والتصرف فيهم :

يجدر بنا ، وقد تطرق الحديث الى تجارة الرقيق ، أن نوضح كيفية الحصول على الرقيق أنفسهم . اعتاد خورشيد باشا ، عندما كان يحكم السودان ، أن يرسل قوات الى أرض الزنوج فى فصل الجفاف بحجة جمع الجزية . وكان بعض هؤلاء الزنوج مسالمين لا يبدون أية مقاومة ، فيفرض عليهم تقديم ذهب وعدد معين من الرقيق . وكانوا يبالغون فى العطاء خوفا من غضب الباشا ، للدرجة التى كانوا يضحون فيها باصدقائهم واقربائهم اذا نقص عدد الزنوج الذين اصطادوهم من الرجال المجاورة عن العدد المعين لهم . أما الذين يجنحون نحو المقاومة فكانوا يخضعون بالقوة ويفقدون حياتهم عبيدا . كان خورشيد يمكث أربعة أو خمسة أشهر فى المنطقة ، ثم يعود الى عاصمة الاقليم حيث يصنف الرقيق الى أنواع ودرجات ، فيستأثر هو بأحسنها ويهبط من ثم فى الدرجة الجسمانى فى القوة ذاتها

لتجديد فعاليتها ، ويؤخذ الباقون الى الخرطوم والى بعض الحاميات الأخرى لتوزيعهم على الجنود بدلا عن المرتبات . كان كل عبد سواء كان كبيرا أو صغيرا ، ضخما أو هزيلا ، سليما أو عليلا لا تتعدى قيمته ثلاثمائة قرشا . وما كان فى وسع الجنود أو الضباط الاحتفاظ بهذه الاعداد الضخمة من الرقيق ، فعمدوا الى عرضهم للبيع لسكان المنطقة نفسها فى معظم الأحوال ، بالخسارة أحيانا ، وبالقيمة ذاتها تارة ، وبالربح تارة أخرى .

أراد أحمد باشا ، بعد تسلمه مقاليد الحكم بعد خورشيد ، أن يدفع للجنود رواتبهم نقدا كل ستة أشهر خلافا لما كان يفعل خورشيد الذى اعتاد على منحهم الرواتب كل عام على النحو التالى : الثلث من الرقيق والملابس والمواشى والدواب الأخرى ، والثلثين نقدا . ومع ذلك لم تتوقف غارات صيد الرقيق فى عهد أحمد باشا ، ولا اختلف مصير العبيد عن مصير زملائهم فى السابق . الفارق الوحيد هو أن الرقيق من أقل الدرجات ما عادوا يوزعون على الجنود لكنهم أصبحوا يعرضون فى مزاد علنى ليفوز بهم من يدفع أكثر ، أما اذا فاض بعضهم عن الحاجة ، فيرسلهم الباشا الى بعض الشيوخ مقابل قيمة يحددها هو .

ولم يقف سوء حظ هؤلاء العبيد عند هذا الحد فقد كانت الغارات لاصطيادهم تضمها قوة تتألف من مجموعات مختلفة من الفرسان بجانب قوات المشاة النظامية . وكان من بين هؤلاء الفرسان غير النظاميين ، بصفة دائمة ، بعض أفراد قبيلة الشايقية ، وهم سكان الاقليم بين دنقلا وبربر ، قوم عرفوا بحبهم للقتال . ولأنهم يعشقون الجندية ، فقد جندت الحكومة اعداد كبيرة منهم بمختلف مجموعات الخيالة . ويستفيد الشايقية فائدة عظيمة من هذه الغارات حيث يصطحبون معهم كثيرا من أقربائهم من غير المجندين الى أماكن الصيد ليقتادوا لهم الرقيق الى بلادهم عبر طرق بعيدة أو ليبيعوهم فى الطريق . ويختار الجنود من الشايقية أفضل أنواع الرقيق ، ويقدمون الباقى للباشا أو من ينوب عنه فى قيادة الحملة . ويحذو أفراد المجموعات الأخرى حذو الشايقية ، الآ أنهم لا يحققون مثل أرباحهم لأنهم

ليسوا من سكان البلاد وليس لهم من يشكو اليهم ضعفهم من الرقيق حيثما يريدون .

وثمة اسلوب آخر يشجع انتشار هذه التجارة البغيضة ، ويحط من قدر هؤلاء الناس ، ولا يفرق بينهم وبين الحيوانات يمارسه تجار هذا الاقليم اسلوبا من التجارة عرفت منذ القدم ، حيث يحتجزون أقوات تصلح للسفر الى أماكن الزنوج النائية ليقايضوا منهم أسرى الحروب القبلية . ثم يستخدمهم التجار عندهم مستغلين جهلهم ، فاذا أراد منهم أحد زيادة دخله دفع له التاجر أسيره عوضا من بضاعته ليقنعه بأنه لا يدرك أهمية النقود ، ولا قبل له بالتعامل بها . ويسترجع هذا النوع من التجارة عدة الاف (في العام ؟) من هؤلاء العبيد التعساء .

والى جانب الغارات الحكومية التي تمت بشرحها ، هنالك أيضا غارتان متفاوتتان كل عام . غارة يقودها الامير اودريس ود عدلان الذي يبدأ سيره من مقره في جبل تاوي لجمع الجزية من جبال تابي ، ثم يعود لأدراجه بعد شهرين تقريبا حاملا معه عددا من الرقيق وكميات ضخمة من الذهب . ويدفع بعض الناس الجزية في استسلام ، والبعض الآخر يقاوم مما يدفع الامير الى استعمال القوة واستعباد من يقع في قبضته ، زيادة على ما يطالبه من رقيق حتى بعد الاستسلام . ويحدث ذلك في حالة انتصاره ، ولكنه في أحيان كثيرة قد يخسر المعركة ، فيعود للانتقام في العام التالي بعد تعزيز قوته بالاتراك بدعوى أن هذه القبائل متمردة على غزو أراضيه وتخريبها . وعندئذ يتم له ما أراد بمساعدة الاتراك ويجبرهم على دفع الضريبة المفروضة عليهم ثلاث أو أربع مرات في العام الواحد . ولا يجد الزنوج المساكين مناصا من دفع الضرائب الباهظة في رضى تام ، فذلك خير لهم من غارات الجنود الاتراك ، وهذه مصيبة يجب تفاديها حتى ولو ذهبوا بأطفالهم ليدفعوا أرقاء مدى الحياة .

أما الغارة الثانية فيقودها أبو روف ، زعيم القبيلة التي تحمل نفس

الاسم . " وكان أبوروف " رحالة وسط في الجزء الآخر (يعني الجنوبي) من بحار حتى الرجيرف . وعندما تحل الامطار يعبر هؤلاء الرحـــالة وراء قطعانهم حتى مشارف ديارهم ، فيقدمون ما يفرض عليهم من ضريبة ، ثـــم يعودون ادراجهم الى مناطقهم . وقد اعتاد رجال هذه القبيلة بصفة عامة وغزوهم الاغارة على الدينكا حول ضفاف النيل الابيض بحثا عن اصطياد الرقيق ، ولكن الظفر بافراد من قبيلة الدينكا ليس بالامر اليسير . فهم قوم أشـــداء ومحاربون ، وسبق ان تغلبوا كثيرا على العرب الامر الذي يضطر معه أبوروف الى استعمال القوة .

لذلك كان العرب كثيرا ما يلجأون الى الحيلة في اصطياد الدينكـــا ، حيث يترجلون من جمالهم على بعد خطوات من ديارهم ، ويزحفون عليهم ليلا . ثم يأخذونهم على حين غرة وهم نيام ، فيقتلون من يقاوم ويطلقون الرجـــال والنساء والاطفال موثقين بالحبال الى مكان الجمال . ويحمل الاطفال علـــى ظهور الجمال ، ويجرون الكبار أمام القافلة بعد وضع القيود على أيديهـــم لتبدأ رحلة العودة .

على أن الامر ليس دائما بالسهولة التي نتصورها . ففي أحيـــان كثيرة يسمع رجال القبيلة ما فعل العرب بذويهم فيسرعون في تعقب القافلـــة . وقد يتحصنون في الغابات ، بما لديهم من موهبة في سرعة العدو ، ثـــم اللحاق بالقافلة وتخليص اخوانهم ، وتلقين العرب درسا لا ينسى علـــى اعتدائهم . ويقوم العرب ببيع الرقيق المستجلب من الدينكا للتجار في سنار . وقد تحدث احيانا غارات عكسية حين يغير افراد قبيلة الدينكا على العـــرب شمالا حتى الرجيرف ، بل وحتى المناطق المتاخمة لسنار في بعض الاحوال . وتحدث هذه الغارات كوارث حقيقية حيث يدمر الدينكا كل شيء امامهـــم ، ثم يلوذون بالفرار بعد اختطاف قطعان من الابقار وبعض الافراد العاجزيـــن عن الهروب ليتخذوهم رهائن لا يطلقون سراحهم الا مقابل فدية من الابقار . يعتبر الدينكا هذه الغارات انتقاما لاعمال السلب والنهب التي يمارسها العرب عليهم بصفة مستمرة .

وفي عام ١٢٥٤ هـ (١٨٣٨ - ١٨٣٩ م) وعندما كان محمد علي باشا في فازوغلي لزيارة مواقع مناجم الذهب ، قامت حملتان لصيد الرقيق ، احداهما بقيادة أحمد باشا الى جبل تابي بمنطقة فازوغلي ، والثانية بقيادة مصطفى بك الى جبال تقلي ودايو في اقليم كردفان . ولقد حققت الحملتان اغراضهما حيث كانت حصيلة الغارة على جبال تابي حوالي خمسمائة من الرقيق تم أسرهم بعد أن قاوموا بشجاعة . أما مصطفى بك فقد واجه مقاومة عنيفة في جبال تقلي ودايو ولكنه حصل في النهاية على خمسين من الرقيق من مختلف الاعمار .

وخابت آمال محمد علي في العثور على الذهب في منطقة فازوغلي ، فصرف النظر عن انشاء المستوطنات على مواقع المناجم كما كان يخطط . ولقد كان هدفه الاكبر من جلب الرقيق هو توفير العمالة في مناجم الذهب . وعند زيارته الى السودان بعد الحملات التي شاهدها والرقيق الذي استجلبه ، أراد أن يستغل ذلك في موقف مشرف امام الاوربيين الذين كانوا معه ، فأصدر أمرا أوحى للغير أنه بصدد الغاء تجارة الرقيق . كان الامر هو اطلاق سراح الرقيق والسماح لهم بالعودة الى جبالهم ، ثم الكف عن شن الغارات عليهم مستقبلا . واطلق سراح الزنوج بالفعل عدا قلة منهم استبقاهم عليه القوم لخدمتهم . ولكن غالبيتهم لم يتمكنوا من الوصول الى ديارهم ، فقد ضلوا الطريق وتفرقوا ايدي سبأ ، وتحكمت القبائل المعادية بمصيرهم ومات البعض الآخر من الجوع في الصحارى والاحراش .

وقد اتضح زيف ذلك الموقف النبيل الذي ادعاه محمد علي بعد أن كتب الى أحمد باشا ، عند عودته لمصر مباشرة ، يطلب منه ارسال مزيد من الرقيق الى القاهرة . وكان ابراهيم باشا وآخرون غيره يحثون النفوس باستخدام الخدم والعبيد من الزنوج في قصورهم ضمن مظاهر الابهة والفخامة الى جانب استخدامهم في زراعة أراضيهم . وبذلك تستمر الغارات على الرقيق كما كانت في السابق ، ولم يتحقق بعد الغاء التجارة في الزنوج .

بدأ أحمد باشا في العام التالي إجراءات تكوين قوة جديدة لم تكتمل إلا بعد مضي عام آخر . وكان عصب القوة زنوجا تم أسرهم من الجبال بجانب الرقيق الذين أخذوا عنوة من المواطنين ومستخدمي الحكومة من عسكريين ومدنيين . وقد فرض على حملة الرتب العسكرية وما يعادلها من الوظائف المدنية المسامحة بالرتبة بطريقة نسبية على النحو التالي :

ملازم ثاني (أو أول)	١
نقيب	٢
رائد (١٣)	٣
قائد كتيبة	٤
مقدم	١٦
عميد	٣٠
لواء	٤٠
الحكمدار	٥٠

ولم يستثن من هذه الضريبة حتى التجار . أما قواد القوات غير النظامية فقد فرض على كل منهم إمداد القوة بأربعين عبدا . وقد تم رفع الضريبة عن المستخدمين العسكريين والمدنيين بعد وفاة أحمد باشا ، لكنها لا تزال سارية على الأهالي في كل مديريات السودان .

التسويق في مناطق الرقيق :-

يتضح مما تقدم مدى انتشار تجارة الرقيق في السودان . ذلك أنه بالإضافة لما يجري داخل البلاد ، فإن أعدادا من الرقيق تجلب من الحبشة ودارفور ، ثم يصدر معظمهم فيما بعد إلى مصر داخل إطار الصور التجارية للإمبراطورية العثمانية . (١٤) ثم يرسل عدد آخر من الرقيق إلى الحجاز عن طريق سواكن ليتم بيعهم هناك .

ويتعرض هؤلاء الزنوج التعساء لشتى أنواع التعذيب ، وتختلف ضروب السخرة والهوان وذلك منذ اللحظات الأولى للقبض عليهم ، اذ تهجم قوات الحكومة عليهم وتعكر عليهم الحياة الوادعة فى الجبال ، فيخرجون منها موثوقى الأيدى . وفى بعض الأحيان يتحول الجنود من ضروب أسرائهم بأن يأتوا بجذع شجرة ضخم يبلغ طوله حوالى أربعة أو خمسة أمتار ، على أن يكون طرفه متشعبا لكى يستقر على الكتفين . ثم تثبت قطعة خشبية على قمة الشعبة بشريط من الجلد اللين حتى يتم استحكام الرباط عند ما ينشف الجلد . عندئذ لا يجد الزنجى طريقة لازاحة الجذع من كتفيه لضيق الفتحة التى لا تسمح بمرور الرأس . ولا يقدر الزنجى ، وهو يحمل هذه الكتلة على كاهله ، على السير الا بمساعدة زميله الذى يسير أمامه حاملا الطرف الآخر والذى لا يجد أمامه من يخفف عنه الحمل ، فيلقى بثقل الجذع على من يسير خلفه . هكذا يظلون كثيران الساقية وهم يتبعون الجيش . وفى أثناء هذا المشوار الضنى لا يتناولون الا القليل من الطعام، وتهلك منهم أعداد كبيرة بفعل العطش .

ولدى وصولهم يكشف عليهم طبيب الجيش فيختار الأصحاء منهم للتجنيد ، فيرفع عنهم النير ويقدم لهم طعاما وطبسا أفضل ، أما الباقون فيعرضون للبيع . والواقع هو أن هؤلاء أسعد حظا ممن يقبلون للتجنيد ، ذلك لأن أسيادهم يعتنون بطعامهم أكثر باعتبارهم سلعة يجب المحافظة عليها ، بعكس ما تفعل الحكومة بالمجندين . ومع ذلك فهنالك عقبات فى الطريق تسبب المتاعب للرقيق بعد أن يتم شراؤهم . فهم يقطعون الصحارى والفيافى سيرا على الأقدام ، الا الصغار والمرضى ، فيموت معظمهم من الجوع والعطش ، خصوصا الضعفاء منهم . وبعد أن يموت الرقيق تحت هذه الظروف القاسية ، فانه لا يحظى بشرف دفن جثته لأن الشريعة الاسلامية لا تفرض دفن العبيد المملوك .(١٥) فتأمل كيف يعامل انسان أخاه الانسان .

والفظائع التي ترتكب في حق الرقيق لا تحصى ولا تعد . واذا أقدم امرؤ على قتل أحد عبيده لاتفه الاسباب فلا يعاقب على جرمه لانه يعتبر جزء من ممتلكاته ويحق له التصرف فيه كيفما شاء . ولقد كنت شخصيا شاهد عيان على شيء من ذلك .

كان هنالك تركي يدعى حسن أفندي ، وكنيته "سلاران ديمة (دائما)". واشتهر في الماضي على أثر قتله لعدد هائل من عبيده . وذات مساء اعتدى بالضرب على احدى جواريه حتى فارقت الحياة لمجرد انها لم تسمعه حين استدعاها . والادهى من ذلك انه سحب جثتها على الارض والقاها في خور بالقرب منزلي . وتحققت الفزع من هول المنظر ، فصحت على الخدم وابلغت الحاكم بما حدث ، ولكنه لم يحرك ساكنا ، فافلت القاتل من الجزاء الذي يستحقه . على أن ما يثير الدهشة والاستغراب أكثر ، هو موقف الاوربيين الذين ظلوا يرمون الناس بأنهم انسانيين ومتحضرين ومع ذلك يرتكبون أفعالا غاية في الوحشية (١٦).

حدث ذات يوم أن صيدليا فرنسيا يقيم بدنقلا غضب من عبد له (اسميه عبدا لأن الاوربيين يعتبرونهم عبيدا مع أن قوانيننا لا تسمح بذلك) لا لسبب غير أنه ذهب للالتقاء بصاحبته . وأثناء فورة الغضب ، كتب الفرنسي لطبيب المقاطعة يطلب منه المحدرات لاخصاء العبد . وما كان من الطبيب الا أن أرسل له المحدرات فعلا وهو يعبر عن ثقته بان الصيدلي سوف يغير رأيه بمجرد أن تقع عيناه على بشاعتها ، فتعود اليه انسانيته . ولكن الطبيب في الحقيقة قد أخطأ التقدير ، فقد نفذ الفرنسي خطته دون مساءلة من أحد .

وفي كردفان قرر فرنسي آخر نفس المأساة ، حيث أخصى أحد عبيده لمجرد الاشتباه في علاقة بينه وبين احدى خادمات المنزل . وليت الامر وقف عند هذا الحد ، ولكنه عاقب الجريمة بحشو قطعة من الحديد الساخن في جيلها .

وفى كردفان ايضا عاش طبيب من تسكتى له عبيد كثر . وفى يوم من الايام حل أحد خدم الرياحة فى كنف سيده ، فأراد أن يتخلص من تلك المعاملة الفظة على يديه كل مطلع فجر . وأخيرا هداه تفكيره الى الارتماء فى جوف بئر عميقة ، ولكنه ، لسوء حظه ، لم يمت وانما اصيب بكسر فى قدمه قبل ان ينتشله خدم المنزل ويضعونه على سرير . وعلم السيد ما حدث فجاء يسأله عن أسباب ما أقدم عليه . ورد العبد بأنه كان يبغى الخلاص من التعذيب اليومى على يدى سيده ، فالموت أهون وأفضل بكثير . وغضب الرجل وصاح قائلا انه قد اشتراه بماله ، ولا يحق لاحد غيره التصرف فى حياته لانها ملكه ، ولكن لا بأس ، مع ذلك من الاستجابة لطلبه . وأمر على الفور بحبل ولفه حول عنق الرجل المريض ، واشار على بقية العبيد بشده حتى يموت خنقا . وانصاع العبيد لامر سيدهم ، ولكنهم ظلوا يشدون الحبل فى رفق ، فقد صعب عليهم قتل اخيهم . وهنا تولى السيد الأمر بنفسه ، فتناول الحبل وخنق الرجل المسكين ، واضعا كلتا رجليه على كتفيه ، حتى لفظ أنفاسه (١٧) .

وابتدع رجل آخر من تسكتى اساليب لا يصدقها العقل فى تعذيب عبيده . فقد كان يأمر أحدا ان يضربهم بمطرقة على الرأس أو أجزاء الجسم الحساسة أو يقودهم الى هجير الشمس فى منتصف النهار ، فيتركهم هناك مقيدين . وما أن ينتهى هذا من دوره حتى يكلف أحدا بأن يعلقهم من القدمين على فرع شجرة ، فيظلون هكذا لمدة نصف ساعة . ولكن الله لم يغفر له ما اقترف من ظلم وقسوة فسخّر عليه عبدا قتله ذات ليلة وهو نائم فى بقعة لا تبعد اكثر من ثلاثة أيام من الخرطوم ، أثناء رحلة كان يقوم بها . ثم ركب القاتل جملا وفر هاربا .

وتجرأ رجل سودانى الجنسية على بيع زنجى (١٨) حر تحت خدمته مع أن الزنجى كان فى الاصل عبدا لعالم معادن فرنسى فى فازوغلى قبل أن يعتقه . وقتل هذا السودانى نفسه كثيرا من عبيده ضربا . ليس ذلك فحسب ولكنه كان يسرف فى تجارة الرقيق تماما مثل شخص آخر ممن بنى جنسه حول منزله الى قصر للدعارة كقصور السلاطين . يدخل

المرء منزله فيمتلئ صخبا وضجيجا من الزنوج ، رجالا ونساء . وفي بعض الاحيان يمسك الاذن رهين السلاسل الحديدية يجرها العبيد خلفهم كنوع من العقاب، لا يعرف الرحمة . أما أدوات كالعصي والسياط فكانت أشياء مألوفة في هذا المنزل .

وتاجر فرنسي عاش طويلا في هذه البلاد تجول كثيرا في تجارة الرقيق . وذات مرة شحن مركبا بالرقيق من الخرطوم واتجه بها صوب القاهرة ، رافعا عليها العلم الفرنسي . وهناك عرض الزنوج جميعهم للبيع . وما فكر الرجل ولو للحظة أن يحترم ذلك العلم الذي كان يرفرف في ثورة وغضب فوق رؤوس الرقيق طوال الرحلة .

ورجل من أمريكا عاش في الخرطوم لفترة طويلة ، كان معروفا بطباعه الحادة . وأثناء ثورة من ثورات غضبه أباد مجموعة من عبيده ودفنهم في حديقة منزله . وشنق تركي فتاة من الرقيق اشباعا لرغبة زوجته التي كانت تغار منها .

أما الآن فهناك قصة تعد مثلا فاق كل تصور في القسوة والاجرام . انها قصة تكشف حجم الفظاعة والوحشية كما يمارسها الاوربيون في هذه المنطقة ، خصوصا أولئك الذين يتفاخرون بأنهم أكثر الأمم تقدما وحضارة . ان بطلها اغريقي يسمى لاميدورو قضى فترة طويلة في كردفان . كان الاغريقي يمتلك مجموعة ضخمة من الرقيق ، لانه ظل يعاملهم معاملة حسنة . وكان من بينهم غلام خصه الرجل برعايته تماما كأحد أبنائه . ولما شب عن الطوق أعتقه وزوجه بفتاة زنجية محررة ، فعاشا سويا في منزل سيدهما .

أخطأ لاميدورو ذات ليلة فشرب كثيرا من الخمر ، مع أنه لم يعرف بالاسراف في الشرب . وكان ليلتها يستضيف عددا من الاوربيين والأتراك في منزله على طعام العشاء . وبعد أن فرغ من الشراب والأكل زين له ما كان فيه من مرح ونشوة أن يمسك الزنجي من يديه ويصفعه مازحا أمام الضيوف ، قائلا أنه معجب به غاية الاعجاب .

وفسر الزنجي هذه الدعابة تفسيرا لم يخطر على بال سيده . فثار الى لاميرو ثائرة تومي بانه لن يغفر له ما فعل ، لانه لم يعد صغيرا . فما كان من الرجل ، وقد شعر بانه أهين ، الا أن صفعه ، بخلاف عادته هذه المرة ، صفعة موجعة . وهاج الزنجي وانطلق هاربا وهو يتوعد سيده الذي كان يجري خلفه في حنق . وعند وصولهما الى فناء المنزل ، توقف الزنجي فجأة واحتضن الافريقي ، واخذ خنجرا كان يحمله في خاصرته . صرخ الرجل وهو يهوي على الارض ، فخرج الضيوف ووجدوه يسبح في بركة من الدماء . وحمله الرجال الى الداخل في محاولة لعلاجه ، ولكنه مات بعد ساعتين .

وولى القاتل الادبار بعد أن وقع سيده صريعا ، وباءت محاولات القبض عليه بالفشل . وبعد فترة طويلة نما الى علم مصطفى (٦) ، قائد الفرقة الاولى في كردستان ، وحاكم الاقليم ايضا ، ان قاتل لاميرو موجود داخل اقليمه . وكتب الباشا في الحال الى شيخ الجبال التي لاذ بها الزنجي القاتل يطلب منه تسليمه والا فانه سيرسل جيشا كاملا لعقابه . وخشي الشيخ انتقام الباشا فأرسل له الزنجي تحت حراسة مشددة .

وجمع مصطفى باشا الاوربيين ليروا القاتل ، ثم سألهم ان يقترحوا عليه العقوبة التي يودون تطبيقها عليه ، فاشاروا جميعا بضرورة قتله . على أن فرنسيا واحدا خالفهم الرأي وقال ان المتهم جاحد وناكر لجميل سيده ، لذلك فانه لا ينبغي أن يموت سريعا ، بل يجب أن يعذب طويلا قبل أن يرتاح الى الأبد . وفي سبيل تحقيق تلك الغاية ، اقترح الفرنسي أن يعلق الزنجي بكلابتين تغرزان في جنبيه عند الاضلاع ، يربطهما حبلان بالمشنقة . وتحقق للفرنسي ما أراد وعلق القاتل البائس . وفي غمرة عذابه وحلول مأساته طالب الفتى اناسا تجمهروا من تحته وهو يصف ما يحدث له بأنه ضد مبادئ الاسلام وعدالته ورحمته ، ذلك لانه لم يقتل غير مسيحي . ثم ناشدهم أن يحثوا الباشا على اطلاق سراحه أو قتله فورا .

سمع الفرنسي نفسه ما قاله الزنجي الشقي ، فاسرع الى الباشا شاكيا

ومدعيا ان القاتل يحرض الناس على الاوربيين ويؤلبهم عليهم من علو المشنقة . ثم حذر الفرنسي البقية من مغبة مثل هذا التحريض . وحسما للمعضلة اقترح الفرنسي قطع لسان الزنجي ليخرس صوته الى الابد . وافق صالح على العقوبة الجديدة ، وبعد قليل كان الدم ينفجر من فم الزنجي . وظل هكذا ليومين في حالة من العذاب لا يوصف ، ابتدعه احد الاوربيين ، فرنسي بالتحديد . ولقد كان الزنجي مليئا بالموت حقا ، ولكن الروح تفهمنا تتوارى خجلا وترتجف خوفا من مثل هذه النهاية المفجعة .

اصدرت الادارة على عهد احمد باشا أوامر صارمة لمنع ارتكاب مثل هذه الجرائم البشعة ، ولكن رغم ان حدتها قد خفت كثيرا ، الا انها لم تقتلع من جذورها ، وذلك لضعف جهاز البوليس . وهكذا استمرأ بعض الاشرار ايذاء الرقيق غير عابئين بردع القانون . من هؤلاء نذكر عريفا من الاسبتالية يدعى اسماعيل قتل زنجية لانها تقاعست عن اعداد العصيدة له لارتباطها بواجبات أخرى في المنزل . وعند رفع الامر للحاكم اعتقل العريف وخفضت رتبته ، ثم جلد خمسين جلدة ، وحكم عليه بالسجن لمدة عام مع الاشغال الشاقة . نكتفي بهذا للتدليل على سوء المعاملة لبشر مثلنا في ظل العبودية .

ويرجع الفضل الى أحمد باشا في صدور الاوامر بوجوب دفن جثث الموتى من العبيد ، حيث لم يكن ذلك مسموحا به قبل حكمه . كانت جثث الرقيق سواء كانوا تابعين للافراد أو الحكومة تلقى في العراء نهبا للوحوش الجائعة ، [٢٠] أما المجندون في الجيش فقد كانوا يدفنون باعتبارهم احرارا .

تجنيد الرقيق في الجيش :

دعنا الآن نتناول بعض الاجراءات المتعلقة بضم الرقيق الى الجيش . الى جانب الزنوج الذين تحصل عليهم الحكومة من غاراتها على الجبال سنويا ، [٢١] كان زعماء البلاد البارزين من أمثال ادريس ود عدلان ، وابو روف ، وابو سن ،

وأبو حجر الآخرين كانوا يساعدون بأعداد معينة من الرقيق[٢٢] . كان أحدهم يحضر من الإدارة المصرية بالغنائم ، فيختار أجود أصناف الرقيق ليبيعهم في سنار ، ثم يذهب بالباقي الى الباشا في الخرطوم ، فيختار هذا بدوره أحسنهم لنفسه ، ويرسل الباقين للكشف الطبي الذي يجريه عليهم المفتش الطبي أو مساعده .

ولنفترض الآن أن الطبيب لم يجد العدد الكافي من الرقيق الأصحاء للجيش بعد سلسلة الاختبارات الطبية التي أجراها لهم من قبل . ليس هذا بالقطع في مصلحة من يمدون الجيش بالرقيق لأنهم يصبحون مدينين للحكومة في حالة فشلهم في امداد القوات بالرقيق ، كل حسب قدرته المحددة ، وهكذا تتراكم عليهم الديون مع مرور الزمن . ولتفادي هذا الموقف الحرج ، يتوجه متعهد الرقيق الى المفتش الطبي قبل بداية الكشف للتفاوض معه على أسس اختيار المجندين . واذا كان الطبيب ممن يتحلون بالطيبة واللطف عقدت معه صفقة على الفور مقابل مبلغ من المال . عندئذ يجيز الطبيب جميع الحالات فيما عدا الحالات الواضحة . وظلت هذه الممارسات مصدرا للثراء لا ينضب للأطباء الضالعين فيها علما بأن من عف عنها كان نفرا قليلا جدا .

وقد عرف في عهد أحمد باشا طبيب من هؤلاء يدعى زميتو[٢٣] عمل مفتشا طبيا لمدة عام ونصف جمع خلالها ثروة ضخمة من ابتزاز المكلفين بمد الجيش بالرقيق . عين هذا الطبيب رجلا يرتب له الصفقات مع زبائنه لكي يحصل منهم على مبالغ معينة قبل الشروع في الكشف الطبي على الزنوج . ولكن ، وكما يقولون ، فلكثر نزول الدلو الى البئر حتى تمزق[٢٤] . انكشف أمر الرجل ذات مرة ، فاستدعاه الباشا للمثول أمام حضرته . وتصنع الباشا التسامح حتى استدرجه الى الاعتراف بحصوله على هدايا غير مشروعة بلغت مائة وستون خيرية (نقود مصرية تعادل ثلاثمائة فرنك)[٢٥] . غير انه اخفى عن الباشا الآلاف الأخرى التي استولى عليها عن طريق الابتزاز ، فلم يكن يجتاز كشفه الطبي حتى الأصحاء من الرقيق الا نظير رشوة من المال . ثم طلب منه الباشا في

لطلف ود المال الذى اعترف بحيازته لكى يسلمه لاصحابه .

وافتتح الأبيض بحديث أحمد باشا وجاء بالمال فى اليوم التالى . وتسلم الباشا المال ، فاستدل ذلك بهبة نقدية ، وأمر بتشكيل مجلس لمحاكمته . وقضى الحكم بفصله من الخدمة وابعاده من البلاد لانه خان الامانة التى وضعها الحاكم فى شخصه . اما عمليه فقد أودع غياهب السجن حيث ظل فيه حبيسا حتى وفاة أحمد باشا .

الهيكل الادارى للحكم المحلـــى :

مع اننى قد تحدثت طويلا عن الضرائب وابتزاز الناس فى هذه البلاد ، الا أن الاسهاب فى هذا الصدد يظل أمرا ذا أهمية بالغة . ولكن وقبل المضى فى هذا الموضوع لابد من كلمات قليلة عن الكيانات السياسية فى البلاد .

فالسودان مثل مصر تماما ، مقسم الى مديريات ، وهذه المديريات الى كاشفيات ، والتى بدورها تنقسم الى مناطق تدار كل منها بواسطة شيخ مشايخ .[٣٦] ومقر المأمور ، وهو نائب الحاكم فى الاقليم ، يكون عادة المدينة الثانية فى الاقليم . وعلى كل كاشف ان يعد اربعين جنديا من القبائل غير الفلاحين ، يجندهم ويدفع لهم المرتبات ، ويزودهم بالكساء فى حالات أخرى كثيرة . ويخصم الكاشف تكاليف اعاشة هؤلاء الجنود من مرتباتهم ويحوش متأخره من خزينة الحكومة . ثم يوزع الكاشف جنوده فى قريتين أو ثلاث لجمع الضريبة أو لاى أمر آخر تكلفه بها الحكومة حيال المزارعين . كان على أن أذكر أن كل قرية يحكمها شيخ بينما هنالك شيخ مشايخ على رأس كل احدى عشر قرية .[٣٧]

مفاسد الحكومـــة :

قامت الحكومة باختراع وحدة للقياس تسمى الجدعة[٣٨] تعتمد على علاقة

الارض بضريبة الرؤوس . وليس مهما أن يكون الشخص من ملاك الاراضى حتى تفرض عليه هذه الضريبة ، فقد نجد احدا لا يملك شيئا على الاطلاق، ولكنه مضطر لدفع الوحدات المسجلة امام اسمه بعد التقويم . وبذلك فان معظم المزارعين يدفعون اكثر من طاقتهم . وتقدر الوحدة الواحدة بثلاثين قرشا وعشرين بارة ، ولكنها قد تبلغ فى احيان كثيرة مائة أو حتى مائتى قرشا . ما السبب فى ذلك يا ترى ؟

دعنا نتأمل ما يحدث فى كاشفية تضم ثلاثا وثلاثين قرية ذات أحجام متساوية . يتلقى أحد الكشاف أوامر من المأمور باستخلاص خمسمائة وتسعين كيسا من فقراء . يستدعى الكاشف عندئذ شيوخ المشايخ الثلاثة ويبلغهم الاوامر ، غير أنه بدلا من أن يذكر لهم الرقم الصحيح الذى طولب به ، يكلفهم بجمع الف وستة وخمسين كيسا ، اى بزيادة ستة وستين كيسا يحولها لمصلحته الخاصة . ويشرع كل شيخ مشايخ فى جمع ثلاثمائة واثنين وخمسين كيسا من القرى التابعة له وعددها احدى عشر قرية ، ولكنه لا يتقيد بالرقم تماما ، فهو أيضا يريد أن يغنم ، فيستدعى الشيوخ ويطلب جمع ثلاثمائة وأربعة وسبعين كيسا . لابد أنك قد لاحظت أن ما يطلبه كل شيخ مشايخ يزيد عما حدده الكاشف بنحو أثنين وعشرين كيسا . ويذهب كل شيخ الى قريته ويجمع أهاليها فى حشد يضم كاتب القرية ويعلن عليهم أنه يريد منهم خمسة وثلاثين كيسا بأمر من الحكومة .

فى النهاية تبلغ الزيادة فى الضريبة بدءا" بالكاشف وانتهاء" بشيخ القرية خمسة أكياس ، أى بمعدل سدس اجمالى الضريبة . ولكن الشيخ لا يكفيه كيس واحد ، فيلجأ الى حيلة أخرى لكسب المزيد بالتواطؤ مع كاتب السجلات الذى يقتسم معه الغنيمة . وللوصول الى هدفه هذا يتبع الاسلوب التالى :

اذا كان المزارع غير قادر على الوفاء بمساحته كاملة ، يسمح له

بتسديدها على أقساط بسيطة يدفعها للشيخ ويأخذ ايصالا بكل سداد قسطا . وهنا يستغل الكاتب جهل المزارعين البسطاء ، فيزور الايصال بأن يسجل فيه مثلا مبلغ ثمانية قروش في حين أن المبلغ المدفوع فعلا نحو عشرة قروش . ثم أنه لا ينسى أن يدون في دفتر السجلات نفسه مبلغا أقل مما دفع . وبعد أن يسدد المزارع كل ما عليه ، يكتشف أنه ما زال مدينا ، فيعتذر للمسؤولين بخطأ ما وقع من الذاكرة متحججا . وعندئذ يواجهه المسئولين بالدفتر وبالايصالات التي يحملها هو نفسه دون أن يدري محتواها . ولا يبقى له غير الاذعان وتسديد ما عليه وهو يشكو سوء حظه ، ويلعن جهله الشديد ، مع اقتناعه الكامل بسلامة موقفه .

هنالك أيضا ضريبة على الذرة والسمن والملابس التي يصنعونها من خيوط القطن المجدولة ، وذلك للصرف على الجنود والمستخدمين الحكوميين . كما أن أصنافا أخرى من المنتجات المحلية تخضع للضريبة مثل القطن الخام والقطران ، وجرائد النخيل والصوف والجلود وغيرها . وفي مناطق الغابات يضطر السكان الى جمع الصمّغ من أشجار السنط لبيعه . ولكن حتى هذا المحصول تفرض عليه الضريبة ، أي الجدعة . وتجمع هذه الضرائب كلها وتودع المبالغ خزينة الكاشف ، وتنقل المنتجات الى شونته ، أي مخزنه ، قبل ترحيلها الى عاصمة الاقليم .

وتمتد هذه الايدي الطويلة حتى الى محصول المزارع بعد ترحيله الى المخزن للتقدير حيث يقيّم بعضه بالوزن والبعض الآخر بالكيل . واللصوص الذين اشرت اليهم يحتفظون بوحدتين مختلفتين من الوزن والكيل . فيستعملون الاكبر عند الاستلام ، والاصغر عند التوزيع . بهذه الطريقة الدنيئة يسرقون قوت المزارعين لعلمهم التام بانهم لن يرفعوا أصواتهم امام الحكومة الظالمة التي يحكم الاتراك بها البلاد .

وبعض الاهالي ، ممن يعيشون في مناطق السيول التي تجرف التراب المخلوط بالذهب في موسم الامطار ، يساهمون بالذهب أيضا بعد تصفيته

من التابين حين تتحسسر السيول . هؤلاء أيضا لا يسلمون من عبث وتآمر عملاء الادارة التركية من تقدير ظالم للضرائب من قبل الشيوخ ، ووزن للذهب بموازين متحرشة فيجني اللصوص ارباحا طائلة .

ولم يقف الامر عند ذلك الحد ، فقد ابتدع بعض الكشاف طريقة غريبة لتحقيق المزيد من الكسب الحرام ، حيث يجلس الكاشف على فروة غزيرة الشعر ذات الوان زاهية . وعندما يأتي دافع الضرائب بالكيس الذى يحتوى على ذرات الذهب ، ينثرها الكاشف على الفروة بحجة الكشف عن المعادن الغريبة فيها . عندها تنتشر بعض الذرات بين ثنايا الشعر ، فيجمع الصراف ما يبقى (٢٦) من الذهب فوق سطح الفروة لوزنه . واذا أخذنا في الاعتبار سوء حال الموازين ، فضلا عما علق بالفروة من ذهب يمكن لنا أن نتخيل فداحة الخسائر التي تقع على كاهل هؤلاء البشر . ومن يتذمر منهم على هذا الابتزاز يجد العصا في انتظاره بدلا من الانصاف ، بل ويتوعدونه بالمزيد من الضرب اذا لم يدبر النقص في ضريبته فورا . وازاء هذه المعاملة اللطيفة من سيده المحترم ، يبادر فورا بتسديد ما عليه من دين حتى يطلق سراحه .

ولا يكتفى العرب الرحل انهم يدفعون الضرائب العينية ويقدمون العبيد ، ولكن عليهم ايضا توفير الجمال لنقل الجنود في اوقات الحروب . وتوزع هذه الجمال على الجنود والضباط ويستقطع مبلغ مائة وخمسة وعشرين قرشا من مرتب كل ضابط نظير استعماله للدابة . وعند وصول الجيش الى مقصده ، تباع الجمال التي لا تزال على قيد الحياة وتودع قيمتها بخزينة الحكومة .

وأهم قبيلتين تشتهران بانتاج الجمال هما قبيلتا أبي سن ، بالقرب من سنار ، والصبرية في كردفان (٢٥) . ولا يدفع أصحاب الجمال من رجال هاتين القبيلتين الضرائب المفروضة عليهم فحسب ، ولكنهم أيضا يرغمون على ارسال الآلاف من الجمال عند الطلب ليبيعوها في مصر لحساب الخزينة في مقابل ثمن عام .

قياسا على ما سبق ذكره ، قد يبدو أن المصريين الذين يتحملون بقدر

أكثر من الانسانية يحيدون عن مثل هذه الممارسات المخالفة للقانون . ولكنهم ليسوا كذلك . بل انهم في واقع الامر يجنون ارباحا طائلة بأسرق سمسم اشتروها الآن .

المدير سلطة مطلقة في الحكم يستطيع بموجبها فصل الكشاف والمشايخ وكل من يعملون تحت سلطته . لذلك يمكنه فصل احدهم وبيع وظيفته سرا لغيره على أن يقدم الاخير مبلغا معينا كل عام ، وذلك بجانب ما يعطيه من سمن وعسل وقمح وذرة وخلافها متى ما طلب منه المدير ذلك فى اية لحظة (ناهيك عن الهدايا كالابل وغيره) [٣٦] . أما اذا نقص احد منهم الاتفاق فقد وجب عليه انتقام المدير ، فيجرده من منصبه فى الحال ولا يترك له شيئا غير الملابس التى على جسده ، وفى احيان أخرى يحكم عليه بالاشغال الشاقة .

وبعد الانتهاء من جباية الضرائب مباشرة يفرض المدير على الاهالى دفع جزء من أقساط العام التالى مقدما واهما اياهم انه سوف يسجل اسمهم . وعندما يهل العام الجديد ويحين وقت الضريبة الجديدة لا يجدون فى حساباتهم شيئا لان كل ما دفعوه يذهب فى جوف خزينة المدير الخاصة . وللمدير جولة كل عام فى انحاء مديريته بدعوى تفقد احوال المزارعين والاستماع الى شكاويهم ، غير انه فى حقيقة الامر لا يستمع الى الشكاوى ليضع لها الحلول ، ولكن ليهدد بها الشيوخ الذين يهرعون اليه فى ذعر وفزع ، فتمتلىء خزينته بالمال .

لابد من الحديث الآن عن الباشا أو الحاكم العام . انه ايضا يسعى للكسب الشخصى ، خصوصا وان كل السلطات الادارية محصورة فى قبضته ، والفرص المواتية للثراء متوفرة لديه . ويعين الباشا المديرين ، ولو أن هذا الامر قد صار مؤخرا من سلطات صاحب السمو فى القاهرة ، أو بالاحرى فقد بدأ ارسال المديرين من مصر منذ وفاة أحمد باشا أبوودان بهدف اضعاف نفوذ الحاكم العام . ففى عهد أحمد باشا كان مدير الخرطوم حسن

الوحيد الذى كان يتم تعيينه بواسطة الديوان فى القاهرة (٣٢) بترشيح من باشا السودان ، الذى غالبا ما يختار أحد أصدقائه .

ومن مسؤوليات الحاكم العام قيادة الجيش ، ورئاسة جميع زعماء القبائل والعشائر الذين يأتمرون بأمره . كذلك يباشر الحاكم العام فرض الضرائب على الأراضى . ولتحقيق فوائد شخصية ، يوكل أمرها الى شخص يثق فيه بموجب اتفاق خاص بينهما . لذلك كان المفاسد التى تتعلق بجمع الضرائب تتم هنا تحت الحصانة الكاملة لمن يقومون به . هذا الى جانب امتيازات عديدة يتمتع بها الحكمدار الذى يطوف على الأقاليم باستمرار تحت ستار الوقوف على أحوال المواطنين . ولكن عينه دائما على ما يحمله له الشيوخ من هدايا كثيرة بدافع الخوف والطمع لارضائه . وعند قيامه بغزواته على الجبال لجلب الزنوج يطلب الباشا ذهبا من الشيوخ فوق مساهمتهم بالعبيد كما ذكرت آنفا . وبعودته من الحملة يحصل على عائدة لا تقل عن ستمائة أو سبعمائة أوقية من هذا المعدن النفيس يحوله الى صناديقه فى عملية احتيال فاضحة .

ولا تكاد تجد باشا واحدا حكم السودان دون أن يسعى الى الثراء الحرام . وحدث أن أحدا منهم ويدعى منيكلى (٣٣) تولى السلطة لمدة عشرين شهرا فقط ، ولكنه عاد الى مصر بأكثر من ألفى أوقية من الذهب ، ومركبين كبيرتين ، غير الخيل والعبيد . هكذا يحكم السودان اذن . الأرض الغنية المعطاءة صارت جدباء وقاحلة بعد أن أصبحت نهبا لمصاصى الدماء الذين لا يرتوون من دمائها مهما سفكت .

وعند أيام الفتح ، كان السودان غزير السكان ، فتقلص عددهم الآن الى أقل من الثلث . (٣٤) فقد هاجر الناس الى دارفور والحبشة وأواسط البلاد ليعيشوا مع الزنوج الذين ، وان كانوا أكثر منهم تخلفا الا أنهم قطعا أكثر انسانية وأرق شعورا من الأتراك . واستوطنوا هناك فى مساكن منفصلة عن الزنوج ، ولكن فى انسجام تام معهم ، بعيدا عن الأتراك الذين

دفعوهم دفعا الى الهروب من جحيم السلب والنهب والبطش . لقد عمت البلاد عاصفة من الخوف والذعر هذه الايام فاصبح ميسورا لأى انسان أبيض مهما كانت درجته ، أو حتى خادم لرجل أبيض ، ان يرتكب من الآثـــام والجرائم ما شاء ضد الاهالى دون أن تصدر منهم ادنى مقاومـة .

وما أكثر ما زار الزعماء السودانيون القاهرة ليبثوا شكاواهم لجناب الوالى لما ارتكبه عملاؤه من فظائع فى البلاد . ولكن يشاء سوء حظهم أن يكون من يحيطون بالوالى كلهم مرتشين أحكم حكام السودان قبضتهم عليهم . لذلـك فانهم اما يحجبون هذه الشكاوى عن محمد على باشا مرة واحـــدة ، أو ينقلونها مخففـة فى افضل الاحوال فلا يفعل الباشا بشأنها شيئا . ويلوذ الزعماء بالصمت ، ويصيبهم الاحباط ، ولا يتجرأون على معاودة الشكوى فى القاهرة خوفا من بطش الحكام لدى عودتهم الى السودان ، فله عيـون مبثوثـة فى المحاكم المصرية .

ان من يتخذون عملا فى جهاز الحكومة جنس من البشر عرفوا بالمكر والغدر ، الا وهم الاقباط.(٣٥) وقد ارتقى كل هؤلاء البهوات والمديرون دست الحكم عن طريق نفاق أسيادهم من الرؤساء ، لكنهم غير جديرين بالمسؤولية . وعلى النقيض من ذلك تماما ، فان الاقباط قد دربوا منذ الصغر على اساليب الكتابة والدهاء ، الامر الذى جعل الحكام قاطبة ، من أكبرهم الى اصغرهم يعتمدون على الكتبة من الاقباط . والاقباط بدورهم يجيدون استخدام ثقـة الحكام فيهـم لمصلحتهم الخاصة ، تساعدهم على ذلك معرفتهم بنقـاط الضعف فى الحكام . اضف الى ذلك ان اللغة العربية لغة ذات مفـردات كثيرة وتتسم بالغموض لان النهاية المحددة لصيغة من صيغ الافعال فيها قـد تغير المعنى تماما ، ويستفيد الاقباط من هذا الغموض فى تحقيق ما يناسب اغراضهم سلبا أو ايجابـا .

ويقصد الناس من ذوى المعاملات التجارية مع الديوان رئيس الكتبـة(٣٦) ويتفقون معه على مبلغ يدفعونه له شخصيا ، والا فان أى شخص لا يملك هذا

السبيل لن يجد اسمه ضمن القائمة . ويتميز هؤلاء القوم بقدر كبير من التضامن والتآزر في سبيل تحقيق مكاسبهم . فاذا تجرأ شخص بالدخول مكتب رئيس الكتبة ، وتحدث الى من تعرف عليه من مساعديه ، فان مساعده هذا يذهب أولا الى رئيسه ويستشيره قبل عقد الصفقة . ويجب في هذه الحالة ان يضاعف الرجل العمولة ، لان الوسيط ايضا يريد نصيبه . فالاقباط ، اذن لا يعجزون عن فعل أى شىء يحسن لهم تحت ظلة الحصانة لان معظم الحكام يجهلون القراءة والكتابة . ويبلغ الكسل والخمول ببعضهم حد الاستماع الى كاتبه وهو يقرأ وثيقة قبل ان تختم ، فيضيف الكاتب في بعض الاحيان اشياء لا وجود لها في الوثيقة . وبمجرد انتهاء الكاتب من القراءة يختمها الحاكم فورا أو يسلمها للكاتب نفسه ليختمها.

وهنالك حيلة أخرى من حيل الاقباط هى تكديس الاوراق امام الحاكم : أوراق تضم الردود والاوامر والطلبات والحسابات التى .... تكدس كل هذه الاوراق امامه دفعة واحدة ليقرأها أو ليستمع الى الكاتب وهو يقرؤها ثم يقوم بختمها . ويصاب الحاكم بالارهاق والسأم من مجرد منظر هذا الكم الهائل من الورق ، فيوكل المهمة الى الكاتب فورا . وينهمك الكاتب فى ختمه جالسا القرفصاء على الارض امام الحاكم ، ولا ينتهى من عملية الختم الا بعد مضى ساعة أو أكثر . والغرض من هذه العملية واضح حيث ان الكاتب يستطيع مساعدة من يشاء من اصحاب هذه الطلبات دون خوف أو وجل ، بل أن بمقدوره أن يختم وثيقة كتبها بنفسه . هذا بالطبع علاوة على أن للكتبة نصيب فى عائدات الحكومة . ولا يفقه الحاكم شيئا فى تعقيدات السجلات ، ولذلك يعتمد كليا على رئيس الكتبة - ويسمونه "المباشر"[(٧)] أى الذى يوجه الحاكم كما يدل الاسم الى طرق وأساليب الربح - فهو اذن يتحكم فى السجلات كيفما شاء .

يعمل الكتبة سكرتيرين ومستشارين واداريين ومشرعين ومحاسبين ، ويخشاهم الناس أكثر من الحكام أنفسهم لما لهم من قدرة على البطش والانتقام. فكم من أبرياء سجنوا ، وكم منهم ظل يوسف فى اغلاله حتى اضطر الى شراء

حريته بمبالغ طائلة . بل أن هؤلاء الأقباط ينهبون ممتلكات الأهالى جهارا نهارا ، واحيانا يحكمون على بعضهم بالشنق حتى الموت اذا ثبت انهم قد اخفوا عنهم جانبا من ممتلكاتهم .

(٣٨)

كان رئيس الكتبة فى كردفان يدعى هاريبون الا أن الناس قد اعتادوا على مخاطبته هاريبون بيك ، ثم بعد سنوات هاريبون باشا . ولقد بطش هاريبون هذا بسكان تلك المنطقة حتى فروا الى دارفور وغيرها . ورغم ذلك لم يتدخل الحاكم لمصلحة الناس لأنه كان شريكا لهذا الظالم فى جميع عائدات مفاسده . ومما يحكى عنه انه عندما يسمع بشخص غنى ، كان يكتب له طالبا منه قرضا من المال ، فيستجيب لطلبه ذلك الثرى وأنفه راغم . ثم لا يفكر هاريبون فى رد الدين ولا يطمع صاحبه فى استرداده فينتهى الأمر عند هذا الحد . وحين يلمح رقيقا وسيطا ، ذكرا كان أو أنثى ، أو حصانا جميلا ، أو أى شىء من هذا القبيل يستولى عليه هاريبون دون تردد . وجأر الناس بالشكوى وتذمروا من تصرفاته دون أن يحرك ذلك كله ساكنا فى الحاكم ، وسارت الأمور على حالها كما كانت فى معظم مديريات السودان .

فى عهد ميكلى باشا ، اغتصب مدير سنار ابنة أحد الكشاف وكانت عذراء . وقد داهمه الابوان متلبسا بالجريمة وذهبا الى الحكمدار ميكلى طلبا للعدالة . هل يمكن لأحد أن يتصور ماذا كانت نتيجة الشكوى ؟ لقد أودع الكاشف وزوجته غياهب السجن . أما الفتاة فقد عاملوها معاملة البغايا ، وهددوا بالقائها فى النيل . ولم يخرجوا جميعا من هذا المأزق الا بعد مجهودات مضنية وهدايا ثمينة أرسلوها لميكلى فأطلق سراحهم .

١ • " فكي " كلمة دارجة مستمدة من اللغة الفصحى " فقيه " (متبحر في علوم الشريعة) •

٢ • احمد الريح بن يوسف ابوشرا ، شيخ الدراويش الذين يدعون الانتساب الى بيت الرسول • قاد افراد قبيلته عام ١٨٢٦ ، جنوبا الى مجاهل الحدالية ، هربا من جباة الضرائب المصريين ، لكنه عاد بهم الى اراضيهم حول ابية وابو حراز ومدني بعد ان تم العفو عنه عام ١٨٣٠) • وقد دونت عودتهم تلك في (تاريخ ملوك السودان ، ص ٦٩) •

٣ • ضريح والده الشريف يوسف ابوشرا في ابو حراز تلجأ اليه النساء طلبا للانجاب •

٤ • هوية هذا الحاكم المصلح غير مؤكدة • وقد ظهر اسمه حمزة باشا في سطور من رواية مجهولة بالفرنسية بين اوراق بارنتز • وجاء في مصادر اخرى انه يدعى محمد الامين باشا • ووجه خطاب من مجلس الوزراء مدير مكتب الشؤون الحربية في القاهرة بان يجرد حمزة بك من نياشينه ووضعه في الاستيداع بنصف المرتب لرفضه امر النقل الى السودان بحجة اعتلال صحته (وثائق عابدين ، المحفظة السنية ، المكتب التركي ، كتاب المراسلات ٢٤٤ ، رقم ١٧٤٥ ، ٥ نوفمبر ١٨٤٢) • وبعد هذا العقاب الصارم يرجح ان يكون الموظف قد ندم على فعلته وذهب الى السودان •

٥ • هذه العادة التي تعرف بالطهارة الفرعونية لازالت تمارس في اوساط معظم السودانيين مع انها لا تلقى التأييد من بعض الاقليات باعتبارها اثما اجتماعيا يتنافى مع احكام الدين الاسلامي • وفي اعقاب فتوى من الشيخ احمد الطاهر مفتي السودان عام ١٩٤٦ ، ومذكرة اصدرتهما لجنة منبثقة من الخدمات الطبية السودانية ، اقر المجلس الاستشاري لشمال السودان منع الطهارة الفرعونية • وتضمن كل من قانوني الاجراءات

الجنائية والعقوبات احكاما ضد من يمارسون هذه العادة ، رغم الاعتراف باستحالة القضاء عليها بقوة القانون .

٦ . لا أثر الآن للثكنات ولا للمستشفى فى موقعها بالقرب من الجامع العدوى ، فى المنطقة الواقعة بين حى المدنيين والمدينة الحديثة ، ولا يزال هنالك منفذ على الشارع الصخرى يعرف حتى اليوم بحمام الريفى .

٧ . محمد مدنى دشين (توفى ١٦٨٠) ، الولى الذى يعتبر عميد عائلة المدنيين والذى اسس نواة القرية التى نمت حول ضريحه ، فاصبحت الآن عاصمة للاقليم يسكنها ٠٠٠و٥٤ نسمة . ونجد جانبا من سيرته فى (الطبقات ود ضيف الله ، ابراهيم صديق ، القاهرة ، ١٩٣٠ ، ص ١٥٥ - ٥٨) .

٨ . خالد باشا خسرو ـ حاكم عام السودان (١٨٤٥ - ٥٠) ، عرف بالسطحية والبلاهة . وقد كان لهجة خلف الذهب فى السودان باصر الوالى مصدرا لسخرية شخص مجهول عثرت اجزاء من مخطوطة له بالفرنسية مع بحث اوراق باركنز فى وثائق الجمعية الجغرافية الملكية بلندن . وترجمت المخطوطة الى اللغة الانجليزية تحت عنوان (جانب من مخطوطة لم تنشر حول احداث السودان ، ١٨٤٢ - ١٨٤٨ ، السودان فى رسائل ومدونات ، المجلد ٣٦ ، ١٩٥٥ ، ص ١ - ١١) .

٩ . كان يدير المصنع فى الكاملين الماني يدعى بربر . وكان من منتجاته ايضا صابون اوربى الشكل . وقد أوكل امر الاشراف على المشروع الذى اقتصر على زراعة الحبوب والنيلة علاوة على المصنع نفسه الى نور الدين افندى نيابة عن الحكومة .

١٠ . نوع من الشجر تؤكل ثماره .

١١ . سرير خشبى ذو هيكل خشبى منسوج بالحبال والجلود .

١٢ • كان الشيخ مدنى شمبول زعيما لقبيلة صغيرة تقيم حول المسلمية تسمى الشنابلة ، ويعتقد انها فى الاصل من المداربة ، وهم قوم كانوا فى حضرموت لكنهم استقروا فى سواكن منذ فترة طويلة . وشنابلة المسلمية يختلفون من شنابلة شرق كردفان الرحل ، حيث يقال انهم من كمالاب الكواهلة . ولم يعثر ماك مايكل فى المسلمية الا على علاقات قبلية خاصة مع المداربة فى تلال البحر الاحمر (History of the Arabs in the Sudan, i, P. 266 n.)
ويؤكد كاتب اليوميات فى صفحة ١٦٨ على أصلهم الحضرمى . وقد أبرم شيخ شمبول اتفاقية سلام مع الحكومة عام ١٨٢٤ (تاريخ ملوك السودان ، ص ٢٦) .

١٣ • قول اقاشى ، وكانت تنقسم فى ذلك الوقت الى نوعين : صاغ قول اقاشى (وتعنى حرفيا ضابط الجناح الايمن ، وتقابل "ادجودنت" النابليونى) ، وصول قول اقاشى (وتعنى ضابط الجناح الايسر ، وتطابق الرتبة الفرنسية المعاصرة "ادجودنت - ميجور") .

١٤ • كان الرقيق يذهب الى القسطنطينية ولكن باعداد قليلة ومتناقصة نسبيا .

١٥ • ربما كان امتناع هؤلاء الناس عن دفن موتى الرقيق يعزى الى الكسل ، وليس مراعاة لاحكام الاسلام التى تنص على وجوب دفن الموتى أيا كانوا .

١٦ • كتب الرحالة الامريكى بيارد تيلر الذى كان بالخرطوم فى شتاء ١٨٥١ - ٥٢ ، ان الاوربيين المقيمين فى السودان صاروا يعاملون الرقيق فى وحشية مما دعا الحكومة الى اصدار قوانين تمنع الفرنجة من ضرب عبيدهم ، فأصبحوا ملزمين بتقديمهم الى القضاء ان اخطأوا (A journey to Central Africa, New York, 1864, P. 300)

١٧ • أورد ى • كومبس فى (Voyage en Egypte, 1846, ii PP. 38 - 9) رواية مطابقة تقريبا الا ان بطلها تركى .

١٨ ـ ادمون لوفيفر (١٧١٠ ـ ١٨٣٨) خريج معهد ايكول الذى حضـر الى السودان ضمن حاشية محمد على باشا .

١٩ ـ حاكم كردفان فى الفترة ١٨٣٣ ـ ٣٧ .

٢٠ ـ عثر أ ـ ت جولرويد الذى كان بالابيض فى ابريل ١٨٣٧ ، على ترجمة لهذه القصة وارسلها الى سير جون باورنج الذى ضمنها فى كتابـه (Report on Egypt and Candia, 1840, P. 210) . وقد علـم جولرويد ان من بين الشاطرات الاولى لمحمد بك الدوابلة ، المسدى خلفه مصادفى بك فى حكم كردفان ، دفن الامر بجمع وحرق بتاييـنا الجثث الآدمية الملتـاة حول المدينـة ، ثم الاشارة الى دفن الحبيـد مثل المسلمين مستقبلا (Egypt and Mohamed Aly Pacha, 1838, Jour. Roy. Geog. Soc. IX, 1839, P. 177) .

٢١ ـ العائلة المالكة لعرب الشكرية وكان يمثلهم احمد بك عوض الكريم ابوسن (متوفى ١٨٧٠) واخوه على . ظهر اسم احمد عدة مرات فى هـذه الرواية ، وقد حظى بتقدير كبير من الحكومة المصرية حتى عين حاكما للخرطوم فى الفترة ١٨٦٠ ـ ٧٠ . وعين على ناظرا للشكرية عـام ١٨٧٢ حتى وفاته عام ١٨٧٤ . ولقد ساهم الاخوان بنشاط فـى صيد الرقيق فى الفترة التى جرت فيها احداث هذه الروايـة .

٢٢ ـ هو الشيخ احمد ابوجن من رفاعة الشـرق .

٢٣ ـ وفى رواية اخرى بنا بتّـا .

٢٤ ـ ترجمة للمثل التركى " Su testisi su yolunda Kırılır "

٢٥ ـ الخيرية كانت عملة غير محببة برغم اسمها الذى يدل على التفـاؤل . وقد كانت قيمتها الاسمية تعادل تسعة قروش مصرية ، وتتكون من خليط من ذهب ممتاز وبعض المعادن الاخرى بنسبة ٣ : ٨ قيراط (J. Bowring, Report on Egypt and Candia, 1840, P. 82).
وفى عام ١٨٤٢ قومت الخيرية رسميا بثمانية قروش ، أى اثنين وثلاثين

(C. Lambert, Tarif des monnaies en Egypte, dated 29 March 1842, بارز in the Bibliotheque de l' Arsenal, Paris, Fonds Enfantin, No.7748)

٢٦ . المصريون هم أول من استحدثوا هذا الاسم ، لكنه اختفى من الاستعمال بعد جلائهم من البلاد .

٢٧ . لم يكن هذا التسلسل الرتبي الصارم متبعا دائما . فشيخ المشايخ في قبيلة كبيرة مستقرة كالجعليين مثلا ، قد يكون مسؤولا عن أضعاف مضاعفة من القرى للرقم (١) . وفي خطاب موجه لديوان الخديوي في القاهرة يقول الحكمدار على خورشيد باشا : "لانني مريض لا اقدر على السفر ، فقد دعيت لاجتماع بشم مقام (كشاف) الاقسام (قاشقيات) ، وشيخ المشايخ ، وشيوخ الخطوط (والخط مجموعة من قرى قليلة داخل نطاق القسم) . وبعد توزيع الضرائب الاقليمية عليهم ، صرفتهم الى مراكزهم ." (وثائق عابدين ، الملف ٢٦٢ ، ملف السودان) (بدون رقم) ، ٢٢ صفر ١٢٥٣هـ (٢٨ مايو ١٨٣٧م) . وقد تجاهل الراوي شيخ المشايخ مع شيوخ الخط الاقل أهمية .

٢٨ . المخمسة مساحة تقدر بنحو خمسة وثلث افدنة ، وهو قياس تربيعي لم "تخترعه" الحكومة المصرية ، وانما هي وحدة ابتدعها الاهالي لقياس الاراضي المطرية . وقد كتبها الراوي هكذا "Ghindaa" في محاولة شجاعة "لاللبننة" النطق السوداني للحرف العربي "جيم" .

٢٩ . محاسن ، [illegible]

٣٠ . اشتهرت قبائل الكبابيش بتربية الابل ، من اهمها النباهيش . ويبدو أن الراوي يقصد القبائل الرئيسية التي تربي الابل داخل نطاق جباية الضرائب الحكومية . وقبيلة أبو سن هم مكونة البادية في حين أن الشكرية في كردفان ولو انهم لم يشتهروا بالابل كثيرا ، الا انهم

فرع من قبائل البقارة الرحل الذين يسرحون بين الاضية والنحم الذهبية من جبال النوبة .

٣١ . الجزء الذى وضع بين قوسين كتب بخط مختلف .

٣٢ . كانت براءة التعيين فى الاصل لدى مجلس نائب الملك (المعية السنية) الا انها فى الواقع كانت فى يد الوالى .

٣٣ . احمد باشا منيكلى ، الحكمدار (١٨٤٣ – ٤٥) ، خلف شهرة واسعة فى القسوة والابتزاز . وقد اكتسب سمعة خارج السودان كقائد من قواد الفرسان التابعين فى معركة نزيبا ضد جيش السلطان العثمانى عام ١٨٣٢ ، وكقائد محنك ايضا اثناء انسحاب الجيش المصرى من سوريا فى يناير ١٨٤١ . وكان على رأس قسم من الفرقة العسكرية التى شاركت فى حرب القرم عام ١٨٥٣ – ٥٥ .

٣٤ . أشيع حدوث تقلص فى سكان السودان فى اوساط الدوائر البريطانية المصرية ابان المهدية وبعدها . وليست هنالك ثمة معلومات فى كلتا الحالتين تؤيد مثل هذا القول .

٣٥ . لعب الاقباط دورا هاما فى الادارة المصرية فى السودان ، وكذلك خلال السنوات الاولى للحكم الثنائى . وفى أواخر الحكم المصرى ، انشأت الجالية القبطية الارثوذكسية كنيسة على موقع الكاتدرائية القبطية الحالية فى الخرطوم . وقد ساعدت سياسة محمد على فى اعادة تنظيم الادارة فى مصر على ازدياد الوظائف المالية والحسابية فى دواوين الحكومة بشكل كبير . وكان الاقباط اجدر الناس بشغل هذه الوظائف بما عرفوا من خبرة فى التجارة والائتمان . وقد عرضهم هذا الدور الذى ظلوا يلعبونه فى الحكم الى كثير من النقد الجائر من مواطنين كانوا يجهلون تاريخهم وتقاليدهم .

٣٦ . يقصد بها فى هذه الحالة ، اى مرفق من مرافق الحكومة .

٢٧ . تعنى في الاصل من يشرع في عملية تجارية أو يهيئ الجو لها ، فهو بالتالى تعنى العميل . وكان يطلق على الكتبة من الاقباط ، بصفة عامة ، لقب المعلم ، اى المدرس ، وهو لقب كان يطلق ايضا على المحاسبين رؤساء العمال من المحترفين .

٢٨ . جاء في مذكرات يوسف ميخائيل (نسخة غير مطبوعة من المراجعة حول مذكرات يوسف ميخائيل للدكتور صالح محمد نور ، بجامعة الخرطوم) ان معلما يدعى ماريسون كان يرأس اكثر من عشرين كاتبا اوفدوا من القاهرة للعمل في السودان عام ١٨٢١ . ويعتقد الدكتور نور ان الاسم تحريف لمساريون .

الفصل الثالث



نظام الحكم فى عهد محو بك وخورشيد باشا :-

كانت بلاد السودان غنية بالموارد الطبيعية التى حال سوء الادارة دون استغلالها . فمنذ أيام الفتح وحتى وصول محو بك عاشت البلاد فى حالة سيئة من الفوضى ، اما بفضل الغزاة الذين أرادوا تثبيت دعائم حكمهم بالارهاب ، أو بمحاولات المواطنين فى جهادهم المستمر من أجل الانعتاق والتحرر . وقد عم السلام والطمأنينة أثناء فترة حكم محو بك ، وافتقده الناس كثيرا عندما غادر البلاد .

وخلف محو بك فى الحكم خورشيد أغا (باشا فيما بعد) . ولم يكن خورشيد اقل عدلا وكفاءة من سلفه حيث أقام العدل والنظام فى مديريته . ومنذ الفتح كانت بلاد السودان تعرف بالمديرية ، ثم بعدها ، بالتحديد فى عام ١٢٥٣هـ (١٨٣٧ - ٣٨) استبدل الاسم بالحكمدارية ، واطلق على الحاكم العام لقب الحكمدار . (١) وقسمت البلاد الى مديريات ومأموريات ، (٢) فأصبحت كردفان وبربر وسنار ودنقلا مأموريات . (٣) وقد ضمت دنقلا الى السودان عام ١٢٥١هـ (١٨٢٥) ، فأصبحت تابعة رسميا للقاهرة ، بينما ظلت سنار وبقية المأموريات تحكم مباشرة بواسطة الحاكم العام .

عمل خورشيد جاهدا فى تقدير الضرائب وتقنين الرسوم الجمركية ، وكفل الحماية اللازمة للتجارة بتأمين الطرق . وركز كل شؤون الحكم والادارة والتجارة فى الخرطوم حتى صارت مدينة . وقام بالاشراف على قطع الاخشاب وتوفير العمال واللوازم لتشجيع الناس على عملية بناء المنازل . فى نفس الوقت منح خورشيد الامتيازات لمن يرغبون الهجرة الى الخرطوم . لذلك فقد برزت الخرطوم ، عاصمة البلاد الآن ، الى الوجود خلال سنوات قليلة ، وهى وحدها التى تستحق كلمة مدينة من جملة المناطق الاخرى الآهلة

بالسكان . وبنى خورشيد جامعا كبيرا بالطوب الاحمر (٤) ، وترسانة لبناء المراكب المستخدمة فى المواصلات عبر النيلين . وقد ركزت هذه الحركة والنشاط التجارة فى الخرطوم ، واضعفت بالتالى مركز المسلمية فى هذا المجال ، كما نوهت سابقا .

واتصفت سياسة الحاكم العام بالعطف والاريحية مما كان له أكبر الاثر على انتعاش الاحوال فى السودان ، فقد عارض فى قوة سياسة تحويل عائدات السودان لحساب الخزينة فى القاهرة . وكتب مرة لجناب الباشا محمد على يؤكد أن الضرائب ينبغى لها ان تنفق فيما يعود على السودان بالنفع ، ولا مجال للتفريط فى بارا واحدة تذهب الى القاهرة . كذلك احتج خورشيد عندما طلبت الادارة المصرية فى القاهرة الذهب والصمغ والسنامكة والجلود الخام وسن الفيل والماشية والابل وغيرها (وجميعها سلع تحتكرها الحكومة) (٥) ، ورفض ارسالها ما لم تسدد قيمتها نقدا للتجار لانه لا يستطيع اعتبارها ضرائب عليهم .

وتحقق لخورشيد ما أراد فحولت المبالغ لشراء المنتجات ، فحدد سعر البيع لكل صنف وأمر المزارعين ببيعها للحكومة حيث لم يكن فى وسعهم تصديرها الى اسواق القاهرة لانها كانت حكرا للحكومة فى السودان . وأرضت الارباح القليلة طموح المنتجين ، فانتعشت الزراعة وتوسعت . ومن نتائج سياسات خورشيد الانسانية هذه استحداث الكمبيالات فى المعاملات بدلا من النقود دون أن يصحب ذلك أى خصم ، فقد وضعت ضمانات لكل من يحمل كمبيالة من موظفى الحكومة من المدنيين والعسكريين . ولتسهيل عملية التسليف أمر خورشيد بقبول الكمبيالات فى الخزينة بقيمتها الاسمية عند دفع الضرائب أو تسديد الديون . وبعد رسوخ هذه التدابير أصبحت التجارة فى مجملها ترتكز على العمليات الائتمانية لمصلحة بعض صغار التجار الذين استفادوا فائدة عظيمة .

كذلك يرجع الفضل لخورشيد فى التشجيع على عملية الزراعة . فقد أخذ

حديقة ضخمة حول القصر ، وحدائق أخرى خارج المدينة حيث كانت تروى بالسواقى كما فى مصر . أما قبل ظهور السواقى فقد كان المحصول يحصد مرة واحدة فى العام لاعتماد المزارعين على فصل الخريف ، لكنهم الآن يزرعون طول فصول السنة . وخورشيد هو أول من استجلب النباتات الغريبة واشجار الفواكه والخضروات وغيرها . كذلك احضر الضأن والأغنام ذوات الاصواف الكثيفة من مصر ووزعها على المزارعين ، الا أن حرارة الطقس تسببت فى انحطاط تلك السلالات حتى صارت أقل فائدة من السلالات المحلية نفسها (٦) .

وسمح للمزارعين الذين يعجزون عن دفع الضريبة بتأجيلها الى العام التالى . وتجلت سماحة خورشيد فى زمن المجاعات على وجه الخصوص ، وكانت أيام حكمه الاخير دليلا على ما ذهبت اليه بحق . فقد اجتاحت البلاد مجاعة ذات عام ، فصار المزارعون زرافات الى المدينة ، وفاضت أرواح بعضهم جوعا فى الطريق . أصبح سعر أردب الذرة مائتى قرشا بعد أن كان ستة قروش فقط (٧) ، وباع سكان العطيش أطفالهم حتى لا تبيدهم المجاعة . فى هذا الوقت ، أصدر خورشيد أوامره بان تفتح مخازن الذرة الحكومية ، فوزعت الذرة على الناس بواقع ربع واحد للفرد يوميا (٨) ، وأرسلت قطعان البهائم الى القضارف والعطيش . وفى الخرطوم فتحت أبواب مخازن الحكومة لتوزيع الذرة كل مساء . وفجأة نفدت جميع الامدادات ، فهرعت الجموع الى القصر وهى تصرخ باعلا صوتها من فرط الجوع . وخرج عليهم خورشيد وطمأنهم على قرب وصول مخازن كاملة عن طريق المراكب فى اليوم التالى . ولكن طال الانتظار ولم تصل الامدادات . ومع تزايد صراخ الجوعى وتذمرهم اضطر خورشيد الى توزيع العلف المخصص لخيوله على الناس حتى يهدأوا الى حين وصول المراكب .

ولقد اشتهرت الفترة من ١٢٥١هـ الى ١٢٥٣هـ بانتشار المجاعات ، وشهد عام ١٢٥٢هـ وباء الكوليرا فى البلاد ، فاقترن المرض مع الجوع وقضيا على اعداد كبيرة من السكان .

فى بداية حكم خورشيد امتدت حدود اقاليمه من أبى حمد الى الروصيرص على النيل الازرق والى ود الشلعى على النيل الابيض ، وغربا الى القضارف والعطيش . أما دنقلا فقد كانت تحكم مباشرة من القاهرة ، وكان يحكم كردفان رستم بك قائد الفرقة الاولى الذى خلفه عثمان بك بعد وفاته على قيادة الفرقة الى أن جاءت الاوامر من القاهرة ليتحرك الى كردفان ليباشر حكم الاقليم . ومنذ ذلك التاريخ استمر قائد الفرقة الاولى يحكم كردفان حتى نهاية عام ١٢٥٠هـ (١٨٤٣) . على أن استقلال كردفان عن الخرطوم لم يدم طويلا ، فقد ظل خورشيد يلتمس من محمد على باشا ويلح عليه حتى استجاب لرغبته فى ضم الاقليم الى بقية الاقاليم التى كان يحكمها ، ثم تمكن بعد ذلك من ضم دنقلا كما ذكرت .

صدرت فى القاهرة أوامر تقضى بأن يتم قياس الاراضى فى السودان بالفدان كما فى مصر . ولم يكن تطبيق مثل هذه الاوامر ميسورا لاسباب مختلفة : اولها يتعلق بشكل وموقع المساحات المزروعة حيث أن كل شبر من الاراضى الصالحة للزراعة كان يتبع لمالك معين ، رغم انه قد لا يزرع المساحة كلها . ومن ناحية أخرى نجد أن الرقع المزروعة عبارة عن شرائط طويلة على ضفة النيل ، تبلغ مساحة ستة أو سبعة شرائط منها فدانا واحدا . أما المناطق المرتفعة التى تجاور هذه الرقع فتغطيها الغابات ، فيضطر المزارعون الى قطع الاشجار لاقامة السواقى فاتها . والسبب الثانى هو أن فكرة القياس بالافدنة نفسها قد استعصت على فهم الناس ، فما عرفوا غير الجدعة منذ بداية عهدهم بالزراعة . وتذهب مجموعات من المزارعين تتألف من خمسة أو ستة فى موسم الامطار الى داخل البلاد حيث الامطار غزيرة بحثا عن اراضى غير مملوكة ، فيزرعونها ويقتسمون المحصول بينهم بالتساوى . وبعدها تهجر هذه الاراضى ، وربما لا تزرع مرة ثانية على الاطلاق . ولا يعنى ذلك أن هذه المساحات من الارض غير مملوكة حقيقة فهى لها من يملكها فى الغالب الاعم ، ولكن السؤال يبقى : كيف يحتفظ المزارعون بهذه الاراضى التى لا تزرع الا فى وجود الامطار ابعدها عن النيل ؟ بل ما فائدة الزراعة نفسها والمحصول قد لا يشكل فائدة

تذكر لقلة الامطار ؟ اضف الى ذلك كله المنازعات التى تنشب كل عام بين سكان القرى على ملكية الاراضى . وتصل هذه الخلافات احيانا حد اشهار السلاح بين الاهالى حتى يتدخل الكاشف ويضع حدا للمعركة بالقوة ، وحتى تدخل الكاشف لا يعنى حسم المسألة فى جميع الاحوال .

وقد حدث فى عهد خورشيد أن سكان قرية ود العباس (٩) تجاه سنار ، اختلفوا مع سكان قرية أخرى . وعند تدخل الكاشف لفض النزاع ، خرّ صريعا بسهم طائش . وجاء الاتراك ودمروا القريتين . ولا يكاد يمر عام دون حدوث شئ كهذا ، خصوصا بين المزارعين من افراد قبيلة العطاوين (١٠) . لذلك : فالمحاكم منهمكة فى سلسلة من المحاكمات المستمرة لمثل هذه القضايا : فالممتلكات يتداولها عدة ملاك ، وتغيير حاكم بآخر نذير باستئناف المؤامرات من جديد .

مما تقدم يتضح أن القياس بالافدنة لم تكن تجربة ناجحة فاعيدت طريقة الجدعة مرة أخرى لامكانية تطبيقها على جميع الحالات دونما حاجة الى البحث عن المالك الحقيقى لهذه القطعة أو تلك . وقد قدر خورشيد الجدعة بمبلغ واحد وعشرين قرشا ، ثم رفع أحمد باشا القيمة الى ثلاثين قرشا ونصف قرش .

بالنظر الى حجم الجيش فى عهد خورشيد ، والذى انخفض الى اقل من الثلث تحت حكم أحمد باشا (ولا يزال كذلك حتى الآن) ، يبدو أن الضرائب كانت باهظة أثناء فترة حكم خورشيد . ولكن يجب أن نأخذ فى الاعتبار ان ارسال الاموال من خزينة القاهرة لشراء السلع المحتكرة للحكومة قد اوقف تماما فى عهد أحمد باشا . ومع ذلك ظلت هذه السلع تتدفق الى اسواق مصر ، وبكميات اكبر من ذى قبل ، لانها تؤخذ الآن من المزارعين فى شكل ضرائب ، علاوة على الجدعة نفسها .

ولم يمض وقت طويل حتى قرر احمد باشا تحديد سعر الصمغ بثمانية

بارات نقط للرطل . فاستاء المزارعون وامتنعوا عن جمعه لان ذلك يعني ان المحصول لن يغطي تكاليف معيشتهم بعد خصم الضريبة منه كل عام ، علما بأن المحصول يسلم للحكومة كاملا ، كما ذكرت في مكان آخر . ليس ذلك فحسب ولكنهم كانوا ملزمين بمد الجيش بعدد كبير من الرقيق . وكان الوضع جد مختلف على عهد خورشيد لأن الناس كانوا يدفعون واحدا وعشرين قرشا عن الجدعة ، ويمدون الجيش بمستلزمات الاعاشة ، والمستخدمين المدنيين والعسكريين بجانب من مرتباتهم ، ولكنهم مع ذلك كله كانوا يربحون مما يبيعون للحكومة من سلع .

القاهرة تطلب مساهمة خاصة :-

فى عام ١٢٥٧ هـ (١٨٤١ - ٤٢) طلبت الخزينة فى القاهرة من أحمد باشا ارسال عشرة الف اوقية من الذهب من خزينة الخرطوم . وكان ثمن الاوقية الواحدة آنذاك ثلاثمائة وخمسين قرشا . وقد فرض على كل فرد ، من أغناهم الى افقرهم نصيبا معينا حتى يتمكن من جمع هذه الكمية الضخمة ثم امر كل شيخ قرية ان يسلمه كمية معينة من الذهب ، كما كلف رؤساء المجموعات والجاليات التجارية وكانوا ثلاثة يمثلون الاتراك والمصريين والسودانيين ، بجمع نصيب محدد (١) . وساهم بالتبرع حتى صغار التجار وتجار القطاعى الذين لا تكاد تصل رؤوس اموالهم مائة قرشا ، مما أدى الى افلاسهم الكامل ، فقد ارتفع سعر الذهب نتيجة للطلب المتزايد الى سبعمائة قرشا للاوقية مع ان الخزينة ظلت تحاسبهم بالسعر الرسمى وهو ثلاثمائة وخمسون قرشا للاوقية . الا ان هذا الاجراء من الخزينة لم يكن مصدر قلق لاحمد باشا فقد ابتدع طريقة بارعة لسد العجز بان فرض غرامة على من يفشل فى تسليم حصته من الذهب قدرها سبعمائة قرشا ، وليس ثلاثمائة . وفى النهاية تم جمع كمية تفوق عشرة آلاف أوقية ، بل انها فى حقيقة الامر قد قدرت بحوالى ثلاثين الف اوقية جمعت من السكان المنتشرين فى جميع انحاء السودان رغم ارتفاع اسعار الذهب ، ووصل الامر حد اقتياد بعض الناس الى السجون لعجزهم عن شراء مساهمتهم .

البحث عن ذهب السودان :-

طلبت الحكومة المصرية معلومات عن الكمية الموجودة من الذهب فى فازوغلى توطئة لاقامة مصنع لاستخراجه . ورد خورشيد بان العائد لن يغطى تكاليف التعدين . ولم يثق محمد على فى تقارير خورشيد ، فطلب من الحكومة النمسوية خبيرا فى التعدين يقدم له تقريرا دقيقا عن امكانيات حقول الذهب فى فازوغلى وكردفان . واستجابة لهذا الطلب جاء راسيقر (Russegger) وآخرون (١٢) فى نهاية عام ١٨٣٦م (حوالى ١٢٥٢) . ثم غادروا القاهرة فى رمضان ١٢٥٢هـ (ديسمبر ١٨٣٦ - يناير ١٨٣٧) وحلوا بالخرطوم فى غرة محرم ١٢٥٣هـ (نهاية مارس أو بداية أبريل ١٨٣٧) .

وبعد بضعة أيام ، تزودوا بالتعليمات اللازمة من الحكمدار وتوجهوا الى كردفان (١٣) ، حيث قدموا أوراقهم الى مصطفى بك قائد الفرقة الاولى وحاكم الاقليم . وهناك مكثوا اياما ثم توجهوا الى الجبال ومعهم الدائم نفسه تحت حراسة كتيبة نظامية قوامها الف ومائتا رجلا وقوة أخرى من الفرسان غير النظاميين . وساروا فى اتجاه جبال تقلى ، ومنها عرجوا يسارا وهم يتابعون الجبال وسفوح السيول حتى وصلوا اطراف النيل الابيض . وكان يقع بينهم وبين النيل جبل اعتلوا قمته وتمتعوا بمنظر النهر المهيب . واخيرا قفلوا راجعين الى الابيض بعد غياب دام خمسة وثلاثين يوما لم يتمكنوا خلالها من اكتشاف منطقة تصلح لانشاء منجم عليها ، فاحتمال وجود ذهب يغطى تكاليف التعدين كان بعيدا (١٤) .

ثم ما لبث راسيقر ان عاد الى الخرطوم ، فصادف خبيرا فى المعادن يدعى بوريانى (Boreani) (١٥) كان محمد على قد عينه منذ فترة لينضم الى راسيقر فى التنقيب عن الذهب ومراقبة تصرفات راسيقر فى ذات الوقت (١٦) . وبعد ايام وصل مصطفى باى من كردفان مترقيا الى رتبة قائمقام ليعمل مديرا لشبه جزيرة سنار ، مع ان مقر اقامته كان فى الخرطوم .

ولم تتمكن القوات من القيام بمهمتها نظرا لهطول الأمطار ، فاضطر خبراء التنقيب الى البقاء فى الخرطوم حتى منتصف اكتوبر ١٨٣٧ . وتحركوا اخيرا مع حملتى بلك وكتيبتين من الجنود النظاميين ومجموعتين من الفرسان غير النظاميين ومدفع ميدان . توجهوا أولا الى جبال قازغلى ، ومنها الى جبل دول عبر جبل تماميل وجبل آخر لا أذكر اسمه . ولكنهم لم يكملوا مهمتهم لكثرة ما اعترض طريقتهم من تحرشات ولخوفهم من نفاد الامدادات، فعادوا الى الخرطوم من حيث أتوا ، ثم سافر الخبراء الى القاهرة بعد قليل .(١٧)

واعد راسيقر تقريرا رفعه الى الجناب العالى يفيد بان لاطائل من مناجم كردفان ، وان منطقة قازغلى غنية بالذهب . وأضاف بان شخصا لا يستعمل غير يديه فى الحفر يمكنه الحصول على ما قيمته أربعة دولارات من الذهب فى اليوم الواحد . ولكى يدعم حجته ، عرض عليه عينات من الصخور التى تحتوى على الذهب . واظهر محمد على لهفة الى المزيد من المعلومات عن الموضوع ، خصوصا من بوريانى الذى كان يحرص على مصالحه الخاصة أكثر من مصلحة سيده فى هذا الخصوص .

وأكد بوريانى بدوره وجود الذهب فى الجبال ومناطق السيول الا انه خالف راسيقر فى الكمية التى قدرها حيث قال ان شخصا واحدا لا يمكن له الحصول على ذهب يساوى أكثر من دولارين فى اليوم . ثم عرض قطعة من الصخر مشيرا الى شعيرات الذهب فيها ، واخرج قطعة صغيرة من الذهب فى حجم نصف المليدى مثالا لما تحتوى عليه كتلة الصخر من الذهب . بعدها جاء بوريانى بزجاجة بها حبات من الرمل مخلوطة بذرات دقيقة جدا من الذهب قال انه عثر عليها فى قاع مجرى السيول . وعند سماعه لهذه الانباء السارة ، كافأ الباشا العجوز راسيقر بسخاء ، واذن له بالعودة الى وطنه . ثم استدعى محمد على مصطفى بك من السودان لاستشارته فى الأمر ، ولكن مصطفى بك لم يزد شيئا على ما سمعه من المختصين . ومع ذلك أمره محمد على بالتوجه فورا الى كردفان لاعداد قوة لاصطياد خمسمائة رجل للعمل

في المنجم الذي تقرر انشاؤه هناك .

واحضر بوريانى تقريرا بامر من الباشا ضمنه اكبر عدد من الاشـــياء اللازمة في عملية التنقيب مثل معدات العلوم الفنية والكيميائية والكرونومترات وما اليها . ولم يكن محمد على يعرف شيئا عن هذه المعدات ، فامـــر خير الدين بك (١٨) وهو قائد بحري متقاعد عين فيما بعد مديرا للمناجـــم ، ببذل اقصى المجهود في توفيرها بالسرعة المطلوبة . كذلك وفر الباشا القوى العاملة من العبيد ونجارين وميكانيكيين وغيرهم ، ثم توج ذلك كله بتكليف مهندس (١٩) فرنسي ابتناء مدينة جديدة تحمل اسمه . على ان حالة بناء هذه المدينة قد تقلصت فصارت مجرد مقر للحكومة . أما الاسم فقد اطلق على قرية صغيرة لم تحتفظ هي الاخرى باسم محمد على طويلا حيث عاد الناس الى اسمها القديم "كسيري" .

وقرر الباشا زيارة هذه المنطقة الغنية بالذهب ، واصدر اوامره بارسال جميع التلاميذ الذين لم يكونوا في مدارسهم في ذلك الحين (بلغ عددهم اكثر من مائة وخمسين صبيا) الى فازوغلي للعمل في بناء المنجـــم .

وقد حضر في تلك الفترة من فرنسا خبير يدعى ليفبر (Iefebvre)، عرف بالكفاءة في ميدان علم المعادن ، وبحث عنه محمد على حتى عثر عليه فاغراه بالذهاب الى فازوغلي بعقد ومرتب شهري قدره الفان وخمسمائة قرشا .

<u>اسلوب احمد باشا القاسي مع رجال الحسابات :-</u>

اضطر خورشيد الى مغادرة السودان لاعتلال صحته في الربع الاخـــير من عام ١٢٥٤هـ (يونيو / يوليو ١٨٣٨م) . وجاء بعده احمد باشا ابو ودان وهو يعلم انه سيصبح مقتدرا وكان ابو ودان فوق ذلك مسيطرا على العمال من قدر من سبقوه في حكم السودان في عهد محمد على .

وما ان تسلم مقاليد الحكم حتى استولى ابو ودان على جميع دفاتـــر

ضابطات الادارة ، واستدعى ضباط الفرقة الثامنة ، وقد كانت لهم دراية بمسك الدفاتر ، ثم زايد كل من ارتكب مخالفة مالية من رجال الادارة فاودعهم الحراسة . وما لبث ان انشأ مكتبا للمراجعة والفحص ، أو ما شابه ذلك على الاصح ، فقد كانت تصادر ممتلكات اى شخص يقبض عليه فى الحال ، سواء كانت فى منزله او خارجه . ولم تراع فى هذه المصادرات حتى حرمات النساء حيث انتزعت الحلى من اجسادهن ليضمها مع بقية الممتلكات فى مزاد علنى . وامتدت المصادرة الى العبيد ايضا فتم بيعهم مع اطفالهم وأودع ثمنهم الخزينة .

صحيح ان هؤلاء الموظفين قد اساؤا استعمال سلطاتهم ، الا ان ذلك لا ينفى ان المراجعة قد تمت دون ادنى مراعاة لاحكام القانون ، ووفقا للنزوات الشريرة لمن اشرفوا عليها . تعرض الناس الى التعذيب والضرب بالعصى الغليظة ، والحبس فى سجون تزكم رائحتها الانوف وتم تقييدهم بالسلاسل تحت دعوى انتزاع الاعتراف بثروات مخفية . وخيم على البلاد نوع من الوحشية والبربرية لاشباع اطماع رجل كان يتطلع الى منصب حكمدار السودان ، ولم يتورع فى سبيل ذلك من الوشاية لسيده بزملاء له غمروه بالعطف والصداقة .

وبادر احمد باشا بارسال اربعة الاف كيس الى محمد على باشا وهو يندد بسوء الادارة على عهد خورشيد باشا الذى وضع اموالا كان يفترض ارسالها الى الخزينة فى القاهرة نهبا تحت ايدى رجال الادارة الفاسدين . ومضى احمد باشا فى قوله انه ومنذ تسلمه مقاليد الامور ، قام بمعاقبة كل من اساء استعمال سلطاته من الموظفين ، وأكد ان السودان قد اصبح الآن فى وضع يسمح له بارسال مبلغ معلوم الى القاهرة كل عام . ثم ارسل احمد مرة اخرى ستة الاف كيس الى الباشا بعد مضى شهرين فقط ، امعانا فى كسب ثقته واقتنع محمد على فعلا بانه اكثر كفاءة من سلفه خورشيد فسارع بترقيته الى حكمدار . اما خورشيد فقد عين باشا على ادانا على أن يباشر عمله عند اكتمال شفائه .

رحلة محمد علي باشا الى الســودان :

في شهر جمادى الآخر ١٢٥٤هـ (اغسطس / سبتمبر ١٨٣٨) ، استعد الجميع للرحلة ، واصدر محمد علي باشا اوامره لبدء اقلاع المعطمة بالمراكب تحت امرة خير الدين بك . وعين بورياني رائــــدا بمرتب شهري قدره ثلاثة آلاف قرشا ، مع مؤن تناسب رتبته ، ووعد بترقيته الى بك مع اول بادرة لنجاح التجارب في فازوغلي ، وهذا ما لم يحـدث . [20] وهكذا انتظم الجميع في الرحلة ما عدا ايغنبر الذى ابقاه الباشا معه .

في نفس الوقت ارسلت ثلاث ذهبيـــات كبيرة عليها رجال مـــن الاسطول تحت قيادة ويدعى سليم قبودان [21] ومساعد رائد من الاسطــول ايضا يسمى احمد قبودان كان سويدى الاصل لكنه ارتد عن دينه وغيــير اسمه . [22] وكان الغرض من تعيين احمد قبودان هو الاهتمام بالجانب العلمي للحملة لان هدفها هو اكتشاف منابع النيل الابيض . وصحبهم في الحملــة ايضا طبيب بحري يدعى فيض الله قبودان ، [23] تلقى تعليمه في انجلــترا ، ولكن كل ما عاد به زملاء سبع سنوات هناك هو الاسراف في شرب الخمر .

وكان الطريق الى الخرطوم شاقا بسبب على المراكب تخطى جميع الشلالات ما بين اسوان وبربر ، ناهيك من تدبيرات محمد علي باشا الثلاث التى ارسلها مع الحملة لاستقباله الخاص في الخرطوم . وبعد اقلاع القافلة بقى الباشا في القاهرة لترتيب بعض امور الدولة فقد كان يستعد في ذلــك الحين لشن حرب على السلطان في سوريا . [24] وخلال شهري رجب وشعبان (اكتوبر ونوفمبر ١٨٣٨) كان الباشا يشق طريقه الى السودان يصحبــــه توسيتزا [25] ، القنصــل العام لروسيا ، ولامبرت (Lambert) [26] ، مهندس ورياضي فرنسي برتبة كولونيل ، وليفبو ، وقايتاني بك (Gaetani) [27] طبيبه الخاص ، ورستم بك ، ويصحبه بك وكاشفا سكرتير ، [28] ثم خسرو افندى ، [29] واستيفـــان افندى المترجمون ، [30] أما البقية فلفيــف كبير من الموظفين والخدم . واتجهت القافلة عن طريق دنقلا جنوبا ، وكان محمد علي يحمل معه خمسة آلاف كيسا .

تعلم احمد باشا انذارا بالاستعداد لمحاربة القوة والآلات لموقع المنجم في قازوغلى ، وضرب حامية القوة هناك ، فأمر مجموعات من الفرسان المتحركة الى ود مدنى . ثم شرع في ارسال المدافع والذخيرة والاستعدادات والرجال لنقلها الى ود مدنى . وحوالى نهاية شعبان (منتصف نوفمبر ١٨٢٨) ذهب احمد باشا بنفسه للوقوف على الاستعدادات والاسراع بها . واخطر قائد الكتيبة الخامسة المرابطة في الخرطوم للانضمام اليه بجنوده . غير أن ذلك الضابط حين علم بقدوم محمد على باشا الى الخرطوم بـدأ يتلكأ ويماطل في التحرك بمختلف الاسباب لتمضية الوقت حتى وصول الباشا لينال منه مكافأة تنبيهه ذلك . ولكن الاقدار كانت ترتب له امرا آخر عقابا على تصرفه الماكر .

كان احمد باشا قد وضع في السجن ضابطا برتبة رائد في الكتيبة نفسها يدعى على اغا لاتهامات باطلة ساقها اليه قائد الكتيبة هذا، فقد اتهمه بتحويل مؤن خاصة بجنود الكتيبة لمنفعته ، والتزوير في تقدير المرتبات واخذ الرشوة من الجنود . وتطلب في ادانته كلها باستدعاء شهود زور ضده ومنع على اغا من الدفاع عن نفسه . والسر في ذلك كله هو ان قائد الكتيبة حسن افندي المشهور بـ "زوني" كان قريبا (٣٦) لأحمد باشا وصديقا له ، فضلا عن عداوة قديمة جمعت بين قائد الكتيبة وعلى اغا منذ ان كانا مطوعين سويا . وفجأة ارسل احمد باشا تعليمات من ود مدنى لاطلاق سراح على اغا خوفا من ان يشكوه الى محمد على باشا لما وقع عليه من ظلم وتجنى .

وبعد أيام من وصول الحكمدار ، أو قائد السودان ، الى ود مدنى ، بدأ وصول الطاقم العاملين بالمنجم زمن بينهم المدير خير الدين بك ، وبورياني زيتية المستخدمين الاوربيين وذلك في السادس من رمضان (٢٣ نوفمبر ١٨٢٨) .

وفي نفس اليوم علم نائب الحكمدار بوصول محمد على صحراء بيوضة ،

وتوقع نزوله الى النيل قرب الرويان ذلك المساء أو اليوم التالى على اكثر تقدير . لذلك رؤى الاسراع بارسال مراكب الى سنار تحسبا لمجيئه عن طريق النيل ، فتم على الفور اعداد احسن ذهبيتين . وكان خيرالدين بك على رأس المستقبلين حيث استقل احدى المركبين ، وبدأ الرحلة قبل منتصف النهار بقليل ، ووصل الى سنار ، لحسن الحظ ، قبل منتصف الليل فى نفس اللحظة التى وصل فيها ركب الباشا . نزل محمد على من ناقته وتوجه مسرعا الى المركب تحف به حاشيته ، وامر بالتحرك دون ابطاء . ولكن سوء احوال الرياح حال دون وصولهم الى الخرطوم الا فى الثامن من رمضان (٢٥ نوفمبر ١٨٣٨) .

وتجمهر الناس من جميع الانحاء والارجاء على ضفتى النيل فى الطريق من الرويان الى الخرطوم . وتابعوا المراكب وهم يصيحون باعلا الاصوات يتوسلون الى الباشا ، كل بطريقته الخاصة ، لرفع الحيف عنهم . اما الباشا فلم يخرج من كابينته حتى ادرك الخرطوم ، فنزل فى قصر الحاكم العام الذى اعد خصيصا للمناسبة . وكان منشرحا غاية الانشراح امام من يدخلون عليه لزيارته حيث تحدث معهم عن المناجم حديثا ينم عن اعتقاده بانها اغنى مناجم العالم ذهبا . ويحتضن زائريه بحرارة على هذا الحديث ، كلما لمس رضائه ، بما يؤجج تفاؤله فتستبد به الافكار عن الذهب المزعوم اكثر فاكثر .

عند وصول محمد على باشا ، عزم على اغا على مقابلة يعقوب بك الذى كان يصحب الباشا ليروى له ما نال بجانبه من مؤمرات التاجر حسن افندى وطغيان احمد باشا الذى فاق الحدود . وكان يعلم ان يعقوب بك سوف يقف بجانبه لصداقة توطدت بينهما منذ زمن ، فقد كانا من نفس المنطقة ومطرودين فى فترة واحدة . وبدأ يعقوب بك يشعر القائد بأهميته خصوصا محاولاته لحماية صديقه على اغا ، ثم اوعز للباشا ان يحتقد بتفاهة حسن افندى وروحه التآمرية . زاد الامر سوء مخالفة حسن افندى لاوامر احمد باشا حين الحت مته اللحاق به فى ود مدنى ، فبقى فى الخرطوم للتمتع بحريمه .

ولما ترامت هذه الواقعة الى مسامع محمد على باشا ، استدعى حسن افندى ذات مساء ووبخه ، ثم امره بالتوجه الى ود مدنى مع جنوده فورا ، واصدر التعليمات بان يقدم يعقوب بك بجلده خمسمائة جلدة . واقتيد الرجل الى مقر يعقوب بك ، ونفذت فيه عقوبة الجلد ، مائتان وخمسون سوطا فى اسفل القدم والنصف الباقى على اصابع يديه فى مقدم البدن . وبعد تنفيذ الحكم ، حمل القائد على يد رجلين من الارض كالميت ، ولم يستطع الوقوف على قدميه من تأثير الضرب المبرح . ثم جاء مساعده المباشر ان تكون الجمال لنقله وجنوده فى موعد بعيد ، فتأجل رحيله الى اليوم التالى . ولما علم يعقوب بذلك اسرع الى الباشا يقول له ان حسن افندى لم يرتدع بالعقوبة بدليل انه لم يتحرك بعد الى ود مدنى ، فهو اذن يعصى اوامر الباشا . وجيئ به للمرة الثانية ليعاقب بالجلد ، وهدده الباشا بالقائه فى النيل اذا تقاعس مرة اخرى عن تنفيذ التعليمات . حينئذ شعر حسن افندى ، وقد عذب مرتين ، انه ليس مهيأ لمحنة ثالثة ، فركب حمارا واخذ طريقه مباشرة الى المعسكر ، محفوفا من الجانبين باثنين من خدمه . وفى المعسكر ابقى بعض الضباط والجنود لانتظار وصول الجمال لينقلوا عليها الامتعة والعتاد ، ثم انطلق بقواته على ان يلحق به الباقون فى القاطنين .

هكذا اخذ على اغا جزئيا من ثأره ، لانه لم ينل من احمد باشا تماما لانه استطاع كسب ثقة الباشا لدرجة ما وجد معها يعقوب بك طريقة للثأر لصديقه ، الا انه استصدر امرا من محمد على باسترداد جميع ممتلكات على اغا المصادرة . على ان احمد باشا جدد قضية على اغا بعد مغادرة محمد على باشا حيث حكم عليه بثلاث سنوات سجنا مع العمل فى التجديف على السفن الشراعية فى ميناء الاسكندرية . ولكنه كان على موعد مع الحظ بعد وصول محمد على بقليل حيث اطلق الباشا سراحه ومن كانوا معه ، وذلك فى مناسبة تنصيب عبد المجيد على عرش القسطنطينية .

محمد علي في افريقيه الى المناجم :

بعد ايام قلائل من وصول الباشا الكبير الخرطوم ، حضر الحكمدار من ود مدني . وكان هذا اللص يحلم احلام سيده وجنونه بالذهب دون غيره ، فادخل في روعه ان الذهب موجود في كل ذرة من تراب فازوغلي . وتدعيما لهذا الزعم جمع امام جنابه بعض تجار المنطقة ، ومن بينهم تاجر يدعى ود شندي كان قد لقن كيف يجيب على اسئلة الباشا .

وروى ود شندي امام الباشا انه كان يسافر مرة بمنطقة فازوغلي في فصل الخريف ، فهطلت امطار غزيرة ارغمته على السير حافي القدمين حتى المساء عندها وجد كوخا لاحد الاهالي . وهنا طلب من اهل الدار وعاء كبيرا به ماء ليغسل قدميه من الطين . وحين فرغ من الغسيل وجد قيراطين ، اى ثماني ذرات من الذهب في قعر الوعاء . وعندما انتهى ود شندي ،اضاف احمد باشا ان هنالك منجما للفضة ايضا بالقرب من سنار . (٣٢) وذهب ليخبر الى هنالك لفحص الموقع ، لكنه لم يجد اثرا للفضة.وفي السابع والعشرين من رمضان (٤ ديسمبر ١٨٣٨) ، وصلت المراكب وتوجه الباشا الى الروصيرص بعد ان ارسل الاسلحة والعاملين المختصين الى فازوغلي .

وارسل محمد علي فرنسيا يدعى تيبوت (٣٣) (Thibaut) الى النيل الابيض . وكان تيبوت قد تجول كثيرا داخل السودان ولسنوات عديدة ، لاسيما في مملكة الشلك لصيد فرس البحر وبيعه حيا للانجليز ، رغم انه لم يصادف نجاحا في تجارته تلك . وقبل سنتين استطاع ان يصدر زرافا الى لندن . وفي غرور عرف به الفرنسيون ، وعد هذا الرجل الباشا باقناع الملك عبدالرحمن ملك الشلك بالحضور لمقابلته . وكان مقر الملك عبدالرحمن في دينكا عاصمة مملكته . وعندما كان الفرنسي هنالك استقبله ملك الشلك بكثير من الشك والريبة ورفض الذهاب معه .

اودع الباشا المبلغ الذى كان يحمله ومقداره خمسة الف كيسا الخزينة

فى الخرطوم . وعند بلوغه الرصيرص وجد الجيش بانتظاره لان احمد باشا كان هناك قبل عودته الى الخرطوم . وقد بلغ العدد الكلى للرجال سبعة الف رجل. وبعد ان مكث على الشاطئ لمدة يومين ، أمر الباشا برفع المعسكر واستئناف الزحف بقواته . وفى الطريق اخضعوا تابى ، كما توقعت من قبل ، ودخلوا اخيرا بالمكان الذى طالما تمنوا الوصول اليه . فاجروا الاستعدادات اللازمة ثم شرعوا فى الاختبارات ، وعمهم الباشا نفسه ، رغم كبر سنه ، فقد حمل اناء كبيرا بين يديه وشارك افراد الطاقم فى عملية غسل الرمال فى قاع مجرى السيول .

ولكن هيهات ، فلم تكن محاولاتهم سوى قبض الريح ، لانهم لم يستخرجوا سوى اربع وثلاثين ذرة من الذهب بعد تصفية حوالى ستة وتسعين قنطارا من الرمال (٢٤) . وحاولوا جمع الرمال من اماكن متفرقة ومتباعدة ، ولكن النتيجة كانت واحدة . حينئذ نفذ صبر محمد على واشتاط غضبا ، فقد كان ضحية تضليل بعد هذه الرحلة الطويلة الشاقة (٢٥) . وكان سوء الطقس قد اصاب الباشا وصحبه بحمى انهكت اجسادهم . لذلك ، وخوفا من كوارث اكبر ، عاد محمد على الى الخرطوم بعد غياب نيف وشهرين ، لم يستفد خلالها شيئا ، بل على العكس تماما فقد خسر واصحابه صحتهم نتيجة للمرض ومشاق السفر .

الباشا ووعوده للاوربيين :

وعد الاوربيون العاملون فى السودان محمد على اثناء زيارته للبلاد على سبيل المراطلة . وفى معرض حديثه معهم عبر عن تعاطفه معهم لتحملهم طقس السودان القاسى والذى عاشه هو شخصيا عن كثب خلال زيارته الاخيرة . وفى نهاية المقابلة وعدهم بالتعويض فور عودته الى القاهرة وذلك بتوجيه وزارة الشؤون الحربية بترقية كل منهم درجة اعلى من رتبته الحالية . ولكنه لم يوف بوعده هذا .

احتكار النيلـــة :-

كان هنالك تاجر فرنسى يسمى فايسيرى (Vaissiere) (٣٦) اقـــام مدة طويلة فى السودان . طلب هذا التاجر من محمد على ان يـأذن له بصناعة النيلة فى السـودان . وكان فى وسع الباشا مساعدته فـــى الحصول على الاراضى والمعدات اللازمة لاستخراج الصبغة من المصانــع المتوقفة عن الانتاج . وعلى القارئ أن يعلم أن صناعة النيلة كانت حكـرا حكوميا حيث اقامت عدة مصانع ما بين دنقلا وبربر . وأذعن المزارعون علـى زراعتها مكرهين فى سواقيهم لانها تحتاج الى ماء كثير ، فيعانون فى ريّها حتى تثمر . ومن النتائج السلبية الاخرى لزراعة النيلة ان المزارعين فقدوا عددا من ثيرانهم التى ارهقها دوران السواقى المستمر الى جانب حرمانهم من زراعة الحبوب فاصيبوا باضرار جسيمة .

واثناء مرور محمد على باشا بدنقلا فى طريقه الى الخرطـــوم تقاطرت عليه جموع المزارعين ورفعوا اليه العرائض لكى يعفيهم من زراعة النيلة. واستشار الباشا حاكم الاقليم الذى اكد عدم جدوى هذه الزراعة وشرح لـــه المعاناة التى يلاقيها المزارعون بسببها . وكان الباشا يعلم أن مصانـــع الصبغة لم تحقق ربحا منذ انشائها ، فقرر وضع حد لزراعة اشجار النيلـة . وأنهى الباشا فى نفس الوقت احتكار الحكومة وجعل الباب مفتوحا لمن يشاء لزراعة النيلة والمتاجرة فيها مهما بلغت أرباحـــه .

وافق فايسيرى على جميع الشروط والمواصفات الموضوعة ، وأمر محمدعلى بوضع الاوعية وكافة مستلزمات الانتاج تحت تصرفه بما فيها العاملون والاراضى الزراعية.على أن حضور احمد باشا بعد مغادرة محمد على باشا مباشـــرة تسبب فى انهيار المشروع . وأشاع فايسيرى انه عند مراجعة الحسابات مـــع رئيس عماله اتضح له ان الارباح لم تكن كما توقع ، ولكن الحقيقة هـــى أن أحمد باشا نفسه كان يطمع فى الحصول على الامتياز بدلا من الفرنسى . ولما

كان فابيرى حريصا على صداقة الكخدار ويتحاشى غضبه عليه خوفا علـى مصالحه ، فقد رضخ الى رغبته وتخلى عن المشروع ، ولم يشأ التاجـر الفرنسى بعد ذلك أن يثير الشكوى حول هذا السبب الحقيقى الذى أدى الى افلات الفرصة منه .

عودة محمد على باشا الى مصـر :-

بعد وصول الباشا من فازوغلى بثلاثة أيام ، توفى حامل القهوة الخاص به متأثرا بحمى اصابته من قبل . وعندما ابلغ محمد على النبأ قال متكـدر المزاج طوال اليوم لسببين ، الاول انه كان يستلطفه ، اما الثانى فانه لـم يكن قد توفى تماما من حمى اصابته فى فازوغلى . وفى المساء استدعـى قائد الذهبية وامره بالاستعداد للاقلاع عند الفجر ، ولكنه غير فكرته اثناء الليل واجل السفر ليوم آخـر . وتشاء الاقدار ان يصاب قائد المركب نفسه تلك الليلة بنزيف فى الدماغ ، فتوفى هو ايضا رغم محاولات اسعافه .

هنا بلغ الضيق بالباشا غايته ، فأمر بشحن المركب واسرع الهيـا نافضا بجلده من ارض ، كما وصفها ، ليس فيها غير رائحة الموت ! ولكن يبدو انه كان على موعد مع قدر كبير من الكدر وتعكير المزاج ذلك الصباح . فقد هبت رياح عاتية علـى المدينة من الشمال ، فتسرت المراكب علـى الشاطئ بسبب الامواج . وبالرغم من الجهد الذى بذله طاقم المركـب الا انهم لم يتمكنوا من دفعها بعيدا عن الشاطئ الا بعد مضى ساعتـين كاملتين . غير أن التقدم عكس الرياح اصبح مستحيلا ، فاضطروا الى البقاء فى جزيرة توتى حتى حلول الظلام حين هدأت الرياح فاستأنفوا الرحلة الـى بربر . وفى اليوم التالى لحقته به حاشيته ومعهم صراف الخرطوم وهو يحمل معه الخمسة آلاف كيسا ، لان الباشا وقد حز فى نفسـه عودته بـدون ذهب ، قرر الا يترك مملكة قاحلة تقود واحدة من المصالح الـتى جـاء بها الـى السـودان .

غادر محمد على الخرطوم فى السادس من ذى الحجة ١٢٥٤هـ (٢٠ فبراير ١٨٣٩) ووصل بربر سالما فى الحادى عشر من نفس الشهر . ثم مكث فيها ثلاثة ايام فى انتظار رجاله ، وبعدها واصل سيره عبر الصحراء الى القاهرة . اما ذهبياته ، فقد ارسلت احداها لتستخدم فى رحلة لاكتشاف منابع النيل الابيض ، بينما شقت الاخريين طريقها الى مصر عبر الشلالات . ويحكى ان الباشا قد اجرى اختبارات على الرمال التى تحتوى على الذهب كما ادعى بوريانى عند ما جاء بها اليه داخل زجاجة كما اسلفت . وقيل ايضا ان عربيا يدعى احمد افندى (٣٧) درس فى فرنسا اكتشف ان الذهب قد استخرج من خيرية (عملة ذهبية تعادل تسعة قروش) ، فانكشفت حيلة بوريانى على الباشا . وكان محمد على محقا حين ثار على هذا الاحتيال ، وربما كان ذلك سببا لطرده له مباشرة لا سوء العمل فيما بعد (٣٨) .

وحوالى أواخر ذى الحجة (مارس ١٨٣٩) ، وبعد مغادرة محمد على باشا بقليل وصل احمد باشا بجيشه وترك قوة من اربعمائة رجل فى فازوغلى لحراسة المستوطن الذى تم انشاؤه هناك . وكان قوام تلك القوة مائتان من مشاة الفرقتين الاولى والثانية ومائتان من الفرسان غير النظاميين، ومدفعان من مدافع الميدان ، يقودها جميعا عمر افندى قائد الكتيبة الرابعة للفرقة الثامنة .

تحسين المالية :-

بدأ احمد باشا فى اعادة تنظيم الادارة على طريقته الخاصة منذ ان وطئت قدماه ارض السودان . وكان اول امر يصدره فى هذا الصدد يقضى بان يقوم كل من يملك ارضا على النيل بتنظيفها وزراعتها وتوفير المعدات لريها . واعطى انذارا بذلك يمنحه مهلة مدتها عام ، وبعدها يحق لاى شخص الاستيلاء على الساقيات الهابطة وتركيب معدات الرى عليها ،

فتؤول ملكية الارض لصاحبها الجديد ويفقد المالك الاصلى وورثته حق المطالبة بها نهائيا ، والتى يشجع الناس على تلك الممارسة ، وقد بان يعفى جميع الاراضى البور التى يتم استصلاحها من الضرائب لثلاثة اعوام على التوالى ، ليفرض عليها الجديدة بعد ذلك كما نوهت من قبل .

فى المناطق التى تقع خارج العاصمة مثل المتمة وشندى توجد مساحات شاسعة من الاراضى يقوم بالزراعة فيها الشايقية الذين يسكنون فى قرى شيدوها لانفسهم . ولا تفرض الحكومة ضرائب على هؤلاء المزارعين من الشايقية لانهم يعملون فرسانا فى الجيش كما ذكرت سابقا (٢٩) . كذلك توفر لهم الحكومة حصة شهرية من الذرة علفا لخيولهم . ولقد حصل الشايقية على هذه الاراضى المنخفضة المهجورة فى عهد خورشيد باشا واشترطوا عدم دفع الضرائب عند زراعتها . ونص الاتفاق ايضا على منحهم الملح مقابل اصطبارهم على ان يستمروا فى زراعة الاراضى دون توقف .

ورأى خورشيد باشا انه من المصلحة النزول عند رغبة الشايقية لأن الاراضى لم تكن خاضعة للبيع ، علاوة على أن منحها للشايقية يوفر للحكومة نحو عشرة آلاف أردب من الذرة . وقد بذل هؤلاء القوم جهدا كبيرا فى نظافة المكان من الغابات الكثيفة واحالوا البقعة المهجورة الموحشة ارضا زراعية منتجة آهلة بالسكان .

وعندما جاء احمد باشا الى الحكم ، طالبهم بدفع الضرائب مثل سائر المزارعين ، فتصدى له زعماء المجموعات المختلفة من الشايقية واصروا على التمسك بالحقوق التى تم الاتفاق عليها مع خورشيد . غير أن أحمد ، بما عرف عنه من صلابة فى الرأى ، لم يشأ ان يسمح شيئا من الحقوق . وما لبث ملوك الشايقية وزعماؤها ان اجتمعوا بقيادة الملك نمبال وذهبوا الى احمد باشا عارضين عليه الوثيقة التى تسلموها من سلفه باعتبارها مستندا يثبت حقهم فى الاستفادة من الارض .

على ان ذلك كله ما زاد احمد الا تشددا على موقفه وتمسكا برأيه ، فاصر على دفعهم للضريبة ابتداء من تاريخ تسلمهم للاراضى موضحا لهم عدم استعداده لأى امهال . وهنا هدد زعماء الشايقية بالتخلى عن الارض مع الوفاء بما عليهم من متأخرات الضرائب منذ أن تسلموها ، ولكنهم طالبوا احمد بالتنازل عن موقفه ومنحهم علفا من الذرة لخيولهم باثر رجعى منذ منحه عنهم .

وانتفض احمد باشا واقفا بعد هذا الحديث وقال فى عبارات لا تقبل التأويل بان قراره نهائى ، وانه يجب ان يطاع . واضاف بأن عليهم ان يبقوا فى اراضيهم لا يبارحونها ، وعليهم ان يدفعوا الضرائب ، ولا شئ غير الانصياع للاوامر . ومضى فى قوله أن الحكومة غير ملزمة بتوفير الذرة للخيول لانهم يستطيعون زراعتها بانفسهم ان شاؤا ، وهددهم بالسجن ان لم يستجيبوا لتعليماته . على أن أحمد ، مع ذلك ، كان يعلم أن القوم يخالفون اوامره ويضمرون شيئا . وامام تشدد احمد باشا ، نهض الزعماء فى استياء وعادوا الى اراضيهم .

الملك حمد يتحدى الحكومة :-

اغضب قرار احمد باشا احد زعماء الشايقية ، وهو الملك حمد الذى صمم على الانتقام اذا فرضه عليهم بالقوة . وقام حمد على رأس مائتين من الفرسان بتخريب الزرع كله ، وامر رجاله بحمل متاعهم ونسائهم واطفالهم على الخيول . وانطلقوا جميعا ، وهم مسلحون احسن تسليح ، من شندى سالكين الطريق بين نهر عطبرة والنيل الازرق فى اتجاه الحبشة . وبعد يومين وصلت الكتيبة القاطعة الى احدى قبائل عرب ابو سن حيث

(٤٠)

ارتاحوا لمدة يوم ، ونزلوا عند شيخ هؤلاء العرب جميعا ، وهو الشيخ احمد ابوسن . وتحدث ابوسن مع الملك حمد ، قائد القوة ، واقنعه بالتوقف عند ذلك الحد ، ووعده بمساعدته أن لحق به أحمد باشا فهو

ايضا مستاء من دكتاتوريته . وانشغل محمد فسي بجمع شتات رجاله من قبيلة الشايقية ، ولم يتخذ ترتيبات للدفاع عن نفسه ضد الغارة لانه وثـــق باحمد ابي سن . وعندما بلغت قوته نحو ستمائة رجل استعد لصـــد أي هجوم عليه في روح معنوية عالية . وقد زاد من ثقته امله في عون من افراد قبيلة ابي سن الكثر .

على ان ابا سن كان يضمر امرا مختلفا عما أوهم به محمد ، فقصد خدع الملك ليسلمه الى احمد باشا جريا وراء ود الباشا واحترامه . وكتـب احمد ابوسن للحكمدار يخبره بان الملك محمد يعسكر مطمئنا في مكان قريب .

وبمجرد أن بارح محمد شندي ، ارسل احمد باشا اوامره الى كل مكان لتحري وجهته . ولدى وصول الاخبار من ابي سن ، امر الكتيبة الاولى للتوجه فورا من الخرطوم من طريق النيل الى شندي، ومعها مدفع ميـدان . ووجه حامي بربر ايضا بالتحرك في الحال بصحبة مائتين من الفرسان المغاربة . وبعد مضي يومين ، ترك احمد باشا نفسه الخرطوم ، ولكنه قبل الوصـول الى شندي ، اصدر التعليمات للملك كبال[41] لحشد اربعمائة من رجـال قبيلته الشايقية والانضمام اليه . وسار احمد باشا بالكتيبة والمغاربة الذين اتوا من بربر ومائتين من فرسان قوات عابدين اغا التي كانت ترابط هناك[42]. سمع محمد الانباء عن وصول احمد باشا وقواتـه الى شندي فانزعج ، ولكنه سرعان ما خلد الى السكينة حين اكد له الشيخ احمد عدم وجود اي مخاطر عليه . وبعد ساعات ذهب احمد ابوسن الى الملك محمد واخبره بان احمد باشا غادر بربر على رأس قوة من الجيش لردع البشاريين الذين هددوا بتفقـل طريق سواكن . ولم يكن ما ذكره احمد مجافيا للحقيقة تماما لأن البشاريـين قاموا بالفعل بنهب قافلة في طريقها من سواكن الى بربر ، اما بقية القصـة فكانت محض خيال لأن الباشا لم يكن ليجرؤ على المغامرة بقيادة جيش الـى مجاهل تلك الصحراء حيث لا ماء ولا حياة ، وفي ذلك الفصل الجاف مـن العام ، فيعرض نفسه وجيشـه للتهلكـة .

قضى الباشا الليل في منطقة قريبة من معسكر الملك سعد ، وهاجم عليه في الصباح الباكر . وبوغت سعد ورجاله بالهجوم وفروا صوب الصحراء . واسر احمد معظم النساء والاطفال ، بما فيهم عائلة الملك سعد حيث لم يكن هنالك متسع من الوقت امامهم للهروب ، فكان سعد يرده كما يقولون . وغنم احمد عددا كبيرا من الجمال والخيول وجميع الامتعة التي تركها الهاربة خلفهم .

عرف الملك سعد بقوة الهزيمة فلم تدفعه مكيدة الشيخ احمد الى اليأس ، مع أن ما تبقى له من الخيل لم يكن يتعدى المائة . وبرغم الكمين الذي نصبه له أبو حسن ، الا انه لم يكن في وضع يسمح له بالدخول معه في حرب . ثم كتب سعد الى احمد باشا يذكره بحسن معاملة الاسرى من النساء والاطفال بصفته منتصرا .

ومع أن عددا كبيرا من رجاله فقدوا اسلحتهم النارية في الهجوم ، فقد صمم سعد على القيام بهجوم مضاد بما تبقى من رجال مسلحين وعددهم مائتان بمساندة مائة رجل مسلحين بالحراب . وبينما كان مجموع جنوده ثلاثمائة جنديا ، الا أن مائة فقط كانوا على ظهور الخيول ، اما الباقون فقد ساروا على الاقدام . وتقدمت القوة الى شندى عن طريق درب مهجور ، ووصلت هناك بعد منتصف الليل بقليل . ومكث رجال سعد في مكان بعيد حتى قبل الفجر بساعتين ، ثم تدافعوا نحو معسكر احمد بعنف وهم يصيحون في صخب اشاع الذعر في كل مكان . وفي غياهب الظلام لا فرق بين العدو والصديق ، وشلت قدرة الجيش النظامي في المناورة أثناء ساعات الفوضى تلك ، وسقط كثيرون من بينهم الاتراك والمغاربة في جوف النيل .

ولم يدع سعد الفرصة تفلت من يديه ، فاستولى في لحظة الانتصار على بعض الخيول والجمال والاسلحة النارية سلمها جميعا لرجاله وامرهم بالتقدم امامه ، وسار هو خلف القافلة مع بقية رجاله المسلحين ، وكانوا

لحمايتها على صهوات الخيول ، ليحمى قواته من أى هجوم مفاجئ من الخلف .

وبات احمد باشا فى حيرة من أمره ، اذ من اين لمحمد القــوة والشجاعة لشن تلك الغارة التى كبدته الخسائر وجلبت عليه العار ؟ وبدأ يشك مخلصا فى مؤامرة بين حمد والملك كمبال ، وقرر على الفور قتـــل كمبال فى ذلك اليوم . ثم امر بفض المعسكر وتعقب الثوار على ان يصحبهـم الشيخ كمبال ورجاله ايضا . وقبل منتصف النهار كانت القوة باكملها تســوح الخطى فى اعقاب الثوار .

وعند حلول الظلام بقليل ابصروا الثوار من بعيد ، فاصــدر الباشا تعليماته بتقدم الفرسان لحوتهم بسرعة بغرض مناوشتهم حتى تلحق بهم بقية القوات . وفى نفس الوقت امر كمبال ان ينفصل عن القوة لضرب العــدو من الاطراف . وأدرك حمد الاخطار من الحركة ، فاستدار ليواجه العــدو بهجمة مرتدة تقدمها ، ان امكن ، حتى يمكّن رجاله الذين يحملون السلاح والذخيرة على البغال من التقدم ، وحتى تستطيع الخيول التى استولــوا عليها ليلا الافلات من قبضة العدو .

غير أن قوات الباشا لحقت به مع ذلك ، وتشتت المعركة ، وواجــه حمد العدو فى شجاعة وردة على اعقابه كلما اقترب منه مباشرة . وفـــى نهاية الامر اقتنع حمد باستحالة صموده امام القوة الضخمة بفئته القليلــــة فاضطر الى وقف القتال . ومن حسن الطالع أن الحدود كانت قريبة عنــد انهيار مقاومتهم ، فاغتنموا فرصة توجيه الباشا لكمبال بعدم متابعتهم . ولحق حمد برجاله المتقدمين امامه ، واستراحوا قليلا ، واقتسموا الغنائم ، ثــم توجهوا جميعا صوب نهر عطبرة .

مقتــل الملــك كمبـــال :-

منع احمد باشا كمبال ورجاله من تعقب حمد خوفا من انضمامه الـــى

قوات حمد ، فقد كان القوم من قبيلة واحدة بل انهم كانوا جميعا اقرباء .
ومضى احمد فى تنفيذ خطته للتخلص من كبال فامر جنديا مغربيا يجيد الرماية بالاختباء فى مكان لاطلاق النار عليه . ففعل المغربى ما أراد من خلف شجر كثيف كان يمر من خلاله كبال فاصابه منه مقتلا من مسافة قريبة . وقد اخترقت الرصاصة ضلوعه حتى خرج من فوق قوسه واقلت القاتل من اقرباء كبال الذين خرجوا اليه فوجدوه يحتضر ، ثم توفى بعد ساعتين . (٤٣)

لم يكن فى وسع احمد باشا مطاردة الطاغية حمد بعد هذا الحادث لانه لم يعد يثق فى ولاء رجال كبال . فأقام معسكرا ، وتصنع الأسى والحزن على صديقه ، كما رصفه ، ثم أمر بدفنه . وفى المساء وجه رجال القائد الراحل البالغ عددهم اربعمائة ان يتفرقوا الى ذويهم ، وبقى ينتظر فى موقعه حتى وقت متأخر من اليوم التالى حتى يتأكد من أن الرجال قد قطعوا شوطا كبيرا فى الطريق ، استأنف السير .

حمد يقترب من الحدود :-

كان حمد فى سباق مع الزمن ، فتقدم فى سرعة مذهلة . وعند عبوره عطبرة وجد ابل ابى سن كلها ترعى ومعها ابن الشيخ أبو سن . وحاول حمد قتل الابن ليثأر لنفسه من غدر والده الذى ما أن سمع بفشل الباشا فى حربه مع حمد حتى التجأ الى معسكر احمد باشا خوفا من انتقام حمد . ولكن الابن كان ملما بكل ما حدث ، فاختار بعيرا سريعا عند رؤيته لرجال حمد من بعيد وانطلق فى اتجاه أبى حراز . وفشل حمد فى اللحاق به ومضى فى طريقه الى القلابات ليعبر منها الحدود الى الحبشة بعد أن سلب اعدادا كبيرة من ابل أبو سن . وكان يتحاشى أثناء سيره المناطق الآهلة بالسكان حتى لا يعترض احد طريقه فيلحق به احمد باشا . واخيرا وصل حمد الحدود بعد مشوار امتد لعدة أيام . وهناك اقام معسكره ، وقرر للمرة الاخيرة قبل عبور الحدود الى الحبشة ، ان يجرب حظه بالسلاح .

شيخ الهلالية يشنق خطأ :-

تتبع احمد باشا آثار محمد ، ولما فشل في اللحاق به ، فقد الامل نهائيا في النيل منه . وذات يوم بينما كان احمد باشا والشيخ أبوسن يمران بقرية كبيرة الى الشمال من ابي حراز ، أراد أبوسن الوقيعة بين الباشا وشيخ تلك القرية لخلافات قديمة بينهما .
قال الشيخ أبوسن أن السكان يتداولون حديثا مفاده ان ذلك الشيخ خرج لاستقبال الملك محمد عند مروره بالقرب من القرية ، ليس ذلك فحسب ولكنه شوهد ايضا يتحدث اليه حديثا طويلا في الخفاء . واضاف الشيخ أبوسن أن لشيخ القرية نفوذا كبيرا في قريته والمناطق المجاورة الامر الذي مكنه من تحريض الاهالي على الثورة على الحكومة بمجرد ابتعاد الجيش عن المنطقة . وختم الشيخ احمد حديثه بان طلب من الباشا اعتقال الشيخ حماية للأمن العام .

ولم يشك احمد باشا فيما قاله الشيخ أبوسن ، فقد كان يعده من اخلص الناس واكثرهم ولاء حتى خصه بتلك المكانة الرفيعة بين قومه . واعتقل الباشا شيخ القرية استجابة لنصح أبوسن وارسله مقيدا الى فرهاد بك في ود مدني بخطاب يبين جريمته ، ومعه امر بمحاكمته بالشنق فورا . ثم استأنف طريقه خلف الثوار .

تسلم فرهاد السجين والتعليمات بشنقه فاستغرب الامر لانه عرف مما تناقله الناس ان محمد تفادى المرور بالمنطقة فاتخذ طريقا موازيا للنهر عابرة وليس النيل الازرق . غير انه كان يعلم بوجود عداء قديم بين الرجلين ، ابوسن وشيخ القرية . ثم ان فرهاد كان يؤمن بان الشيخ أباسن رجل ماكر ومخادع . لهذه الاسباب مجتمعة اقتنع فرهاد ببراءة الشيخ المسكين . ولاتاحة مزيد من الوقت للتحري في هذه القضية حرر فرهاد خطابا للباشا يفيده بانه لم يتمكن من محاكمة الشيخ لان الامر بمحاكمته قد فقد ، فهو

بالتالي لا يعرف ظروف التهمة ، ثم طلب منه أمرا آخر باحتجاز الشيخ . وانتهز هذه الفرصة ليعبر عن رأيه الخاص في القضية مشيرا الى اعتقاده في براءة الشيخ ، وطالب الباشا بمزيد من المعلومات عن القضية .

واعاد الباشا كتابة الامر من جديد ، وضمنه توجيهاته بان يشرع فرهاد بك في شنق الشيخ بمجرد استلامه للأمر ، وأكد ان جميع جوانب القضية واضحة لا لبس فيها . وشعر فرهاد باضطراب شديد ، وعز عليه شنق رجل لا يشك لحظة واحدة في براءته . وازاء هذا الموقف الصعب ، اختار ان يواجه غضب الباشا ، فذلك أهون من قتل الرجل ظلما . وعليه كتب للباشا مجددا صباح اليوم التالي معتذرا عن عدم تنفيذه للأوامر فقد تسلم مهمته داخل المركب وهو يتأهب لرحلة الى أبي حراز . وحكى في روايته قائلا انه لدى تسلمه الرسالة ، القى عليها نظرة ثم وضعها بجانبه على البساط ومد يده لتناول وثيقة احضرها له الكاتب لختمه . وربما جاءت نفحة من الهواء القتها في النهر . وتوسل الى الباشا باعادة كتابة الامر لأنه لم يتبين محتواه تماما .

وللمرة الثالثة ارسل احمد باشا امر الاعدام لفرهاد مع رسالة عتاب هذه المرة ـ على تأخيره ، وحثه على شنق الشيخ فورا دون ابداء مزيد من مسوغات التأجيل . كانت الرسالة مصدرا لارتباك فرهاد واضطرابه ، على أن الامر لم يعد بيده . ومع ذلك انتظر ليومين آخرين لعل احمد يثوب الى رشده . وفي اليوم الثالث فقد الامل في رسالة من احمد باشا ، وخشي ان تضعف ارادته في تنفيذ امر الاعدام كلما بقي الرجل على قيد الحياة ، فوجه بتنفيذ الحكم فورا .(٤٤) وفي اليوم التالي لشنق الشيخ جاءت رسالة من الباشا يأمر فيها فرهاد باطلاق سراحه ، ان لم يكن قد اعدم ، لانه استوثق الآن من براءته ، ولكن بعد فوات الاوان .

فانظر كيف ازهقت روح انسان برئ بفعل افتراءات رجل شرير ! وتعجب كيف يكون حاكم عام بهذا القدر من الجهل والبلاهة !

العفو عن الملك نمر :-

وهنا الآن نعود الى احمد باشا في مطاردته للملك نمر . سار الباشا خلف عدوه في خطى حثيثة ولكنه ، كما اسلفت ، لم يمسك به مع انه لم يكن يبعد عنه كثيرا . فقد نصب نمر معسكره على الحدود بين الساعة الرابعة والنصف والخامسة والنصف مساء ، بينما عسكر احمد باشا بعد مضى ست ساعات من مغيب الشمس على مسيرة اربع ساعات من معسكر نمر .

عندما علم الباشا بوصول نمر على الحدود ، أيقن انه لن يقع في قبضته فتجاذبته مشاعر الغضب والاهانة معا . ذلك لأنه أثناء تلك الفترة القصيرة التي تولى فيها المسؤولية حكمدارا للسودان ، لم يجد بعد سانحة لتحقيق مفخرة يعتز بها في المعارك . وكان يعلم في ذات الوقت مدى الكراهية التي يكنها له سكان تلك المنطقة بسبب الضرائب الباهظة التي فرضها عليهم مما دفع الكثيرين منهم الى الفرار لتنظيم وقيادة الانتفاضات ضده . وكان هاجسه الاكبر هو اخماد هذه الثورات في مهدها حتى لا تسرى في جسد البلاد باسرها . لذلك استدعى أبا سن والشيخ عبد القادر [٤٥] ، الذى انضم اليه في الطريق ، وأبا ريش [٤٦] شيخ الحلاويين المرموق للاستشارة برأيهم في انجع السبل لمنع الثوار من عبور الحدود الى الحبشة . فاقنعه الشيخ باستحالة ذلك ، والحوا عليه في اصدار عفو عام عنهم من المحتمل ان يقبلوا به نظرا لانهم قد تركوا خلفهم آباءهم واخوانهم واطفالهم وجميع ذويهم .

ولم يكن هنالك خيار آخر امام احمد باشا غير الاقتناع بهذا الرأى ، فكلف الشيخ أبا ريش بالذهاب الى معسكر نمر ليعرض عليه العفو العام نيابة عنه . وتوجه أبو ريش في الحال الى الملك نمر ووعده بترتيب اجراءات السلم بينه وبين الباشا اذا وافق على مبدأ العفو .

ولم ينس أبوريش أن يغرى حمد بقبول العفو حتى يعود الى زوجاته وأطفاله بدلا من أن يتركهم تحت رحمة الأتراك .

وفكر حمد برهة ، ثم سأل عن شروط العفو . فرد عليه أبوريش بأن ليست هنالك ثمة شروط غير أن يبقى هو ورجاله المقاتلين في الخدمة العسكرية واعتبار ما حدث كأن لم يكن . ووافق حمد ، ولكنه اشترط أن يعفى ورجاله من ضريبة الأرض ، وعلى الباشا أن يبعث له بشال يرمز للسلام حسب عادتهم في حالة قبوله بهذا الشرط . واضاف حمد انه حينئذ سوف يتوجه الى الباشا طالبا الصفح لما بدر منه . وعاد أبوريش واخبر الباشا بما دار بينه وبين حمد ، فوافق الباشا على كل شئ الآ الاعفاء من الضرائب ، ثم أعطى أبا ريش قطعة حمراء من القماش رمزا للسلام .

وحمل أبوريش الى حمد موافقة الباشا على الاتفاق ما عدا الغاء الضرائب وقطعة القماش التى أرسلها له الباشا . وما أن رآها حمد حتى هب واقفا وهو يحتج باعلا صوته على تصرف الباشا الذى يعامله معاملة الأطفال ، والا فما معنى أن يبعث له بقطعة حمراء غير النية الخبيثة في غدائه والغدر به ؟ فاللون الأحمر عنده لا يعني غير الدم . وطلب من أبي ريش أن يعيدها الى الباشا مبينا اصراره على موقفه بان تجاب جميع الشروط لكي يتحقق السلام . ثم اشترط ان يرسل له الباشا شالا أبيض اللون دليلا على رغبته في السلام ويقسم على المصحف والسيف بأن يطوى صفحات الماضى ولا يعود ثانية لايذائه في المستقبل . وعند ما يتم ذلك كله سيذهب حمد الى أحمد باشا ويقسم هو ايضا على الكتاب الكريم والسيف ليعلن الولاء له شخصيا وللحكومة . أما اذا رفض الباشا ذلك ، فالبقاء داخل الحدود الحبشية أفضل الف مرة حيث أن المسيحيين أكثر انسانية وأحسن معاملة من بعض المسلمين من أمثاله .

وعاود أبوريش الكرة فأطلع الباشا بما حدث ، فواجه أحمد حرجا

شديدا أمام شروط الشيخ محمد ، وشعر أن الرجل يريد عرقلة الاتفاق باثارة امور مثل امر الشلال وغيره . وفي النهاية ، وبعد أن اعيته الحيلة الى جانب الحاح الشيوخ ، وافق احمد باشا على جميع الشروط ما عدا الاعفاء من الضريبة أو تخفيضها . وكفلت الشروط الجديدة حق جميع الجنود من الشايقية وقوادهم في التنازل عن الاراضى التى ظلوا يزرعونها باذن من خورشيد . أما من أراد منهم الاستمرار في زراعتها فعليه دفع ضريبة سنوية معينة . ونص الاتفاق كذلك على عدم التزام الحكومة بصرف علف للخيول ، وعدم جواز مطالبة الحكومة بضريبة الارض بأثر رجعى من الذين تخلوا عنها أو الذين شغلوها من بعدهم نيابة عنهم ، وذلك منذ اليوم الذى تم فيه الاستلام وحتى بداية ذلك العام الجديد ، ١٢٥٥هـ (مارس ١٨٣٩) .

توجه محمد في صحبة شيخ الحلاويين الى معسكر الباشا بعد أن وافق على الشروط وتسلم الشال الابيض وكلمة الامان من أبى ريش . وعند وصوله الى خيمة الباشا ، ترجل عند المدخل ثم شق طريقه الى داخل الخيمة ، وارتمى على قدمى الباشا ، واخذ يقبلهما طالبا للمغفرة على اخطائه . ومد الباشا يديه يعاونه على النهوض واجلسه بجانبه واخذ يعامله مثل الصديق حيث امر له بالقهوة والشبليون . واثناء حديثهما تساءل احمد باشا ما اذا كان محمد قد اتصل بالشيخ الذى شنق في ود مدني . فنفى محمد ذلك وافاد بانه كان يتفادى الاقتراب من القرى في رحلته الى الحدود خوفا من المكائد ، فعكس ما قال به أبو سن ليفقد الثقة بالآخرين . ثم اثبت محمد انه حرص على الابتعاد من تلك القرية بالذات بما يقدر بمسيرة يوم كامل . اذن فانه ، بالطبع ، لم يلتق بالشيخ . وادرك احمد انه وقع في فخ اعد له ، فغضب من أحمد أبى سن الذى ادعى ، فيما بعد ، انه لم يقل الا ما سمعه من الناس . وقد ترتب على هذا الاعتراف من أحمد أبى سن العفو عن الشيخ والذى ارسله احمد باشا الى فرحات بك بالبريد المستعجل ، الا انه وصل بعد تنفيذ الحكم .

مكث محمد عند الباشا قليلا ، ثم استأذن ومضى الى معسكره . وفى اليوم التالى حضر مع رجاله ونصبوا الخيام بجوار معسكر الباشا . وبعد يومين تحرك الركب كله الى الخرطوم . وفى ابى حراز ، امر الباشا محمد بالتقدم امامه ليلتقيا معا فى العاصمة . وبعد عدة ايام وصل محمد قبالة خوجلى ، على الضفة الشرقية للنيل الازرق فى مواجهة الخرطوم واقام معسكره هناك . ثم توجه الى داخل مدينة الخرطوم لزيارة اصدقائه . ولك الآن أن تتخيل مدى دهشة الناس عند رؤية محمد فى الخرطوم . فقد كانوا يتصورون انه سوف يأتى مقيدا بالسلاسل ، فاذا هو حر طليق لا يزال يقود جنوده . وكان الاعتقاد انه سوف يشنق لا محالة ، فقد اعلن احمد باشا فى بعض المدن الكبرى انه اشتبك مع محمد فى معركة بالمطيمش ، فهزمه وقبض عليه ، فاحتفت تلك المدن بالحفلات النصر .

وبعد أيام قليلة كان أحمد باشا فى العاصمة ، فأرسل المراكب لنقل الكتيبة العاملة من أبى حراز حيث تركها هناك ، فوصلت الى الخرطوم بعد غياب دام اكثر من شهرين . ولم يمض غير ايام قلائل حين استجاب احمد باشا الى الطلب من محمد للرجوع الى أهله لمعاودة الزراعة على ذات الاراضى . وظل محمد يعيش فى سلام ، فقد صان كلا الطرفين العهد ، حتى امره احمد باشا بعد ستة اشهر بالانتقال الى دنقلا ، فتوفى هناك بعد عامين لاسباب طبيعية عن عمر ناهز الستين . وترك محمد وراءه اثنين من الابناء وعددا من البنات .

هنا ألم بوبو بفصل ، ثم يتصل :-

فى ذات اللحظة التى كان فيها احمد باشا يحاول اللحاق بالملك محمد ، حدث فى الصحراء ما بين أبى محمد وكربكو امر لم يكن أقل اهمية . ولكن ينبغى علينا قبل سرد الواقعة ، الرجوع الى خلفيتها التى يتيسر لنا الفهم . كان يحكم بوبو ، اوائل فترة حكم خورشيد باشا ، تركى يدعى عباس .

وما كان هذا الحاكم يختلف عن بقية الاتراك فى ارتكاب المظالم أو الاقدام على الانتقام كما رأينا فى حادثة خليفة (٤٧) . ومثل كافة الحكام الاتراك من امثاله اثرى عباس ثراء فاحشا على حساب عامة الناس ، فعانوا وتعذبوا حتى اصبحوا غير قادرين على تحمل المزيد من المعاناة والعذاب . وفى شهر رمضان ١٢٥٤هـ (مارس / ابريل ١٨٣٨) توالت الشكاوى ضده ، فأمر خورشيد بالتحقيق الفورى معه . الا أن التحرى فى القضية أجل لشعور خورشيد باعراض مرض مزمن كان يعانى منه فى نفس الشهر وسفره الى القاهرة للعلاج .

وحل مكانه احمد باشا الذى أمر بمراجعة جميع حسابات الدواوين الحكومية سواء كانت سابقة أو لاحقة لتسلمه مسؤولية الحكم . وما أن صدر هذا الامر حتى انهمرت الشكاوى ضد عباس ، فاستجوبه احمد باشا من قبل ذمته ، ووضعه فى السجن ، ثم عرض منزله للبيع مع الاثاث والخدم .

على أن عباس كان رجلا ذا ثراء عظيم حيث ظل يحتفظ بقدر من المال يكفيه للعيش على مستوى رفيع لمدة شهور فى شندى رغما عن مصادرة الحكومة لكل ما ثبت انه استولى عليه قبل اطلاق سراحه ، ذلك لان احمد منعه من مغادرة البلاد الى مصر كما طلب . ولعل مضاعفات المعاملة السيئة فى السجن أو القلق الذى صاحب منعه من السفر الى مصر هى التى أدت الى مرضه ثم وفاته بعد ايام من نقله هو وافراد اسرته الى شندى (٤٨) . وترك عباس وصية بأن يتولى شقيقه التاجر فى القاهرة أمر ابنائه وزوجاته .

برآسة يتصل شقيق الحاكم الراحل :-

سعى سليمان اغا بوفاة شقيقه عباس فاتجه الى السودان لتنفيذ وصية المأمور الراحل الذى اوكله على ممتلكاته وافراد اسرته . وقد صادف وصوله الى بربر وجود محمد على فى فازغلى . وعند مرور الباشا ببربر فى رحلة

العودة الى القاهرة فطلب منه سليمان اغا ان يوجه احمد باشا ليمده بثلاثين من الفرسان لحراسته عبر المنحدر من بربر الى كروسكو . لقد كان الرجال يخشون من غارات البشاريين في الصحراء ، خصوصا اذا علموا بحضوره من مصر لينقل اسرة واحصنة عباس الى هناك .

وعندما وصل احمد باشا الى شندى عقب هروب الملك نمر ، حضر اليه شقيق عباس من بربر وسلمه امر محمد على باشا . وقرأ احمد الرسالة ، وعلق بقوله ان الجيوش انما تعد للحروب ، لا لحراسة التجار ، ثم عبر عن احتقاره لانه لم يكن لديه فائض من الرجال وقتئذ . واضاف احمد بأن السفر ممكن في اى وقت ، فليس هنالك ثمة لصوص فى الصحراء ، على أى حال . واعرب سليمان عن مخاوفه من نتائج العداء بين بركة وشقيقه الراحل بسبب ظروف مقتل خليفة شقيق بركة . فمن الطبيعى أن تتجه احقاد بركة الى سليمان بعد وفاة شقيقه عباس ، فيحاول الانتقام منه بشتى الطرق . وزاد من مخاوف سليمان كون بركة شيخا للصحراء ، وبالتالى قائدا للجمالة والمرشدين الى جانب انه من دمهم ولحمهم . ورغم ذلك كله لم يجد سليمان اذنا صاغية ، فعاد الى بربر . ومن هناك بدأ الرحلة الى مصر مع اسرة عباس ، وقلة من الاتراك صحبوه فى رحلته صدفة ، الى جانب بعض المماليك ، فتألفت القافلة فى مجملها من تسعة افراد مسلحين احسن تسليح . ولم يحدث ما يعكر صفوهم على الطريق منذ مغادرتهم بربر وحتى بلوغهم بقعة تبعد من الآبار فى منتصف الصحراء مسافة يوم واحد على الاقدام . هناك وجدوا بركة وجها لوجه ومعه تسعون من رجاله المدججين بالسلاح . وتصنع سليمان عدم المبالاة أول الامر ، حيث تقدم نحو بركة وحياه فى أدب جم ، ثم سأله عن وجهته . ورد عليه الشيخ بركة فى مثل أدبه انه يتفقد الطريق من والى كروسكو من غارات البشاريين . وأردف قائلا انه يقوم بمثل هذه الرحلة دائما ، أما وقد التقيا صدفة فيسعده كثيرا أن يواصل معه الطريق الى كروسكو .

واستمرت القافلة فى سيرها حتى حطت الرحال عند الآبار ، فتقدم

(٤٩) (٥٠)

الشيخ بركة لحظ الزوجة اشتراه خصيصا من البخاريين لسليمان . وفى اليوم الثالث استؤنفت الرحلة . وعند مغيب الشمس كانوا فى المدينة ، وسميت هكذا لانها محاطة بالجبال من كل ناحية . وتنمو هنا بعض اشجار السدل والمدوم ، بينما تتجمع كمية لا بأس بها من مياه الامطار فى بوزمة على سفح احد الجبال . وتزودت القافلة بالماء وواصلت السير . وبعد مضى نصف ساعة ، وبينما كان الرجلان على ناقتيهما يسيران جنبا الى جنب ، وجه بركة سؤالا لسليمان :(٥)

" هب أن لفلان دين على علان . من يا ترى يقوم بواجب سداد الدين اذا توفى علان ؟"

فرد سليمان على الفور :-

" ورثته بالطبع "

ولكن سحابة من الشك طافت امام سليمان فى تلك اللحظة . حيث كان لسليمان دين على اخيه حقا ! هذا ما يبدو من سؤال بركة . لذلك أبدى استعداده لرد أى مبلغ اقرضه بركة لاخيه جامع على أن يقيم عليه الدليل .

ورد بركة :

"بما انك لا تطمع فى رد الدين ، فاعلم بان ثارا بينى وبين اخيك . ولانه الآن فى عداد الموتى ، فعليك به ".

وبهذه الكلمات التى بركة الطلقات من مسدسه على سليمان الذى سقط من ناقته صريعا .

وفى نفس اللحظة التى اطلقت فيها النار على سليمان ، هجم أعوان بركة على رجال القتيل قبل أن يستعدوا للدفاع عن انفسهم ، ليس لانهم صعقوا بما كان يحدث امامهم فحسب ، ولكنهم كانوا ايضا تقد

افرغوا اسلحتهم من الذخيرة لمحاولة اطلاق خفيفة فى الليلة السابقة . وكان الزبير قد تآمر مع بركة ونصحهم بضرورة افراغ السلاح وطمأنهم بالا خطر على حياتهم لان القافلة كبيرة ، كما قال . ووافق الشيخ بركة على حديث الدليل وكان أول من فعل ذلك بغية تضليل الرجال ، وتبعه فى ذلك مرافقوه . وهكذا اخذ رجال عباس على حين غرة ، فذبحوا ذبح الشياة . وبعد أن اجهزوا على الرجال ، سلب اعوان بركة الحلى من النساء ، واشبعوا فيهن رغباتهم الحيوانية ، ثم طردهن الى أبى محمد حيث لفهن شبه عاريات (٥٦) وذهبوا الى الصحراء بكامل متاع وثروة سليمان . وكانت اسرة عباس المنكوبة حتى حلت ببربر حيث تقيم حتى يومنا هذا .

وما أوردته هنا يطابق ما جاء فى التقرير الذى رفع الى احمد باشا . ولكن البعض يروى قصة مختلفة لا بأس من روايتها :

عندما صادف سليمان اغا الشيخ بركة عند الآبار ، لم يكن مع الأخير سوى اربعة رجال . وجلس الرجلان يتسامران ويأكلان فى ود والفة . ثم تحركا الى المدينة حيث تزودا بالماء من هناك لبقية الرحلة . ولكن بينما واصل سليمان ، بقى بركة فى المدينة لانه اتفق مع دليل قافلة سليمان على مكان ينتظرون فيه مقدمه فى الليلة التالية ، وسليمان ورجاله نائمون . وأثناء سيرهم امطرت السماء ، فأمر سليمان التوقف فافرغ السلاح ونصبت الخيام . وفى المساء انطلق الدليل بناقته الى بركة ليعلمه بالمكان الجديد . فتحرك الشيخ سريعا من المدينة واقام بالقرب من سليمان .

انتظر بركة حتى منتصف الليل وتأكد من أن ضحاياه قد استسلموا للنوم ، ثم هجم عليهم فقتل الرجال وسلب واغتصب النساء ، وطردهن رجاله الى ابى حمد بينما اتجه بركة الى كورسكو . ولكنه عندما وصل نقطة تبعد قليلا من كورسكو توقف عند جبل وبعث احد رجاله برسالة الى كبير الركبان فى كورسكو - ويقال انه كان من اقربائه - يطلب منه ارسال كل من معه من رجال مسلحين . ولدى وصول ثمانين من الرجال صفى حساباته

دائة فارس من العبادية الى أبى محمد . وظل الرجال يجوبون الصحراء لمدة يومين بحثا عن المجرمين ، ولكن شح مياه الشرب وضع حدا لاستمرارهم فى البحث . وعندما نقل الخبر الى احمد باشا لم يكترث له كثيرًا لانه كان مشغولا بمسائل اخرى اكثر من موضوع القتلة . اضف الى ذلك انه كان يحلم بمطاردة الزنج بقوات فى تلك الصحراء القاحلة الخالية من مظاهر الحياة ، ففكر فى التريث حتى حلول فصل اكثر ملاءمة .

غير ان القدر لم يشأ ان يبقى الجناة طويلا دون عقاب . فقد كان هناك شيخ يدعى سليمان من قبيلة العبابدة تربطه صلة قرابة بالشيخ بركة ، رغم عداء مستحكم قديم بين عائلتيهما بسبب دماء سفكت من الطرفين . وبلغت الكراهية والبغضاء بينهما حد الشروع فى الثأر لولا تدخل الحكومة ، ولكنهما ظلا يتبادلان الدسائس والمؤامرات حتى اصبحت الدواوين الحكومية مسرحا لها ، فاغتنم الموظفون الفرصة واستفادوا من العلاقات بين العائلتين .

فكر الشيخ سليمان مليا فى جريمة بركة ، وأدرك أن لحظة الانتقام قد حانت تحت حماية من السلطات الرسمية . وذات يوم صحو جميل ، قدم سليمان نفسه الى الباشا وطلب منه اذنا بقتل بركة واحضار رأسه اليه . ولما كان احمد يطمع فى عرض افضل من ذلك فقد بدأ يخشى من انتقام رجال بركة على كل من يعبر الطريق الصحراوى مسببين اضرارا بالغة على مصالح الحكومة والافراد اذا اضطروا الى نقل بضائعهم عن طريق دنقلا

الطويل المتلف . كذلك كان احمد باشا يدرك خطورة انطلاق الحكومة بارسال قوة الى الصحراء على غير الحال مع سليمان الذى نشأ فيها وخبر خباياها . لما تقدم من اسباب ، استجاب الباشا لطلب سليمان ووعد بتزويده ببعض الجنود المغاربة . ولم يكن الباشا متأكدا بصورة قاطعة من قبول سليمان لهذا العون لان الروايات عن قوته من الرجال كانت متضاربة ، فالبعض قال انها تألفت من اربعين من الجمالة ، والبعض الآخر ذهب الى انه كان على رأس نحو مائة وخمسين رجلا على الجمال مسلحين بالبنادق ، وجميعهم من قبيلته العبابدة . وانسحب سليمان الاشارة وتوجه الى بربر حيث رحب بكل من اراد الانضمام اليه ، ثم انطلق الى ابو حمد ، ومنها الى الصحراء للبحث عن بركة .

وكان بركة قد انهى مهمته فى حط لنساء والاطفال عباس الى ابو حمد ، ومضى مسرعا نحو كورسكو . وعند وصوله الى جبل يبعد من كورسكو مسافة يوم ، بعثه برسالة مع احد رجاله الى شيخ الركبان يطلب منه ارسال الاموال التى تخصه قانونا ، لانه كان يتقاضى مبلغا معينا على كل جمل محمل بصفته رئيسا للركبان ، فينفق منه جزء على الخبراء الذين يدلون القوافل الى بربر . وبالمثل كان فى بربر شيخ له مثل نصيبه نظير الاشراف على انتقال القوافل من بربر الى كورسكو . وقام الشيخ من كورسكو بنفسه وسلم الاموال لبركة الذى اطلعه على ما حدث فى الصحراء . وتوجه بركة الى الصحراء واقام معسكرا بين البشاريين بالقرب من اسوان ليرقب ما يحدث بعيدا عن الانظار .

ولما سمع بقدوم سليمان اليه على رأس قوة كبيرة من الرجال المسلحين ، بنى حصنا فوق تل صغير كان عبارة عن حائط بداخله خندق . ثم عدل عن فكرته عندما علم أن سليمان قد طلب تعزيزات من مصر ، وايضا لشعوره بان البشاريين الذين كان يأمل فى الاعتماد عليهم لم يكونوا متحمسين له . وعليه قرر ترك موقعه وتحركه فورا اتجاه القصير بقرب الاحجار الـ...

الحجـاز . وعلم سليمان بكل ذلك فغير اتجاهه سريعا وتبعه . ومضى (٥٤) بـركـة نحو الميناء بكامل سرعته ، وسليمان يسرع الخطى فى اعقابـه . وبعد ايام بلـغ بـمقـدمة تبعد نحو تسع أو عشر ساعات بالجمال مـــن القـصـير .

وعندما أدرك بركة أن سليمان يكاد أن يلحق به ، أيقن أنـه لن يحقق غايته فى الوصول الى الحجاز ، فقـرر أن يصمد ويواجه العدو ، لعله يفلت من الهزيمـة رغم ان العدو يفوقه عددا وعتادا . ووقـف فى شجاعة وهو يشحذ همة رجاله على القتال ، ويمنيهم ، اذا انتصروا بمكافأتهم وتخليصهم من سطوة الاتـراك .

وتحرك سليمان ورجاله حيث كان بركة فى انتظارهم منتصب القامة . ولعلع الرصاص من الجانبين فى معركة استمرت عدة ساعات . وفى نهايـة الامر سقط بركة جريحـا ، فولى رجاله الى الهروب عندما رأوا ذلـك . وحين ظفر سليمان بالشيخ بركة لم يأبـه بأمـر رجاله ، فتركهم وشأنهم .

فى تلك المعركة ، تكبد الجانبان خسائر فادحة بحيث لم يفـرح المنتصر بنصره ، غير أن سليمان وجد ضالته فى رأس بركة فقام بفصله عن جسده ولما يفارق الحياة بعد ، ثم سلخه وحشى الجلد بالتبن . وخلد سليمان ورجاله الى الراحة لبعض الوقت ودفنوا موتاهم (تركت جثث الاعداء فى الصحراء) وجمعوا الغنائم القليلة . أما عن ثروة بركة فقد ذكـر سليمان انه لم يعثر عليها ، والارجح أن يكون قد اخفاها بركة فى مكـان قصى فى الصحـراء ، أو سلمها لاحد اصدقائه ، أو دفنها تحـت الارض قبيل الهجوم عليه . وترك سليمان رجاله فى بربر وشق طريقه الى الخرطوم مباشرة حيث وضع رأس بركة بلحيته وشاربه المميزين امام الباشـا .

حسـن خليفـة ومشـيخة الطريق الصحراوى :-

لم تسع الدنيا احد باشا من الفرحـة .. حين رأى رأس القاتـل .

وفى قمة ثورته تلك استدعى حسن خليفة ، ابن اخ بركة ، والقى برأس برنة على الارض قائلا :

" انظر رأس عمك ! لعلك تتعظ . "

وأدرك حسن من لهجة الباشا انه كان فى غاية السعادة ، فشعر بدهشة فى حلقه لأن جريمة ارتكبها بركة لا تبرر استدعاءه واذلاله هكذا ، فهو برئ لا ينبغى ان يؤخذ بجريرة عمه . ورد عليه حسن بأن من حقه قتل بركة جزاء على جريمته ، ولكن ما شأنه هو ؟ ثم نبه الباشا الى انه يعلم ان لا علاقة له بالجريمة فقد كان فى القاهرة حين وقعت احداثها ، اذن فلم يكن هنالك داع لاستدعائه والقاء رأس عمه بين قدميه . وانتهى حسن من حديثه وخرج . أما رأس بركة فقد علق على عامود فى ساحة عامة لمدة يومين ، وعرض بعد ذلك فى كافة ارجاء السودان تذكرة وعبرة .

عند عودة محمد على باشا الى القاهرة من زيارته للسودان صحبه حسن خليفة دليلا من بربر الى كورسكو ، ومن ثم ذهب مع الباشا الى الاسكندرية . وبعد ان مكث هناك فترة ، عاد الى السودان ابان حادث قتل عمه لسليمان اغا ومجموعته فى الصحراء والذى لم يسمح به الا فى كورسكو . واعتقد حسن فى ذلك الحين ان الباشا لن يتمكن من القبض على بركة فى تلك الصحراء الواسعة ، وخشى ان ينعكس ذلك على معاملته له بقسوة وتكليفه بمهمة اعتقال عمه رغم استحالتها .

ازاء هذا الامر ، ارتد حسن على اعقابه ، واتجه من كورسكو الى القاهرة ، وروى للباشا ما يحدث معبرا عن مخاوفه . وكان محمد على قد اعجب به اثناء عمله معه خبيرا فى الصحراء ، فاعطاه رسالة الى احمد باشا ضمانا لعدم تعرضه لاى ضرر ، ثم الحقها بامر يقضى بتعيينه شيخا على الصحراء بدلا من عمه .

على أن احمد باشا لم يكن راغبا فى تعيين حسن ، فقد سبق أن وعد الشيخ سليمان بالمنصب مكافأة له على رأس بركة ، وها هو سليمان قد أوفى بوعده وينتظر الجزاء . وأمر آخر هو أن سليمان كان قد اخبر الباشا بعودة حسن من كروسكو الى القاهرة بعد سماع اخبار عمه ، فانزعج الباشا باعتبار ذلك محاولة لفرض تعيينه من القاهرة . وصمم أحمد الا ينصاع لأمر الباشا ، فافضى لحسن بعدم التفكير فى تعيينه شيخا على الصحراء لما اعطى من وعد لسليمان ، ثم اشار عليه أن يبقى فى الخرطوم فى انتظار ما يسفر عنه قراره فى النهاية . وجاء القرار اخيرا بتعيين سليمان شيخا برغم أمر محمد على باشا بخلع اللقب على حسن خليفة الذى وضع تحت رقابة شديدة لمنعه من السفر الى القاهرة شاكيا .

كنز بركة :-

فى نفس الوقت الذى عين فيه سليمان شيخا على الصحراء ، أمر احمد باشا حسن خليفة بأن يعمل مع أبناء قبيلته بالبحث عن مكان كنز بركة المخبوء . وأوضح حسن استحالة ذلك الامر لأن عمه لم يكشف سره لأحد . وأصر الباشا على موقفه وهو يجزم بان حسن يعرف مخبأ الثروة بصفته أقرب الناس الى بركة . ثم ما لبث الباشا أن اعلن مسؤولية حسن عن اى شئ سلب من سليمان اذا ، فقد كان يعتقد أن حسن ان لم يكن قد سعى لاخفاء المال بنفسه ، فانه ساعد عمه فى ذلك على اقل تقدير .

وكتب حسن الى بعض ذويه ، لكى يهدئ من ثورة الباشا ، يسألهم البحث عن الكنز فى منطقة البشاريين حيث مكث عمه لبعض الوقت ، لعلهم يعثرون على احد ممن كانوا معه فى لحظاته الاخيرة فيدلهم على المكان . وسلم حسن الخطاب لأحمد باشا كى يبعثه بنفسه . ولقد ضمن حسن هذه الرسائل لأهله اشارة ليفعلوا عكس ما طلب منهم تماما ، فلم يسفر البحث عن أى أثر للكنز .

قطاع الطرق في صحراء بيوضة :-

تواجد في صحراء بيوضة ، في فصل الخريف ، حدث آخر مع الأحداث التي أسلفت القول فيها في الصفحات السابقة . فأثناء وجود محمد علي باشا في فازوغلي (٥٥) ، قدم إلى الخرطوم شخص يدعى سعيد أغا ، بلكباشي في سائر الفرسان الحوايا في دنقلا . كان سعيد أغا قد جاء بعدد كبير من الخيول تخص الحكومة وبعض الأفراد ، وسلع أخرى تجارية لحسابه الخاص . (٥٦) وبعد أن سلم الخيول وباع البضاعة ، عاد إلى دنقلا مع رجاله الذين أوصلوا الخيول إلى الخرطوم وعددهم خمسة عشر رجلا .

وقبل المضي في سرد القصة علينا أن نعلم أن صحراء بيوضة تؤمها قبائل عربية شتى في موسم الأمطار طلبا للمرعى . كذلك ، بما أن هذه الصحراء امتداد لصحراء كردفان ، فإن مجموعات من الفور يقصدونها بإبلهم كل عام ، يتجولون على جنباتها ، ويفترسون كل من يلاقيهم في الطريق لينهبوا بضاعته ودابته . (٥٧) وكثيرا ما يغير هؤلاء القوم على القوافل التي تجوب المسافة بين الدبة وكردفان . ويتربص بعض اللصوص أحيانا بالطريق في جبال عبد الهادي ، وهم لا يقلون خطورة عن رصفائهم القادمين من دارفور .

كانت المجموعة التي نحن بصددها الآن تقطع الصحراء في فصل الخريف . وبعد عشاء ليلتهم بقرب أحد الجبال ، واصلوا سيرهم صباح اليوم الثالث لرحلتهم . وما أن ابتعدوا قليلا عن استراحتهم ، حتى رأوا أمامهم مجموعة كبيرة من قطاع الطرق . ولم يكن هنالك بد من المقاومة ، فأوقفوا القافلة في انتظار الهجوم . ولكنهم كانوا قد أطلقوا جميع ما في أسلحتهم من ذخيرة مرة واحدة قبل الالتحام بالعدو تماما ، فاقتحم أفراد العصابة بهذه السانحة فباغتوهم بالنيران قبل أن يتمكنوا من حشو سلاحهم

مرة اخرى ، فابادوهم ، وسلبوا القافلة بأكملها . وتمكن ثلاثة رجال منهم من النجاة لتخلفهم عن الركب لاداء الصلاة ، فبادروا بصدور الخبر .

وعندما علم احمد باشا بالامر ، ارسل على عجل مائة وخمسين رجلا من الشايقية على الجمال لمطاردة العصابة ، الا انهم لم ينجحوا في مهمتهم ، فقد كانت العصابة أسبق الى الهروب صوب دارفور . ورأى الباشا بهذه المناسبة أنه يجب انشاء قوة من الهجانة قوامها ستمائة من رجال الشايقية لحراسة المرور بالصحراء ، غير أن المشروع لم ير النور .

«حواشي الفصل الثالث»

١ . عام (١٢٥١هـ (١٨٣٥) بشكل أكثر تحديدا .

٢ . قبيل نهاية الحكم المصرى تغير اللقب الى حكمدار عموم السودان . وتحت الحكم الثنائى ظل التردد لبضعة شهور حتى استقر الاسم اخيرا على "الحاكم العام"

٣ . كانت جميع الاقاليم تسمى مأموريات حتى عام ١٨٣٣ حين تغير الاصطلاح الى مديريات لتزيد من هيبة الحكام .

٤ . يحدد موقع جامع خورشيد بالاشارة لبارقة جنوب مكاتب الحكمدارية فى الخرطوم . وكانت قواعد الاعمدة الضخمة من الطوب ما تزال موجودة حتى عام ١٨٤٨ .

٥ . بدأ الاحتكار التجارى للدولة عام ١٨٢٤ ، وكان ينحصر فى بدايته على الصمغ العربى وسن الفيل وريش النعام ، ثم اضيفت اليها مؤخرا النيلة وبعض منتجات البلاد الاخرى .

٦ . بتوصية من خورشيد زود السودان بمائة وخمسين كبشا من اسبانيا . وعند فشل تجربة خورشيد ، أوصى خلفه باستيراد سلالة أخرى من خراف المرينو الاسبانية لتربيتها .

٧ . نوع من الكيل تبلغ سعته حوالى مائتى لترا .

٨ . ٤/ من الاردب .

٩ . يورد الكاتب الاسم "أبوالعباس" كما كان ينطقها البسطاء .

١٠ . لم يخل الحلاوين عن المنازعات حتى تحت الحكم الثنائى . فقد أدى نزاع على قطعة أرض الى قيام ثورة صغيرة عام ١٩٠٨ حين قام حلاوى يسمى عبدالقادر امام ود حبوبة وأتباعه بقتل مفتش بريطانى وعدد كبير من الأشراف والموظفين المصريين .

١١ . كان رئيس كل مجموعة من التجار يسمى "سارى جار" ، وهو تعبير

مستمد من اللغتين الفارسية والتركية "سار / سر" (رئيس) وأعدا الكلمة العربية "عسكر" ... وقد نطقها السودانيون "سر عسكر" على نسق "سر عسكر" بمعنى قائد عسكرى ... الخ ..

٢) من ضمن مرافقى راسيقر كان عالم النبات النمسوى ثيودور كوتشى (١٨١٢ - ٦٦) .

٣) يطلق الاهالى اسم كردفان على الاقليم بأكمله ، وعلى الأبيض ، المركز الادارى أيضا .

٤) تتركز مستودعات الذهب فى جبال النوبة فى تيرا مانداى ، وتاكو ، وانجرو . وكان الذهب ينقل الى جبل شيبون ليصهر ، ومن ذلك جاء تعبير "ذهب شيبون" . ويقال أن كميات الذهب فى المستودعات قد نفدت الآن .

٥) مدير الترسانة فى بولاق ، وهو سوردانى .

٦) لاحظ الانحدار الذى اكتشفه بين بوروبانى والبعثة المصرية ، فرفع تقريرا بذلك الى محمد على فى القاهرة فورا .

٧) دوّن راسيقر نتائج أبحاثه الميدانية فى سوريا ومصر والسودان فى مجلده الضخم :
(Reisen in Afrika "Stutgart, 1841 - 49)
وهو من أربعة اجزاء من بينها أطلس . وتوجد تقارير فى علم المعادن لكل من راسيقر ، وبوروبانى ، ومن . لامبيرت ، وج . ب . د . ارنولد ضمن أوراق (Hekekyan) فى المتحف البريطانى
(Addit. Mss. No. 37466, XIX)

٨) عند عودته من السودان عين بخير الدين بك مديرا لادارة البحر الأحمر ، وهو جهاز حكومى كان يضطلع بمهمة ترحيل المسافرين والبضائع بين الاسكندرية والسويس . وقد جرت العادة أن تستوعب الرتب البحرية فى الجيشين المصرى والتركى ضمن الرتب العسكرية . لذلك فان الكولونيل البحرى ترجمة للأمير الاى البحرى ، وهو تعادل

نقيب بحرى فى الأسطول .

١٩ . كانت النية تتجه الى أن يتولى د . أرنود أمر انشاء البانــــو والفاتينات ، وليفبر التفتيش والبحوث ، وبريانس الاستصـــلاح الزراعى
(Lettres inedites de Charles Lambert, Acropole, Paris, VI, 1931, p. 58).

٢٠ . يقصد الكاتب أنه لم تكن هنالك ثمة تجارب ناجحة على الذهـــب ، ومع ذلك حاز بوريانى على البكويـــة .

٢١ . قاد سليم الحملات المصرية الثلاث من طريق النهر فى سبيل اكتشاف منابع النيل الابيض ، ١٨٣٩ - ٤٢ .

٢٢ . كان اسمه بومقارتنر ، ومات فى الخرطوم لدى عودته من رحلـــــة استكشاف أولى للنيل الابيض .

٢٣ . لا أجد سبيلا لتمييز هذا الرجل فى (البعثة العلمية) لعمر طوسون ، الاسكندرية ، ١٩٣٤ . وقد يكون احمد فايد الذى جاء ذكره فـــى كتاب ج . هيوبرث دين (مقدمة لتاريـــخ التربيـــة فـــى مصـــر الحديثـــة ، ١٩٣٨ ، ص ١٧١) ، وكان فى الاصل من اسطول ويحمل رتبة مساعد نقيب بحرى .

٢٤ . لم تبدأ الحرب مع السلطان العثمانى الا بعد عبور الاتراك لنهر الفرات عام ١٨٣٦ ، بعد شهر واحد من عودة محمد على من السودان .

٢٥ . قبيل مغادرته الاسكندرية لصحبة محمد على الى السودان ، كتـــب بوريانى الى حكومته أن محمد على ينوى اصدار عملات معدنية تحمـــل اسمه على جانب واسم فازغلى على الجانب الآخر ، وذلك بمجرد شحن الذهب المستخرج من فازغلى ، "لأن تلك البلاد لم تكن تابعــــة

للسلطان " وهى عبارة غامضة للنقاش

(Tossitsa to the Foreign minister, Athens from Alexandria, 4/16 August 1838, in A.G. Politis, Le conflit turco-egyptien de 1838-1841, Le caire, 1931,P. 42).

٢٦ . شارل لامبرت بك (١٨٠٤-٦٤) ، أعظم رجال متصوفة سانت سايمون فى مصر محمد على . ومن ضمن أوراقه فى مكتبة الارسنال ، باريس ، - قسم " Fonds Enfantin " خطابات كتبها خلال جولته فى السودان ، نشر بعضها أوريانت . ومثل أغلب الفرنسيين الذين خدموا فى السودان المصرى فانه قد تخرج من معهد البوليتكنيك فى باريس . وهناك تمثال نصفى له من البرونز فى مكتبة الارسنال ، يبدو فيه بلحيته وطربوشه ، ونقشت على قاعدته العبارات التالية :-

'A (Sic) Chacun Selon sa Capacite'
'A Chacun Selon ses Oeuvres'

٢٧ . خريج كلية الطب فى بيزا . ذهب الى مصر عام ١٨٢٥ ، وعمل استاذا فى علم التشريح بمدرسة كلوت بك الطبية فى أبى زعبل ، ثم عين عضوا فى المجلس العام للصحة وطبيبا خاصا لمحمد على . ولقد أشاد به كلوت (تقرير عن الطاعون فى مصر ، ١٨٤٠ ، ص ٢٠-٢١) لانه تضايق منه فيما بعد لجنوحه للتآمر (من كلوت الى لامبرت بك ، ٦ يوليو ١٨٤٤ ، وثائق عابدين ، التصنيف الحديث ، عصر محمد على ، الصندوق (١٥) ، ١٨٤٦-٤٩) .

٢٨ . السكرتيرون والمرافقون العسكريون .

٢٩ . خسرو أفندى (بك فيما بعد) سيكياس الأرمنى (توفى ١٨٧٣) ، شقيق ارتين سيكياس الذى جاء ذكره على صفحة ١٧٧ . تلقى تعليمه فى أوربا على نفقة محمد على ، وعاد الى مصر عام ١٨٢١ . وكان

السكرتير الثانى (ثم الأول) لمحمد على ، وعمل مع ابراهيم وعباس الأول بعد ذلك ، ثم توفى بعد تقاعده (البحشة ، عمر طوسون ، ص ٣٩) .

٣٠ . استيفان أفندى الأرمنى (توفى ١٨٥٩) ، وهو أرمنى آخـر تعلم على حساب الحكومة فى أوربا ، وعاد منها مع خسرو أفنـدى عام ١٨٣١ . وعمل لبعض الوقت مديرا للمدرسة المصرية فى باريس ، ثم مديرا لمكتب الديون الخارجية عام ١٨٥٠ . تقاعد عن الخدمـة عام ١٨٥٧ .

٣١ . قد تكون "زوك" محاولة من الكاتب لتصغير الكلمة التركية (Cik) ، أى (Hasancik) ، حسن الصغير ، وقد تكون مقابلة للكلمـة التركية (Zevk) وتعنى الذى يختال فى مشيته .

٣٢ . ربما فى جبل ستدى على بعد ثلاثين ميلا غربى مدينة سنار .

٣٣ . جورج تيبوت (١٧٩٥ - ١٨٦٩) ، خدم فى الجيش مدربـا ، وكان قد أتى الى السودان أول مرة ليعمل كاتبا لدى ج . ف فايسيرى عام ١٨٣٦ . ثم انخرط مؤخـرا فى التجارة وجمع مادة ضخمـة لحدائق الحيوان فى أوربا .

٣٤ . القنطار المصرى زنة مائة رطل انجليزى تقريبا .

٣٥ . ذكر شارل لامبرت أن حطام الباشا الذهبى قازوغلو اكتنفه الفتور حين اكتشف ان الحصول عليه يتطلب جهدا كبيرا ومضنيا فى غسله ، حبة بعد حبة من الرمال المستخرجة (Lettres inédites de Charles Lambert, Acropole, vi, pp. 18, 59).

٣٦ . ويضيف الكاتب هنا : "لابد أن أبحث فى هذا " . أما التاجـر المعنى هنا فهو جوزيف - مارى - فرانسوا فايسيرى (١٧٨١ - ١٨٤١) ،

الذى لا ينبغى خلط اسمه مع جان بسيوز الذى يظهر فى الجـــزء الثانى من هـــذا الكتاب ، أو مع جمون الاسكندر فايســــيرى (١٨١٧ - ١٨٦٦) ، وكلاهما كانوا تجارا فى السودان .

٣٧ . ولد احمد أفندى يوسف فى القاهرة ، وبعث الى فرنسا لدراسة الكيمياء . وعند عودته عين فى دار القاهرة لسك النقود ، وصار فى النهاية مديرا لها . وصحب دى لاجيرت الى السودان عــــام ١٨٣٨ حيث عمل خبيرا للمعادن فى فازوغلى .

٣٨ . يبدو أن الكاتب قد نسى الاشارة الى القصة مرة أخرى كما وعد .

٣٩ . استولى الشايقية على أراض بين الخرطوم وشندى بعد أن اســـترد منها الجعليون والقبائل الأخرى فى أعقاب انتفاضة السودانيين عام ١٨٢٢ - ٢٥ . وكان احتلالهم هذا ضربا من الحيازة العسكريـــة لأنهم كانوا يعملون فرسانا فى الجيش التركى .

٤٠ . يقصد الشكريـــة .

٤١ . كمبال بن شاوس (كما جاء فى تقارير كثير من الرسالة الاوربيين) - ولكن الاسم الصحيح هو شاويش باجماع الشايقية الذين استجـــوبهم المترجم . ويحتمل أن يكون الاسم قد تفرع من (Cavus) التركية وهى رتبة فى الجيش قبل اعادة تشكيله . وكان كمبال احد ابناء عائلة الملوك الذين قاوموا اسماعيل باشا فى زحفه الـــى سنار عام ١٨٢٠ - ٢١ .

٤٢ . عابدين أغا ، ارنؤوطى منتفخ كبرياء (شاهيرن ، جولات افريقية الجزء الاول ، ص ٤٨) .

٤٣ . يذكر المؤلف السودانى صاحب (تاريخ ملوك السودان ، ص ٣٢) ان كمبال قتل عام ١٢٥٥ هـ (شتاء ١٨٣٩ - ٤٠ تقريبا) دون ذكر

التفاصيل . أما ويبرن فلم يكن فى حاجة الى مثل ذلك المصادر ، حيث سجل كل ما دار فى المعسكر من ثرثرة الى حد القول بأنه قد أصبح من الملاحظ ، فى الغالب على يد مشاة أحمد باشا الذين كانوا ينافرون من الشايقية (جولات افريقية ، الجزء الثانى ، ص ١٧٧) . وقد تولى أحمد باشا تربية بشير ، ابن كمبال على نفقة الحكومة كما كان الحال مع والده كمبال نفسه حين توفى أبوه . ومات بشير ، الذى توفى عام ١٨٦٦ حاكما للحرب فى كردفان تحت الحكم الثنائى بعد نيله لقب البكوية . ويعتقد ويبرن أن حزن أحمد باشا على كمبال كان صادقا (المصدر السابق ، ص ١٧٨) .

٤٤ . هنالك رواية أكثر اقتضابا لنفس الحدث لكاتب اليوميات على الصفحات ١٩٧ – ١٩٨ من هذا الكتاب . (المذكرات)

٤٥ . عبد القادر ود شيخ الزين (توفى ١٨٥٧) ، شيخ مشايخ عموم اقليم سنار ، من قبيلة اليعقوباب قرب مدينة سنار .

٤٦ . أبو ريش ود بشير الغول ، شقيق رجب (ص – ٧١) وشيخ مشايخ فرع الحمدة لعرب أبى روف .

٤٧ . توجد وصفا لها على صفحة (١٦٢-١٦٣) .

٤٨ . يورد ويبرن ادعاء غير مقنع بأنه قد سمم على يد سكرتيره القبطى خليل أفندى الذى اعتنق الاسلام فيما بعد (جولات افريقية ، الجزء الأول ، ص ٥٠) .

٤٩ . جاء فى (من زوايا التاريخ السودانى فى القرن التاسع عشر ، ص ٥ – ٦) للراوية العبادى حسن أحمد حسين خليفة العبادى أن السوق عبر الطريق الصحراوى قبل الاحتلال التركى كانت فى أيدى الفقرا والطيناب ، وحط فرحان من قبيلة العبابدة ، حيث فرضا ضريبة تبلغ ١٠٪ من قيمة البضائع المنقولة بموافقة اسماعيل باشا .

وقد رأى عباس الجندى ،حاكم بربر ،تلك الضريبة باهظة فطلب من خليفة ود الحاج محمد العبادى أن يكتفى بثلاثة دولارات (ريالات) عن كل جمل محمل . ورفض خليفة ذلك وأصر على تلك النسبة عددا أدنى ،ثم أغلق الطريق فساء الأمر بينهما . ثم ما لبث الحاكم أن اقترح على الشيخ الحضور الى بربر للتفاوض .وحضر خليفة وحاشيته حيث آواهم الحاكم فى مخزن بالضريبة (بربر) . وبعد المفاوضات ،وصلت الأمور الى طريق مسدود .

وزاد المشكلة تعقيدا شخص يدعى بالسران ود عمارا من فرع بالسران فى قبيلة العبابدة لارتكابه بعض الجرائم ،فمنحه خليفة حق اللجوء كما تقتضى كلمة الشرف عند العرب . وعندما كان خليفة ورجاله نائمين داخل المخزن ،أمر الحاكم جنوده بوضع أكوام من القش المشبع بالزيت حول المخزن ،ثم أشار عليهم باشعال النار فيها . ومات خليفة ومائة واثنان وثلاثون رجلا من مختلف القبائل . وكان عباس قد استعان بتعزيزات من الحكمدار خورشيد الذى قاد القوة بنفسه الى بربر ،ثم عاد بعدها الى العاصمة . حدث ذلك عام ١٢٤٣هـ (١٨٢٨) .

ولقد عاش خليفة لفترة من الوقت رجلا مشبوها . ففى عام ١٨٢٦ شكاه حاكم اسنا لدى الادارة فى القاهرة ووصفه بالنفاق والسرقة لأنه اتهم بغش العرب فى ايجار الجمال ،وباع السلع القادمة بأكثر من قيمتها المحددة (وثائق عابدين ،دفتر ديوان الخديوى الى خورشيد - حاكم سنار آنذاك - ، ٢٠ ربيع الأول ١٢٤٢ هـ " ٢٢ أكتوبر " ١٨٢٦) .

وأرسل خورشيد تقريرا الى القاهرة ضمنه قوله أن رجال القبائل يريدون تركة شيخا للطريق الصحراوى خلفا لخليفة (وثائق

عابدين ، الحجية المصرية ، "قرارات المجلس" ، قابل (٥) رقم ٤ ، ٨ ذو القعدة ١٢٤٣ (ف ٢٢ مايو ١٨٢٨) . وقد وافقت القاهرة على ذلك وبعثت شالا رومبا من الكشمير لبركة (المصدر السابق ، ديوان الخديوى "المكتب التركى" ، سجل الرسائل رقم ٧٤٤ ، رقم ١٩٧ فى ٢٠ ذى القعدة ١٢٤٣ هـ - "٣ يونية ١٨٢٨") .

٥٠ . آبار مرّات .

٥١ . كانت الازرار تصنع من لب ثمارها . ويوجد منخفض فى قمم جبال المدينة تتجمع فيه المياه .

٥٢ . يتذكر العبابدة هذه الواقعة . ففى خطاب الى المترجم فى ٢٨ ابريل ١٩٤٠ ، ذكر السيد احمد حسن خليفة العبادى أن بركة وزع مال سليمان وثروته على رجاله . غير أنه عامل النساء باحترام وارسلهن الى مصر تحت حراسة من بعض زعماء العبابدة الموثوق بهم .

٥٣ . وهنالك رواية - الرواية العبادى . كان بركة فى أبى حمد عندما قتل أخوه خليفة . وعند علمه بما حدث ، توجه الى مكان ايسمرى فى الصحراء قرب آبار مرات ، وظل هناك فى انتظار الثأر . أما سليمان أغا فقد بارح بربر مع حرس من خمسين جندى زوده بهم محمد على باشا أثناء عبوره ببربر .

وكانت القافلة تتألف من مائة جمل بقيادة ثلاثة من العبابدة من فرعى الجهيلاب والمحج . وبايعاز من بركة انحرف المرشدون بالقافلة خاسة الى بقعة تسمى القلواوية (وتسمى أيضا طلعت الجندى) حيث انقض عليهم بركة ورجاله . والقد تمكن أربعة عشر رجل منهم من الفرار الى جبل رأفت ، الا أن بركة استطاع اعادتهم الى مكان المجزرة وقتلهم . واحرقت جثثهم بنيران حطب الأشجار

(المصدر السابق ، ص ١٠) .

٥٤ . يزعم العبابدة أن بولة لم يفكر فى الهروب الى القصير ، وانما بقى فى " الجزء الذى يخصه " من الصحراء (خطاب احمد حسن خليفة العبابدى الى المترجم ، ٢٨ أبريل ١٩٤٠) .

٥٥ . قائد سرية من الفرسان غير النظاميين (بلكباشى بالتركية) .

٥٦ . كانت التجارة الخاصة مسموحا بها آنذاك بالنسبة للضباط والموظفين باعتبارها مصدر دخل مكمل للمرتب . ولأن احتكار التجارة صفة لم يبد عيبا فى ذلك الوقت ،لم يكن هناك حاجة الى تبريرها .

٥٧ . هناك احتمال فى أن يكون هؤلاء المغيرون من القرعان ، وهى قبيلة هجين من التيبو والزنوج ، ويتحدثون لهجة التيبو ، ويحتلون الصحراء شمال دارفور ووداى . ولا تزال فرق الاغارة من القرعان تجتاح شمالى بيوضة . وفى السنوات الاخيرة توغلت هذه القبيلة حتى مشارف حوض النيل .

٥٨ . زنوج من جبل حرازة ، على الطريق الجمال بين الدبة وكردفان .

الفصـــــــل الرابـــــــع

الاستعداد لغزو التاكـــا :-

بعد وقوع الاحداث التى وصفناها ، جمع احمد باشا جيشــا لغزو التاكا ، وهى منطقة تقع شمال شرق الخرطوم بين نهر عطبرة ، والحبشة والبحر الاحمر . ولقد فشل خورشيد باشا فى السيطرة عليها عام ١٢٤٧هـ (١٨٣١ - ٣٢) .(١)

ومن اجل ضمان وصول الجنود الى هناك فى لياقة عاليـــة ، فكر احمد باشا فى أن يعطى كل جندى حمارا ، فصودرت الحمير مـــن سكان الخرطوم وضواحيها . ولكن مئات من الحمير فقدت اثناء عملية التوزيع على الجنود . ولم تصرف هذه الدواب للجنود مجانا فقد خصم احمد باشا مبلغ خمسة وسبعين قرشا عن كل حمار ، بينما لم يدفع للمزارعين اى تعويض عن الدواب التى سلبت منهم قســرا . وحتى الجنود لو انهم ساروا الــى التاكا على الاقدام ، فقد كان ذلك افضل لهم من التضحية بمرتب خمســة شهور (خمسة عشرة قرشا للشهر) ، تفاديا عن صعوبة الحصول علــى العلف .

واثناء الاستعداد للحملة ، ارسل احمد باشا الى يوسف بـــك قائد الفرقة الاولى فى كردفان ليبعث بالكتيبة الثالثة لمركز التجمع فـــى الخرطوم . وكانت هذه الكتيبة قد جاءت الى السودان مع الفرقة الاولى عام ١٢٤٦هـ ، وتم تعزيزها عدة مرات .(٢) وكما هو الحال مع الفرقة نفسها ، كان جميع الجنود فى الكتيبة كانوا من الزنوج الذين ما برحوا كردفان مطلقا الا فى حالة الاغارة على الزنوج فى الجبال المجاورة ، ثم العـــودة الـى مراكزهم مرة اخرى . والامر الآخر هو انهم كانوا جميعا متزوجين ، سمحت لهم الحكومة ببساطة الاستقرار فى منازل خاصة لان احتمال استدعائهم الـى القاهرة كان بعيدا .

شعر هؤلاء الزنوج بما كان يجرى من استعدادات ، فابدوا عدم ارتياحهم ، وهددوا بالتمرد ان هم اجبروا على التحرك نحو الخرطوم . ونصح يوسف بك النزول الى رغبتهم تفاديا للتمرد ، ثم وعد بالرد على الباشا بانه فى حاجة اليهم نظرا لتردى الاحوال الامنية فى الاقليم .

وبعد حوالى مائة يوم ، امر يوسف بك جنوده بتسليم الاسلحة للمخازن بحجة انها قديمة يجب ارسالها الى القاهرة والحصول على اسلحة اخرى جديدة بدلا عنها . وسلمت الاسلحة وطال انتظار الجنود للاسلحة الجديدة دون جدوى . ثم صدرت اوامر صارمة لجنود الكتيبة الثالثة بالتحرك تحت التهديد بضربهم وتوزيعهم بالقبائل المنكودية . وهكذا وقعوا فى الفخ ، فما وجدوا بدا من التحرك مع اسرهم بعد ان باعوا ممتلكاتهم التى عجزوا عن حملها . أما الاسلحة فقد صرفت لبعض الضباط لانهم لم يعترضوا على الاوامر ، شأنهم فى ذلك شأن الضباط . وساروا الى الخرطوم تحت حراسة مائتين من الفرسان ، وسلمت لهم الاسلحة من جديد عند وصولهم .

الزحف الى كسلا :-

وجاءت الكتيبة الثامنة فى الزمن المحدد عن طريق البر وعسكرت فى (٣) قبة خوجلى . وبعد ايام قلائل انضمت اليها الكتيبتان الثالثة والخامسة مع مجموعتين من الفرسان بقيادة شخصين تحت ضبط ملة قربى ، ويعرفان بالارشم . وعند نهاية ذى الحجة ١٢٥٥هـ (فبراير / مارس ١٨٤٠) شدت القوات المشتركة الرحال صوب الدامر حيث توقفت فى انتظار الباشا الذى انضم اليهم بعد ايام وقد اصطحب حسن خليفة حتى لا يذهب فى غيابه الى القاهرة ويشكو لدى الادارة المصرية .

على ان تحوط احمد باشا راح ادراج الرياح لاصراره على حسن خليفة

ليمضي في البحث عن كنز بركة عند وصوله الى كسلا . واعاد حسن رده القديم بانه لا يعلم شيئا عن الكنز ، ثم انه لا يستطيع ان يبحث عنه وهو مراقب . وطلب من الباشا اطلاق سراحه ليذهب بنفسه الى الصحراء وينتزع الكنز من البشاريين . وتجددت شراهة الباشا ، فسمح له بالبحث عن الثروة التي طالما تمنى الحصول عليها . وفر حسن هاربا عن طريق بربر الى الصحراء العريضة ، وشق طريقه وسط منطقة البشاريين الى القاهرة بعيدا عن العدو .

وصل احمد باشا الى الدامر ، وهي قرية كبيرة على مصب نهر عطبرة بجيش يقدر بحوالي سبعة آلاف ونصف مقاتل ، واربعة مدافع . وزحف في محاذاة نهر عطبرة حتى قوز رجب وما بعدها دون أي عائق . وحط الرحال بعد بضعة ايام في كسلا ، وهي ايضا قرية كبيرة تبعد مسافة ساعات من غابة كثيفة يصعب اختراقها . ومكث احمد باشا هناك اياما للراحة وجمع بعض المعلومات عن موقع العدو وخطوط المواصلات .

الهدندوة يقاومون :-

وذات صباح ترك احمد باشا المعسكر تحت الحراسة بقوته مجهزة بمدفعين في محاولة لاختراق الغابة من عدة جهات . وقام العدو بصده في عنف وتفوق على الفرسان والمدفعية بفضل الحواجز الطبيعية ، فلم يبق لاحمد باشا غير الحملة في مواجهة الهدندوة الذين خبروا المنطقة وبرعوا في المناورة فيها . عندئذ يجمع احمد شتات رجاله من الانسحاب واتخذ لنفسه مكانا فوق الصخور المطلة على الغابة واخذ يطلق النار عليها . وقد ذهبت جهوده سدى لان الهدندوة تستروا بالاشجار فلم يصبهم سوء . وعاد احمد الى المعسكر في المساء عودة محارب مهزوم ، وحصن مواقعه ببناء زريبة من الشوك .

وبعد ايام أخرى ، تحرك الباشا من المعسكر لمعاودة الهجوم على

الاحراش عن طريق منعطف آخر . ورغم ضيق المساحة التى يستحيل معها اجراء المناورات اللازمة ، الا انه استطاع الوصول الى قرية فى منتصف الغابة خالية تماما من السكان ، فاحرق المنازل ومزارع الذرة والدخن حولها . ولما باءت محاولاته لقطع الاشجار بالفشل ، جرب احراقها لكنها كانت خضراء رطبة لا تندلع فيها النيران .

وأعيت احمد حيل الحرب ، ففكر فى استعمال الخديعة . وكتب الى زعيم المهدنة وكان يدعى محمد دين (٤) عن استعداده للتفاوض من اجل ابرام اتفاقية سلام . ورد محمد دين بانه لن يفكر فى ذلك مطلقا ، وطلب منه العودة الى وطنه بدلا عن الحديث عن السلام . ثم اعلن صراحة عدم رغبته فى الحديث اليه لانه لا يثق بالاتراك . واثناء ذلك كله كانت المعارك تدور لصالح المهدنة ، فقد ظلوا يشنون غارات ليلية اقلقت راحة الغزاة ، وتوغلوا حتى نهر عطبرة لضرب خط الامداد فى قوز رجب . وفى احدى تلك الغارات ، الحقوا اضرارا جسيمة بنحو اربعمائة من المغاربة كانوا يحرسون هذا الخط .

ومع ذلك ازداد احمد تصميما على هزيمة القوم . لقد جرب الحرب ثم الخديعة ، فلا بأس من أن يجرب ورقته الاخيرة الا وهى الدين . فاستدعى قاضى الخرطوم (٥) الى كسلا ووجهه بالكتابة الى الفكى (٦) كان موضع احترام الناس هناك .

ولقد تضمن الخطاب الى الفكى تذكيرا بعدم جواز قتل المسلم لاخيه المسلم لانه امر بغيض لا يرضى الله ، فالقرآن نفسه يأمر بمحاربة الكفار وحدهم . وجاء فى الخطاب أن احمد باشا لم يأت الا بأمر من السلطان ، حامى الاراضى المقدسة ، والذى ما فتئ يناشد اتباعه جميعا الوقوف صفا واحدا ضد الكفار . الا انهم ، خلافا لذلك ، ضلوا الطريق القويم ، وما ادركوا عظمة السلطان ، وهو من بعثه الله ورسوله على الارض لقيادة المؤمنين وحمايتهم من الاعداء . وتمضى الرسالة لتقرر انه رفقا بـ الارادة

الالهية فان دفع الجزية للسلطان واجب ، سيما وانها لا تمثل الا جزءا ضئيلا من ارباحهم ومنتجاتهم . غير أن الجزية لم تقدم للسلطان بمستوى اللباقة ، ودفعت بطريقة وذالة . ثم اضاف الخطاب أن احمد باشا ما جاء الا لهذا الغرض ، وناشد القوم ان يثوبوا الى الرشد ويحفظوا التهدئة . وعبر القاضي عن أسفه للدماء التي سفكت بين اخوة جميعهم مؤمنون ، وقال انه قد سمع الناس يتحدثون عن الفقي باعتباره مثاليا في اسلامه وشهودا له بالتقوى والصلاح ، يقيم الصلوات في مواقيتها ، ويصوم رمضان ، ويؤدي الزكاة في سخاء . لذلك ، قال القاضي انه يشعر بالاحترام نحوه ، ورجو الكتابة اليه آملا أن يعمل على احلال السلام بين الجميع .

وضمن القاضي رسالته رجاء للفقي أن يقنع محمد دين بالحضور لمقابلة الباشا تحت مسؤوليته الشخصية عن أي ضرر يلحق به . بل أن الباشا ، على النقيض من ذلك تماما ، سوف يرحب بمحمد دين كأخ ، لانه مثله مثل اى مسلم قلبه عامر بالحب لا يميل الى استعمال الشدة تفاديا لاراقة دماء المسلمين . وختم القاضي الرسالة قائلا أن الباشا قد اقتبل حسين علم بنيته في الكتابة الى الفقي ، ثم ارسلها مع رجل دين من انصاره ومصحوبا مصحفا حسن الخط فخم التجليد .

وحين تسلم الرسالة والمصحف ، حدث الفقي كل كلمة مطلبها بسراح القاضي ، وشرع في استعمال نفوذه في اقناع محمد دين وبقية الشيوخ بالاستسلام . وتسلم محمد دين ، في نفس الوقت ، خطابا من الباشا مفاده انه لم يلجأ اللجوء الى العنف احتراما للقاضي ، واعرب عن أمله في أن يستسلم بالتي هي احسن ، لانه لم يأت الا طاعة لأمر الله . واضاف بانه لا يقصد به سوءا ، وانما يسعى للتفاهم معه وترتيب امر الاتاوة التي لا يراها مهينة في حق المؤمنين .

لم يكن محمد دين ولا بقية الشيوخ يعلمون شيئا عن الاتراك ، فطبيعة

لهم التعامل معهم . لذلك اجتمعوا فيما بينهم وقرروا مقابلة الباشا فى معسكره من اجل تخفيض الاتاوة الى اقل ما يمكن . وبعد ثلاثة أيام حضر الى المعسكر اثنان من الشيوخ يرافقهم احد اقرباء محمد دين ، فاستقبلهم احمد باشا فى كرم وبشاشة . وبعد أن تناولوا معه الطعام ، منح كلا من الشيخين جبة حمراء والطاقية وسيف . وكان من نصيب قريب محمد دين جبة حمراء موشاة بالذهب مع الطاقية هذه التى يلبسونها فى السودان [٧] ، وهى من التشمير ، وسيف اكثر جودة ليحمله هدية لمحمد دين [٨] .

واجتمع بهم الباشا ، الا انهم لم يتوصلوا الى حل يرضيهم . وعبر الباشا عن اسفه لغياب محمد دين ، وبعث له برسالة رقيقة يرجوه فيها الحضور . واخيرا اقتنع محمد دين ، وذهب الى الباشا الذى استقبله بحفاوة بالغة واغدق عليه الهدايا ، غير انهما لم يتوصلا الى اتفاق فى حينه . وفى اليوم التالى ابرمت الاتفاقية ، فكانت اشبه بالوفاق بين الذئب والحمل . بعدها بقليل ، اعتقل محمد دين واقتيد وحمر يوسف فى اغلاله . ثم امره بان يكتب لشيوخه بضرورة حضورهم ودفع الاتاوة المقررة . والذى محمد دين كتب اليهم محذرا أياهم من مثل هذا العمل ، أما هو فقد يلحق به الكبر حدا لا يخشى معه الموت . وبذلك انتهت أية علاقة تربطه بالاتراك .

تجتاح هذا الجزء من البلاد سيول هائلة فى فصل الخريف ، تنحدر من الجبال على الحدود الحبشية . وتغمر المياه المتدفقة كلها على هيئة فيضانات ، ثم تصب فى النهاية فى البحر الاحمر قرب سواكن [٩] . أما خلال الفصول الجافة الاخرى ، فان المجارى تبقى خالية من المياه . ويلجأ الناس هنا الى تغيير اتجاه المياه اثناء الفيضان بحفر قنوات لرى اراضيهم كل عام .

واتجه تفكير احمد باشا الى اخضاع الاهالى عن طريق حرمانهم من الماء الذى يمثل عصب الزراعة عندهم . فأنشأ سدا عاليا على نهر القاش لتحويل تدفق المياه على المنطقة . على أن المجهود الضخم الذى بذله

احمد باشا لمدة شهرين صار أثرا بعد عين ، حيث جرفت النيضان السد والحواجز المساعدة ، فاصبح السد مصدرا لكثير من الاغانى الساخرة .(١٠)

وكلف احمد باشا كاشف كردى سليمان بمهمة اقتياد محمد دين الى الخرطوم تحت حراسة مائتين من الفرسان . وعلم الهدندوة بذلك وعقدوا العزم على قفل الطريق لتخليص زعيمهم . غير أن الزمن لم يسعفهم لسوء حظهم ، فقد كان سليمان عند نهر عطبرة قبالة قوز رجب قبل الضحى ، حيث عبر النهر واسرع الخطى نحو الخرطوم . أما الهدندوة فقد وصلوا الى نفس المكان عند الظهر ، وادركوا عندئذ مصير محمد دين ، فاطلقوا العنان لثورتهم حيث اشعلوا النيران فى الشكات على الضفة اليمنى للنهر ، واسروا بعض رجال الفرسان الذين تأخروا عن القافلة لحمل معدات العسكر . وعند وصول الحرس الى الخرطوم زج بمحمد دين فى السجن بسراية الباشا حيث ظل عدة شهور يتضور جوعا .

اغارة سليمان أبى نمر على البشاريين ومصرعه :

فى هذا الوقت ، صدرت توجيهات من احمد باشا للشيخ سليمان (قاتل بولة) ليقود غارة على البشاريين . وكان سليمان نفسه هو المحرض للباشا بهذا الامر مع الوعد باسر شيوخ البشاريين اجمعين ، فصادف ذلك هوى فى نفس الباشا .

وتوجه سليمان الى بربر وجمع نفرا من افراد قبيلته العبابدة مع مجموعة من الشايقية . وخرج بقوة تتألف من مائتين رجل يركبون الجمال ومدججين بالسلاح . وباغت سليمان البشاريين بهجوم كاسح اصابهم بالشلل والحد من المقاومة ، فلاذ بعضهم بالفرار وقتل الباقون . وعاد سليمان ادراجه بعد هذا الانتصار محملا بالاسلاب من الجمال والنساء والاطفال ، بل وبعض الشيوخ ، واستطاع الوصول الى ابى حمد قبل ان يفيق البشاريون من الصدمة فيلحقون به . ولم يترك البشاريون سليمان ، بل

تابعـــوه من كثب وهم يتحينون اللحظة المواتية للانقضاض عليه ، فقد صرفوا النظر عن مهاجمته فى المناطق الآهلة بالسكان خوفا من انضمـــام الاهالى لقواته ، فيتفوقون عليهم عددا رغم كثرتهم .

ومن ابى حمد سار سليمان فى محاذاة النيل فى اتجاه بربر ، بينما كان العدو الخفى يرصد تحركاته على يساره فى حذر شديد ليغتنم أول فرصة للهجوم . وبينما كان سليمان ورجاله فى الاطراف الجنوبيـــة مـــن منطقة الرباطاب ، وهى المنطقة التى تقع بين بربر وابى حمد ، وبعـــد أن بارحوا أبا حمد بثلاثـة ايام ، رأوا مجموعة صغيرة من البشاريين عنـــد سفح جبل ضخم منزوين فى الصحراء على يسارهم . وعندما شعر سليمـــان بسالة القوم ، ارتكب غلطة قاتلة حين انعطف عن الطريق يسارا نحــــو الصحراء لملاقاتهم . وأدرك البشاريون ان حيلتهم قد نجحت ، فوقفوا فـــى انتظار قدوم سليمان الذى سعى بنفسه الى الكمين . وما أن بلغ المكـــان حتى حوصر بعدد هائل من العدو كان يختبئ خلف الجبال .

ولم يكن هنالك وقت للتراجع فقد احاط به العدو تماما ، فقاتل فى شجاعة حتى هزم . وقتله البشاريون مع عدد كبير من رجاله ، وفر من نجا منهم الى ارض الرباطاب . هكذا انتقم البشاريون من الشيخ سليمـــان ، واستردوا الشيوخ الذين اسرهم ، والاسلاب من ابل ومتاع ، ثم عادوا الى خيامهم فى الصحراء .

نهايـــة المحركـــة فى كســـلا :

نعود الآن الى ما كان يدور فى المعسكر بكسلا ، فرغم ان الهدنـــدوة وغيرهم من القبائل الاخرى كانوا قد يئسوا من مصير محمد دين واعتبروه مفقودا ، الا ان ذلك لم يزدهم الا اصرارا على عدم الخضوع للاتـــراك . ولكى يبرهنـــوا على ذلك عمليا ، ظلوا يشنون الغارات عليهم ليلا ونهـــارا

وتوغل المشاة داخل الاشجار بينما بقى الفرسان بالمسارح ، وذلك بغرض طرد الثوار من الغابة والقضاء عليهم بسلاح الفرسان . ونالت هذه الخطة نصيبا من النجاح ، ولكن العدو ، مع ذلك ، قاوم بشراسة وذكاء وتكبد الغزاة خسائر كبيرة . فقد وصل فرسان احمد الى مساحة خالية من الاشجار كانت تستخدم مصاطب للذرة والدخن . وأراد الفرسان المناورة فوق تلك المساحة دون أن يتبينوا الحفر ، فوقعوا فيها بخيولهم ، وانقض عليهم العدو واجهز على غالبيتهم .

وكاد أن يلقى حتفه بهذه الطريقة ضابط يقال له عمر كاشف خاربطلى كان الباشا يرشحه حاكما لكسلا ، لو لا أن انقذه بعض الشايقية . فقد هوى الرجل بحصانه فى حفرة ، فاسرع اليه بعض الرجال من الهدندوة للقضاء عليه ، سيما وكان يبدو من هندامه انه من كبار القوم . وتصدى للرجال اثنان من ماليك الضابط فقتلا . وحاول الضابط الخروج من المأزق ، ولكن اجزاء جسمه تشابكت بالحصان فما وجد طريقة للفكاك . وهرع اليه اعداؤه وحاول احدهم قطع رأسه بطلوزة وسبب جرحا عميقا فى مؤخرة عنقه امتد من احد الشريانين السباتيين الى الآخر دون قطعهما ، فقد انحرفت الطلوزة مع حركة الحصان ليتقذه رجاله من الذبح . وكان من الممكن أن يشهد ذلك اليوم نهاية سلاح الفرسان بكامله لو لا أن استدعى احمد باشا المشاة لنجدتهم . وجاء افراد المشاة وانتشلوا الرجال من شراك الموت تلك ، وحملوا عمر كاشف الى المعسكر .

اما افراد الفيلق الآخر الذين كانوا داخل الغابة ، فقد دافعوا عن أنفسهم في معاقلهم الضيقة مع أن العدو كان يحاصرهم من كل ناحية . ورغم انهم نجحوا في استدراج بعض افراد الهدندوة الى خارج الغابة حيث كان سلاح الفرسان يقف لهم بالمرصاد ، الا أن كثيرين منهم اختفوا خلف الاشجار الكثيفة ، فذاق جنود الباشا الامرين من عدو لا يرونه . صحيح أن الجيش ظل يطلق وابلا من الرصاص ، ولكن دون هدف ، اذ لم تصب الطلقات غير القليل من افراد العدو وكانت معظم الطلقات بين الاشجار . وعند حلول الظلام ، فقد احمد باشا الامل في حسم المعركة لصالحه ، فأمر بانسحاب الجنود الى المعسكر . وانتهت المعركة بخسائر كبيرة خصوصا في جانب قوات احمد .

وفي اليوم التالي بادر احمد باشا بالهجوم على عدوه من جهة اخرى . وحالفه الحظ هذه المرة ، فتوغل داخل الغابة اكثر مكتسحا العدو ، فدمر قريتين واحرق المزارع حولهما . ثم عادت قواته في المساء الى المعسكر وقد لحقت بها بعض الاضرار .

ووجد الباشا جنوده في حالة افضل مما كانوا عليه في اليوم السابق ، فصمم على مواصلة الضغط على العدو . لذلك اعد قوة مجهزة بمؤن تكفيها لمدة خمسة ايام ، وتحركت بها بعد أن احكم الحراسة على المعسكر . ولم تجد القوة مقاومة تذكر اثناء توغلها داخل الغابة لمدة ساعتين تقريبا .

وكان الارهاق واليأس قد اصابا الهدندوة نتيجة لسياسة النفس الطويل التي اتبعها الاتراك معهم خلال فترة امتدت ثمانية شهور . ويبدو انهم صاروا يتمنون ان يقبل احمد بالشروط القديمة لاحلال السلام ، فبعثوا اليه نفرا يعرضون عليه التفاوض بشرط واحد هو أن يتراجع بقواته الى المعسكر أولا . وفي اليوم التالي تم التوصل الى صيغة اتفاق يقضي بان يبقى اثنان من الثمانية مع ترتيبهما في المنطقة ، وان يدفع الهدندوة ضريبة سنوية من الملابس والابقار والجمال والذرة بمقدار يكفي لاعاشة الجنود والموظفين

وهكذا ابرمت الاتفاقية ، ووافقت عليها الحكومة التركية ، وعين احمد باشا ابو ادان المدندوة شيخا للمشايخ بدلا عن محمد دين .[11] ومن ثم أوكل أمر القيادة العليا للاقليم الجديد ، الذى اصبح مديرية كباقى المديريات ، الى عمر كاشف ، وصارت كسلا عاصمة لها ومقرا للكتيبة الثالثة التابعة للفرقة الاولى بالاضافة الى مائتين من الشايقية ، وعدد مماثل من المغاربة والاتراك .

فرغ احمد باشا من مسألة التاكا وتوجه الى الخرطوم ما بين نهاية شعبان وبداية رمضان عام ١٢٥٦هـ (نهاية اكتوبر ١٨٤٠) مع بقية افراد جيشه الذين اصيبوا بالحمى والالتهابات المختلفة بسبب سوء الطقس ونقص فى الاسرة . فقد كان الجنود يتوسدون الثرى نحو ثمانية اشهر ونيف فى عام اتسم دون غيره بالامطار الغزيرة والسيول التى غمرت المعسكر . وطاف البحث واصيب من بقى منهم على قيد الحياة بقروح فى الارجل ، وهو نوع من الامراض منتشر فى اليمن .

لدى وصوله الى قوز رجب ، سلم احمد باشا القيادة الى زهراب بك الذى كان قد عين لتوه قائدا للفرقة الجديدة التى انشئت فى الخرطوم ، ثم واصل سيره مع قوة صغيرة من الفرسان الى منطقة الدامر ، بينما عاد الجيش القادم من التاكا الى الخرطوم عن طريق الدامر . وارسلت المراكب الى الدامر لنقل الجرحى والامتعة الى الخرطوم .

واقام الجيش معسكرا فى قبة خوجلى ، ومن هناك عبرت الكتيبة الخامسة النيل لتستقر فى ثكناتها بالخرطوم . كان ذلك فى النصف الاول من شهر شوال . اذن فقد قضت الكتيبة احد عشر شهرا خارج الخرطوم . وعادت الفرقة الثامنة الى مقرها فى ود مدنى ، بينما افترقت عنها الفرقة الاولى هناك وواصلت السير حتى مركزها فى سنار . أما مجموعات الفرسان المختلفة فقد تم توزيعها على مراكزها المنتشرة بين الحلفاية وبربر . واخيرا وصلت المراكب تحمل الجرحى الذين بلغوا اقصى درجات الوهن ، السو

الخرطوم وصل منهم حوالى الف وثلاثمائة ما بين جريح ومريض الى المستشفى المركزى .

انتفاضة رفاعة ابو روف :

فى شهر ذى القعدة ، اى بعد شهر من عودة الجيش ، عاد احمد باشا بعد ان أكمل جولاته ابتداء من قوز رجب فالدامر ، فالرصيرص ثم الخرطوم . والذى نقف على دوافعه لتلك الجولة ، علينا أن نستعيد ما كان يدور على مسرح الاحداث قبل مغادرته الى التاكا .

كان عرب رفاعة فى حالة عصيان قبل ان يتحرك الباشا الى التاكا ، وذلك بسبب موت الشيخ سليمان ابو روف فى الخرطوم كما اشرت سابقا . ومما زاد الشعور بعدم الرضا تصريح اقرباء الشيخ لاشياعه بانه قد مات مسموما . فصار التنقل فى المنطقة محفوفا بالمخاطر رغم ان رجال القبيلة لم يتعرضوا لاحد بسوء .

وأراد احمد باشا وضع حد لهذا التمرد المتصاعد قبل ان يتوجه الى التاكا ، فامر فرهاد بك بالتوجه الى الرصيرص لبذل كل ما فى وسعه فى تهدئة الخواطر . وتحرك فرهاد بك من ود مدنى وضرب خيامه فى الرصيرص لانها بلدة مهجورة ليست بها منازل . وبدأ فرهاد يستجوب كل من تقع عليه عينه من الناس عن اسباب السخط والتمرد . وقد وجد صعوبة بالغة بادئ الامر فى التفاهم مع افراد القبيلة ، ولكنه استطاع اخيرا الالمام بالدوافع الحقيقية . لقد تبين له مدى تأثير أصدقاء وأقرباء سليمان على الناس ، فشرع فى الحال فى استدعاء هؤلاء الاقرباء تحت وعود كاذبة وعندما حضروا جميعا ، اوثقهم بالقيود وقتل منهم سبعة رجال .

وتمكن احد أصدقاء سليمان ، وكان يدعى محمود ، من الهروب الى احمد باشا فى التاكا شاكيا له سوء معاملة فرهاد بك لهم . وتوجس

الباشا خيفة من نفوذ محمود التسوق بين افراد قبيلته الضخمة ، خصوصا وقد كان في ذلك الوقت متورطا في حرب التاكا بكامل جهده . لذلك اراد ارضاء محمود اتقاء لشره ، فاعطاه رسالة الى فرحان باك . كانت الرسالة كلها اساءات موجهة لفرحان ، وتهديدا بترقيه اقصى العقوبات عليه ، اذ كيف يتجرأ على قتل اشقاء واقرباء محمود ؟ وفي الرسالة تذكير لفرحان بانه لم يوفد لتلك المنطقة لقتل افراد القبيلة وانما لتهدئة الناس واحلال السلام . ثم ضمن الرسالة بعض العبارات الاخرى التي تسوء الى فرحان ، واشار على محمود ان يحملها مفتوحة الى فرحان بك بيده .

اعتقد احمد باشا حين ارسل الرسالة بهذه الطريقة أن فرحان بك سوف يقرأ ما بين السطور فيفطن الى مغزاها . غير انه كان مخطئا في اعتقاده ، لان فرحان بك ، وقد جاءته الرسالة مفتوحة ، لم يستبعد أن يكون كثير من الناس قد اطلعوا عليها . والرجل ، فضلا عن ذلك ، لم يكن من النوع الذي يتحمل مثل هذه الاساءات حتى ولو كانت من الباشا الحاكم نفسه . فالتفت الى محمود ضاحكا وقال :

" يريد احمد ان يبدو في مظهر الانسان النظيف ، ويريد في نفس الوقت ان يحظى بالنزالة . وأعلم انني لم افعل ما فعلت الا بتعليمات منه . واذا اردت ان تتأكد من صدق ما أقول ، فهاك اقرأ . " وناوله الرسالة نفسها .

وقرأ محمود الرسالة ، وتيقن انها خادعة فعلا ، وشعر بالخوف . فأزال عنه فرحان مخاوفه بقوله :

" يهدف احمد من هذه الرسالة الى ان اعاملك مثل اخوانك . وربما قرأتها لاحد ، وقد اعطاك اياها مفتوحة . ولكنني اطلق سراحك حتى لا يبدو احمد عادلا ، ويظلمني الناس بالخيبة . "

وجلس فرحان بك وكتب رسالة غاضبة الى احمد باشا محتجا على عبارات -

التعيين التى ضمنها رسالته ، فهو لم يفصل اكثر مما أمر به . ثم اقترح على الباشا ان يبعث بشخص آخر يقوم مقامه ان كان يرغبه تنفيذ تعليماته .

فرهاد بك يموت مسموما :

كان احمد باشا شخصا متكبرا معتدا بنفسه ، ضايقه ان يخاطبه احد مرؤوسيه بهذه الطريقة . ولكنه تمنع عدم الاكتراث لعلمه بالماع فرهاد بك . وعلم احمد فيما بعد ، ان فرهاد بك قد اطلع محمود على الرسالة التى بعثها نفسه ، فعقد العزم على تصفيته ولكنه آثر التريث حتى يفرغ من موضوع التاكا . وبعد نهاية الحملة توجه من قوز رجب مباشرة الى حيث كان فرهاد . واستعد فرهاد للمواجهة فوزع رجالا على الطريق ينبئونه بقدوم الباشا . وذات يوم جاءه خبر وصول احمد الذى اتخذ طريقه نحو مقر فرهاد دون ان يلوى على شئ . ولم يشأ فرهاد الخروج اليه لملاقاته ، بل صمم على عدم ابداء اى نوع من الاحترام تجاهه ، فعمد الى خلع الحزام والحذاء . وعندما صار احمد على مقربة من الخيمة ، كان فرهاد منهمكا فى الملبس من جديد ، وكأن الباشا باغته بحضوره . ودخل احمد ساحة الخيمة ، وحتى عندما رأى فرهاد جالسا . وعبر فرهاد عن تحيته دون ان يقف ، ثم دعا الباشا ان يترجل لكى يستريح . على ان الباشا كان يعرف فرهاد جيدا ، ففهم كل ما كان يدور فى ذهنه ، فرفض دعوته واستدار اخذا طريقه الى شجرة ظليلة بجوار النهر حيث نصب خيمته . وذهب اليه فرهاد وبارك له عودته بالسلامة . وعلى الرغم من ان الباشا استقبله ببرود ، الا انه لم يرتبك ، بل مكث معه وشرب القهوة وعاد الى خيمته . ولم يحاول فرهاد زيارة الباشا مرة اخرى حتى غادر الى الخرطوم بعد ان مكث يومين ، وترك امرا الفرهاد ان يعود الى ودمدنى لأن وجوده فى الروصيرص لم يعد امرا ضروريا .

وفى الخرطوم بدأ الباشا يفكر فى طريقة يتخلص بها من فرهاد . لم يستطع ان ينسى احتقار فرهاد له ، كما انه كان يدرك مقدرته على احباط

جميع منافذه فيطا سارياً بعد قليل . وطرأت له فكرة قتله بالسم فشرع فورا في اعداد المادة في سرية تامة .

(٢١)

قدم شخص يدعى سعيد هاشم كان يعمل محاسبا في فرقة فرهاد بك من مدني ، فأرسل احمد العسم معه على ان يقوم بدسه لفرهاد . وشخص آخر يدعى علي افندي . وكان علي افندي هذا قد عين حديثا قائدا للكتيبة الخامسة . أما سعيد هاشم فقد كان انسانا ناقما يتملق الهاشميين ويبدو امامه بمظهر الصديق الوفي ، بينما كانت تربطه بفرهاد صلات وثيقة .

وذات امسية دعا سعيد هاشم فرهاد بك وبعض القواد وبعض الشخصيات الاخرى الى مأدبة حتى يضمن النجاح لنواياه الخسيسة . وعرف فرهاد بك بتجرعه الشديد للشراب . وعندما حان وقت العشاء كان قد بلغ قمة الثمالة . وأثناء تناول الطعام ، شعر باوجاع مفاجئة في معدته . واخذت الآلام تشتد عليه حتى لم يعد يرى أمامه .

وحمله سعيد هاشم الى منزله . وعندما وضع على السرير صار يئن تحت وطأة الألم . ولم يكن هنالك طبيب واحد في ود مدني فقد استبقى احمد باشا جميع الاطباء في الخرطوم عقب عودتهم من الحملة بدعوى حاجته لهم في علاج العدد الهائل من المرضى في المستشفى المركزي . وأدرك فرهاد انه قد سُمّ ، وان الفاعل لن يكون غير سعيد هاشم . فامر الجنود بالبحث عنه ، واقسم ان يقضي على ذلك الخائن قبل ان تفيض روحه . غير ان الجنود لم يعثروا عليه ، فقد اختبأ في مكان لم يخرج منه الا بعد يومين حين تأكد من موت فرهاد ودفنه .

هكذا لقى فرهاد حتفه ، فتحسر على موته كافة افراد الفرقة وكل من عرفه عن قرب . فقد كان الرجل عزيزا امام الكبار ، ومتواضعا مع عامة الناس يتقبل القدر ، وعادلا في جميع تصرفاته واحكامه . لم يرتكب جرما في حق احد كسبا لمودة احد الحكام ، وما اقدم على قتل اولئك النفر في

الرجوع الا بأوامر من الحاكم ، وقد اللغ محمود بنفسه على صيغــــة الامـــر .

كان يقيم فى الخرطوم زميل دراسة قديم لفرهاد ، رجل بسيط يعيش فى فقـر مدقع .. وعندما قدم فرهاد من القاهرة كان زميله القديم راغبا عـن لقائه حياء وخجلا . على ان ظروف عمله اضطرته ، ذات مرة ، لزيارة البنك بغرض ختم بعض الاوراق الرسمية . وحين مثل امامه بحلـق فرهاد فـى وجهه وعرفه ، فسأله ان كان هو فلان ابن فلان . فلما اجابه بالايجاب سألــه عـن المدة التى قضاها فى الخرطوم ، فرد ان له فيها بضع سنين . وهنا ، عاتبه فرهاد بشدة على عدم زيارته له طوال تلك المدة . وكان رد الرجل انه موظف متواضع ولا يليق به ان يسعى للقاء كرلونيل مثله وسط يغضبه شـل هذا اللقاء . وقال فرهاد انه مخطىء فى ظنه فهو لا يفرق بين النـاس ، والرجال هم صناع المناصب فى نظره ، وليس العكس . واذا كان الحظ قسد منحه لقب بك فانه لا يزال فرهاد وسوف يظل كذلك الى الابد . ثم عبـر له عن سروره لرؤيته مرة ومرات لأنه ليس من الذين يتنكرون لاصدقائهـم القدامى . وكانت هذه المشاعر ، بطبيعة الحال ، غريبة من تركـــى ، خصوصا اذا كان شركسيا مثل فرهاد . (١٠٣)

انشاء فرقـــة جديـــدة :

امر محمد على باشا ، عند زيارته للسودان عام ١٢٥٤ هـ (١٨٣٨) احمد باشا بانشاء فرقة جديدة للمشاة جميعهم من الزنوج عدا الضبـــاط وضباط الصف . ثم عين زهراب افندى ، بكباشى الفرقة الثامنة قائدا لها . اما باقى الرتب فقد ترك امرها لاحمد باشا على ان يبارك هو التعيين فيما بعد .

قدر احمد باشا عدد الزنوج الذين يحتاج اليهم فى تكوين الفرقة ، وذلك عقب عودته من فازغلى بعد مغادرة محمد على للسودان . ثم ما لبث

أن أمر كل فرد سواء كان ضابطا في الجيش ، أو موظفا ، أو تاجـرا ، أو مزارعا بالتبرع بعدد من الزنوج كل حسب قدرته . واستمرت عملية انشاء الفرقة منذ ذلك العام ، أى ١٢٥٥ هـ (١٨٣٩ - ٤٠) حتى نهايـة ١٢٥٦ هـ (نهاية خريف ١٨٤٠) ، وهو تاريخ عودة أحمد باشا مـن التاكا . واكتمل العدد الكافي لتكوين الفرقة ، فقام أحمد باشا باختيـار الضباط من الفرقة الثامنة بعد ترقيتهم . كذلك اختار بعض المصريـين والسوريين من الفرقة الثامنة صف ضباط . (٤٤) وهكذا تم انشاء الفرقـة الجديدة وعين لقيادتها القائمقام حسن ، وكنيته "زوك" ، وكان قبلهـا قائدا للكتيبة الخامسة للفرقة الاولى . أما مهمة القيادة العليا للفرقة ، التي استقرت في ثكناتها على الجانب الغربي من المدينة ، فقد آلت الى زوراب بك .

<u>الفيضان والتحصين :</u>

هطلت أمطار غزيرة عام ١٢٥٦ هـ (صيف ١٨٤٠) وفاض النيلان حتى تدفقت المياه خارج المجرى ، فاجتاحت مناطق واسعة داخل المدينـة واحدثت بها خسائر كبيرة . وفي ود مدني ، جرفت الفيضانات عددا مـن المنازل ، ولولا السدود التي شيدت على عجل لغارت المدينة بأكملها في جوف الماء . وكان الخطر يتهـدد الخرطوم بحكم موقعها في منخفض بـين النيلين ، الا ان جهود الحاكم ويقظته انقذا المدينة من الدمار . علمي أن الحاكم ، وكان اسمه أحمد هاشم ، (٤٥) دفع حياته ثمنا لما بذله من مجهود . لقد بنى الرجل حاجزا حائطا على شاطئ النيل لحماية المدينة ، وكان يبقى في الموقع يدير العمل وهو يسابق الوقت ، وحاكما يتقي به الرياح ، ولا شيء يحول دون مواجهة الاخطار . ولانه كان قليل الثقة في الجسر المكروس ، فقد جاء بكتيبة من الجنود لمقاومة الفيضان الذي بلغ ارتفاعه رجل فوق مستوى المدينة . وظل الحاكم معرضا الى الرياح والامطار حتى اصابه مرض لم يمهله الا ثلاثة أيام .

وبعد انحسار الفيضان ، بقيت البرك بمياهها الآسنة التى لوثت الهيئة . وفى منتصف شوال (النصف الأول من ديسمبر ١٨٤٠) انتشر وباء التيفوس ، وهو مرض فتاك يقضى على المصاب فى ساعات قليلة . وظل الناس يسقطون على الأرض فجأة كمن أصابتهم الصاعقة ، حتى ارتفعت نسبة الوفيات بين المواطنين بشكل مخيف ، خصوصا بين الجنود بسبب سوء التغذية والضعف العام . وقد لاقى ثلث جنود الفرقة الجديدة حتفهم لانهم ما تعودوا على ذلك القحط من حياة الجنود . وامتلأت الاسرة بالمرضى ، بل أن سلطات المستشفى اضطرت الى حمل الاسرة خارج الحجرات لتفرش الابسطة مكانها لاستيعاب المزيد من المرضى ، فاختلط المرضى بالمجروحين . وحدث ان بعض المصابين ماتوا فى الطريق أثناء نقلهم الى المستشفى .

ولم يسلم من هذا الوباء اللعين حتى الأطباء فى المستشفى فماتوا اجمعين . ولم ينج من الصيادلة سوى واحد شفى بعد فترة طويلة مثل الطبيب والصيدلى التابعين للفرقة الثامنة واللذين كانا يقيمان فى الخرطوم كما ذكرت ، فقد قاوما المرض طويلا ، وبعد العلاج ، نزا مسرعين الى ود مدنى . وفى نهاية الأمر ، بقى طبيب واحد فى الخدمة ، فقد كان قادما لتوه من اوربا ، الا ان علاج هذه الاعداد الهائلة من المرضى كان امرا فوق طاقته . واقترح هذا الطبيب خروج جميع مرضى التيفوس من المستشفى بغرض تغيير الجو . واصدر الباشا تعليمات بان يقوم كل شيخ فى المنطقة ، على مسافة يوم بالمركب من العاصمة ، بتوزيع المرضى على المزارعين لاطعامهم . وتم اخلاء المستشفى بعد ان اصبح وكرا للموت ، ما دخل اليه مريض الا وخرج منه ميتا . واستعاد جميع المرضى صحتهم بعد الخروج من المستشفى رغم غياب أى نوع من العلاج الطبى . بذلك امكن التخلص من وباء خيم على الخرطوم حتى شهر ربيع الآخر ١٢٥٧ هـ (مايو / يونيو ١٨٤١) . أما فى بقية أرجاء البلاد ، فلم يكن الوباء يمثل خطورته فى الخرطوم .

أحمد باشا في كردفان :

في هذه الاثناء ، اي في نهاية محرم بالتحديد (نهاية فبراير ١٨٤٠) توجه الباشا الى كردفان للتحقيق في بعض الشكاوى ضد يوسف بك قائد الفرقة الاولى وحاكم الاقليم . وأثناء وجوده هناك ، ارسل الى زعراب بك في الخرطوم ليتحرك بفرقته الى شندي لعبور التخوم والترعة عن الثغر .

ثم استمر الباشا في تحرياته حول النزاع بين يوسف بك وخصومه . وبعد مداولاته لحسم الامر ، قرر اجراء تغيير في المواقع ، فعين يوسف بك قائدا للفرقة الخامسة في شندي على أن يتولى زعراب بك تصريف شؤون كردفان بدلا عنه . غير ان الباشا حرص ، قبل تنفيذ التغيير ، على مراجعة الحسابات عن فترة حكم يوسف بك ، فأوكل المهمة الى فن بك ، قمندان الكتيبة الاولى التي كانت ترابط آنذاك في الخرطوم ، وهو رجل نمساوي الاصل .

تعيين حسن خليفة شيخا على الطريق الصحراوي :

عاد احمد باشا الى الخرطوم ، لكنه ما لبث ان توجه الى بربر بعد ان قام بانجاز بعض المهام . فوجد هناك حسن خليفة عقب عودته من مصر حيث ذهب اليها للتظلم من الباشا كما نعلم . وجاء حسن هذه المرة يحمل امرا للباشا من الجناب العالي ليحقق له امنيته الكبرى الا وهي تعيينه شيخا على الصحراء مكان عمه بركة . ولم يجد احمد باشا مناصا من التنازل عن موقفه الثابت بسبب موت سليمان ابو نمر وعين حسن شيخا . لكنه اشترط عليه البقاء في بربر ، وليس مثل بركة يوما في المعسكر ويوما في ابو حمد . ووافق حسن على هذا الشرط .

احمد باشا يشنق الشنق على موظفي الحسابات

انتهى احمد باشا من بحث المهام الرسمية في بربر وخرج قاصدا دنقلا . وبعد يومين من وصوله ، امر باعتقال مباشر المديرية تواطئة لمراجعة دفاتر حسابات الاقليم . وكشفت المراجعة عجزا كبيرا ، ودلت التحريات ان المباشر قام بتزوير في الضرائب المفروضة على المزارعين . وما ان سمع المزارعون باعتقاله حتى حضروا ليشهدوا على ما أخذه منهم ابتزازا .

وأمر الباشا بمثول المباشر امامه ، وطالبه برد كل شئ استولى عليه دون وجه حق الى الخزينة . فأنكر المباشر أن يكون قد فعل أمرا مخالفا للقانون ، وقال انه لم يأخذ شيئا حتى يعيده . وما كان للباشا وقت للنقاش ، فأمر على الفور بمصادرة جميع ممتلكات المباشر ، ما كان منها في منزله ، أو خارج المنزل ، ثم أمر بجلده حتى يعترف .

الا أن الرجل كان مصرا على موقفه تحت وابل السياط التى انهالت عليه . فأشار الباشا باحضار ابنه ، وكان صبيا في الخامسة عشر ، ليسلم بجلده مع والده . واستمر اصرار المباشر ، مع ذلك ، على التزام الصمت فلم يدلى بشئ . عندئذ سلم احمد باشا بشنق الاثنين معا : الصبي اولا ، ثم والده . وعند الدلي بالحكم اخذ المباشر يتوسل الى الباشا ويناشده الرأفة بالطفل المسكين لأنه برئ . ولكن الباشا لم يشأ التراجع عن قرار اصدره . فاقتيدا الى المشنقة ، ووضع الحبل حول عنق الصبى . وحيسال منظر ابنه وهو يشنق امام ناظريه ، توقف قلب الأب ، وهوى على الارض جثة هامدة .

وكان المشهد مريعا بحق لجميع الحاضرين بما فيهم الشخص المكلف بتنفيذ الحكم ، فقد ابتل المشنق وجرى نحو المدير . وتأثر المدير طبعا ، ثم توجه الى الباشا عله يصدر عفوا عن الصبى البرئ . ولكن دهم الباشا للمدير كان عنيفا ، واعتقاده بان المباشر كان يخفيه في مكان ما لا يزال

يسيطر على تفكيره ، فتوقع اعترافا من الصبي . وما كان احمد باشا يدري أن الطفل البائس الذي يقف تحت حبل المشنقة كان مستعدا في تلك اللحظة ان يفتدي حياته بذهب الدنيا كله . واخيرا ذهب جمع من الناس الى المدير يسألون عفو الباشا عن الصبي ، والحوا في سؤالهم هذه المرة حتى صدر العفو . فكان كأنما عاش اناس مسلمون من اجل انقاذ حياة صبي . لقد خيل لهذا الباشا المتعجرف ان في وسع كل امرئ اكتناز الاموال .

وفي طريق عودته من دنقلا ، عرج احمد باشا على المتمة حيث امر بمراجعة الحسابات . وعند اكتشافه بعض التجاوزات ، اصدر امرا بشنق رئيس الكتبة ، ونفذ الحكم . وفعل مثله في شندي برئيس الكتبة ايضا حيث اقتاده معه الى الخرطوم واعدمه . ومن شندي واصل طريقه الى الخرطوم ومنها الى ود مدني . هناك ايضا تمت مراجعة الحسابات فوجد تلاعبا فيها ، فلقى المباشر نفس مصير زملائه في دنقلا والمتمة وشندي .

ثورة أبو ريش : (١٦)

أثناء وجوده في ود مدني ، سمع احمد باشا بتمرد ابو ريش احتجاجا على قراره بان يدفع ضعف ما قدمه من ضريبة . وحين تمادى أبو ريش في رفضه لتلك الضريبة الباهظة أمر احمد باشا الكاشف بالقاء القبض عليه وارساله مقيدا الى الخرطوم .

وسمع أبو ريش بما كان يدبر له ، ولكنه لم يكن قادرا على الوقوف امام الباشا . وكان يعلم بوجود عصابة مشهورة على بعد مسافة قريبة من الحدود الحبشية تتخصص في نهب المسافرين وفرض الاتاوات على سكان القرى . وفكر ابو ريش الاستعانة بهذه العصابة بعد اغراء افرادها بما يمكن ان يعود عليهم من غنائم بعد هزيمة الاتراك . ووافق زعيم العصابة على العرض المغري ، وعبر الحدود الى الحلفاية مع أبي ريش . وشعر الكاشف

باتصال ابى ريش بالاحباش ،فجمع ما لديه من رجال قليلين ، وسلح بعض الاتراك والتجار المصريين فى المنطقة حتى بلغت قوته ،بما فيها جنوده انفسهم نحو سبعين رجلا . وتحرك بهذا العدد الضئيل الى العدو ، ولو كان حصيفا لفكر فى ان يتحصن فى موقعه بدلا من التقدم.

وفى نفس الوقت كان ابوريش يزحف نحوهم على رأس قوة من رجال قبيلته يدعمهم رجال العصابات الاحباش ، فصاروا فى مجملهم الكثر من الف رجل . وواجهت القوتان بعضهما البعض ، وبدأ الكاشف بالهجوم لانه كان اكثر شجاعة ، فى حين انه اذا تريث لامكنه تحقيق نتائج افضل . فقد كان العدو مرتبكا لانه لم يكن يملك اسلحة نارية . على انهم حين هجم الاتراك عليهم عمدوا الى افساح المجال لهم بغرض محاصرتهم . ونجحت المناورة حيث حوصر الاتراك فى حيّز ضيق ، فانقض عليهم رجال ابى ريش من كل جانب ، وابلى الكاشف ورجاله بلاء حسنا فى المعركة ، واستبسلوا لعدة ساعات حتى انهاروا فى النهاية نظرا لتفوق العدو الواضح . وفر الكاشف وبعض اعوانه ممن كانوا على ظهور الخيل تاركين بقية الرجال نهبا للقتل والاسر .

وما أن ادرك الكاشف مقره ،حتى استدعى جميع الجنود فى الاقليم على الفور ثم اتصل بالباشا واطلعه على ماحدث ، فقد كان الباشا فى ودمدنى كما سبقنا القول . ومعروف ان فصل الامطار فى السودان وقت يصعب فيه السفر خصوصا الى القطيش ، فما بالك اذا كان الامر يتعلق بتحرك جيوش . ومع ذلك ادرك الباشا خطورة الظرف فامر بتحرك الكتيبة الخامسة مع الامدادات اللازمة الى ابى حراز ، فوصلت الى هناك بعد أربعة ايام . ولحق بها الباشا من ودمدنى سريعا وانطلق بالقوة ،بعد ضم مائتين من الفرسان المغاربة كانوا هناك ، قاصدا القطيش .

وانشغل ابوريش وحلفاؤه بعد الانتصار فى الهاب مشاعر الكراهية

ضد الاتراك بدلا من تعزيز نصرهم على الكاشف وملاحقة فلوله حتى القضاء عليها تماما . وما دار بخلدهم ان احمد باشا سوف يأتيهم من الخلف فى وقت تحولت فيه الارض كلها الى أوحال تخوض فيها أرجل الجنود والخيل حتى الركبة . لذلك ركن رجال ابى ريش الى الخمول وانصرفوا عن أى نشاط عدا تأليب الجعليين على الاتراك . ولكنهم حين افاقوا كان احمد باشا على مشارف المتلقة فانزعجوا كثيرا . أما الحليف الحبشى فقد أطلق ساقيه للريح بمجرد شعوره بالخطر ، خاصة وأنه لم يظفر بالغنائم كما وعد ، ودخل الحدود تاركا أبا ريش يواجه مصيره وحده . وعلم أبو ريش بزحف الباشا نحوه فجمع ألف وخمسمائة من أفراد قبيلته للمقاومة على أمل أن تأتى الاخرى لنجدته . ومضى احمد باشا نحو قوات ابى ريش بخطوات واثقة . غير أن أبا ريش لم يبق فى مكان واحد ، وانما ظل يتحرك هنا وهناك للتمويه على العدو . واستطاع الباشا فى نهاية الامر من تضييق الخناق عليه فنشبت المعركة بينهما . وصمد أبوريش لفترة ، ثم ولى هاربا مع عدد من اعوانه .

واستولى احمد باشا على مقر أبى ريش مع كل من فيه من أهل بيته وعدد كبير من اتباعه الذين فاجأهم جيش الباشا دون أن يتمكنوا من الفرار . وفكر أبوريش أول الامر فى التخلى عن افراد عائلته الكثر للاتراك واللجوء الى الحبشة ، فقد كان على ثقة من أن الباشا قد باع منهم عددا غير قليل . ولكنه عدل عن فكرته وقرر تسليم نفسه . صحيح أن الباشا قد يقتله ، ولكن احتمال العفو عنه وارد على أى حال . أما اذا تم العفو عنه ، فتلك فرصة لكى يشترى ذويه مرة اخرى .

وركب ابو ريش حصانه ذات يوم ، وكان حلة عامة ، قاصدا معسكر الباشا الذى كان مجتمعا آنذاك فى خيمته مع أحمد أبى سن والشيخ عبدالقادر وأبى جن . وكان الشيوخ قد توافدوا على مقر الباشا قبل ايام لحضور مراسم عزل أبى ريش الذى لم يكن يعرف له مكان منذ هزيمته .

عن أبي ريش . واكتفى الباشا بالاهانة التي الحقت بأبي ريش ، فعفا عنه ، وعاونه على النهوض .

وتقدم الشيخ أبو حسن نحو أبي ريش ، وأخذه من يده الى مقر الباشا بالمعسكر . وهناك سأل أبو ريش الشيخ أبا حسن اذا كان في امكانه استرداد افراد عائلته الذين تم بيعهم . فأخبره الشيخ أبو حسن بأن الباشا قد رتب كل شيء ، فقد قاد الوهن على أولئك الذين باعهم للناس ، بحيث يتنازل عنهم الملاك الجدد دون أي مقابل .

وقرر احمد باشا العودة بعد أن حقق أهدافه . وأصيب الجنود بالحمى بفعل الامطار والرطوبة التي تعرضوا لها . ولم يقتصر الأمر على الجنود ، فالباشا نفسه كان في حالة صحية سيئة حيث حمل على سريره الى أبي عراز ، ومنها بالمركب الى الخرطوم . وهكذا اسدل الستار على ثورة أبي ريش ، والحملة التي اعدت لاخمادها (١٧) .

هوامش الفصل الرابع

---

١ . يبدو أن المؤلف لم يشارك بنفسه فى الحملة ، لكنه استمد المعلومات عنها من شخص آخر ساهم فيها . وكما جاء فى مقدمة المترجم فان شاهد العيان الوحيد هو ويرن فى كتابه :

(Feldaug Von Sennar rach Taka)

والذى ترجم (جولات افريقية) . غير أن ويرن أفسد روايته بغروره وسوء نيته . أما (تاريخ ملوك السودان) فقد جاء خاليا تماما من أى ذكر للحملة . وثمة نسخة مطبوعة على الآلة الكاتبة تتناول تاريخ الهدندوة ، وتتضمن حكايات عن حروبهم ضد الاتراك ، فى ملفات المديرية فى كسلا . وانني جد ممتن للحاكم السابق ، السيد ميرغنى الامين لتفضله علىّ بمقتطفات منها .

٢ . دخلت الفرقة امدرمان فى صفر ١٢٤٠هـ (سبتمبر / اكتوبر ١٨٢٤) ، (تاريخ ملوك السودان ، ص ٢٦) .

٣ . القائمقام للفرقة الاولى .

٤ . ابن موسى ، سليل البيت المالك فى رد الحلاويين الذى لازال يمد القبيلة بالزعماء .

٥ . مصطفى بن احمد السلاوى ، كان والده عالما جاء الى السودان مع جيش اسماعيل باشا الغازى عام ١٨٢٠ - ٢١ . أصبح مفتى المذهب المالكى فى السودان . وبعد عودة الاب الى مصر خلفه الابن فى مجال القضاء . وقد وصفه ويرن بانه كان من دهاة رجال الحاشية (جولات افريقية ، الجزء الثانى ، ص ٢٥٢) .

٦ . ربما يكون الفكى المعنى هو الزعيم الدينى الكبير محمد عثمان الميرغنى (١٧٩٣ - ١٨٥٢) مؤسس الطائفة الميرغنية أو الختمية ، وجد الزعيم الحالى للطائفة السيد محمد عثمان الميرغنى . وقد أقام الجد ضـــو قرية تسمى الختمية على سفح جبل اللوس فى نفس السنة التى دخل فيها الاتراك السودان . وقد ظل زعماء الطائفة من بعده ، واللذين

رفضوا احترام وقداسة الزعيم الأكبر ، على ولاء لا يتزعزع للمقاومة المصرية ، مما عرضهم لضروب من النفى والمعاناة فى ظل المهدية .

٧ . رداء فى الاحرام .

٨ . قبعة ، مطرزة احيانا .

٩ . يرى داتا خور بركة ، الذى يصب فى البحر جنوب سواكن بحوالى خمسين ميلا ، سهولا واسعة من القاش . وكان الاعتقاد سائدا آنذاك ان خور بركة ونهر القاش ، الذى حاول احمد باشا اقامة السد عليه ، ينبعان من مصدر واحد . ومن الذين سلموا بهذا الاعتقاد جيون (جولات افريقية ، الجزء الاول ، ص ٢١ و ٧٤) . وتؤيد ذلك الافتراض ايضا الخارطة على الصفحة الاخيرة فى الكتاب . وبعدها صمم د . كيبرت خارطة اخرى عام ١٨٥٠ :

(Kart Von Iender an Obern Nile " 1 : 500. 000 ")

يبدو فيها اعالى خور بركة تصب فى القاش على الاجزاء الجنوبية من جبل اللجين ، بينما نجد مجرى سيول يسمى اوقيير بالقرب من اركويت يتجه نحو البحر الاحمر فى مكان خور بركة . والقاش كما يوضح كيبرت يلتحم بنهر الجردى (الذى يسميه المقرن) ، وهذا بدوره يصب فى نهر عطبرة قبل اقترانه مع النيل بقليل . أما و . مانزنجر فقد زعم أن ذلك النهر الكبير الذى يأتى من الجنوب الغربى ، ويجف على الرمال قرب سواكن ، ينبع من الحبشة ويسمى مريب .

١٠ . يذكر جيون ان المهندس دمر السد ليلا (جولات افريقية ، الجزء الثانى ، ص ٢١٥) .

١١ . ابراهيم ، شقيق محمد دين والد التاجر المعروف موسى ابراهيم .

١٢ . نزل عالم الحيوانات البروسى د . ر . ليبسياس ضيفا على سيد فى منزله بدار مدنى عام ١٨٤٤ حيث تناول الطعام العشاء ورقص مع

الفتيـــات (Letters from Egypt, 1853, PP. 181-2)

١٣ • يستعمل الكاتب كلمة "ترك" في دلالتها السائدة آنذاك في السودان وتعني أي عضو في الجهاز العثماني الحاكم •

١٤ • جند هؤلاء السوريون في جيش محمد علي خلال الاحتلال المصـــري لسوريا ، ١٨٣٢ - ٤٠ ، وكان لزاما عليه اعادتهم بموجب اتفاقيـــة السلام التي ابرمت عام ١٨٤١ بينه وبين السلطان • وعند استمـــرار السلطات المصرية في تجاهل أمر انصاف الجنديين السوريين ، تقـــدم قائد كتيبة ميلوي في الكتيبة الثالثة التابعة للفرقة التاسعة بعريضـة للقنصل البريطاني العام في القاهرة (Public Record Office., F.O. 141 / 8)

١٥ • يتعلق اسمه "هاشم" • وثمة تعريف اكثر دقة له في (تاريخ ملـــوك السودان ، ص ٣٣) حيث وصف بوكيل المديرية ، فقد كان نائبـــا للحاكم مصطفى بك الذي توفي في الخرطوم خلال ذلك الفصل الممطر •

١٦ • أن أبو ريش بشير الفحول •

١٧ • ضمن رسالة موجهة الى خبير الاستشراق ى • فه جوبارد مـــــن الاسكندرية في ٣٠ مايو ١٨٤٢ ، قال ارتين بك ميكياس ، السكرتير الأول لمحمد علي ، ان احد زعماء الحلنقة السود كان قد هاجـــر من زمن الى الحبشة حيث رحب به الملك ، واعتبر الحلنقة والاقليـــم بأكمله حتى سنار اراضي حبشيــة • واستطاع ذلك الزعيم بمعاونـــة الاحباش غزو القلابات والحلنقة لانه كان يخطط لاقامة مستوطن للبارييـن من السودان • وفي تقريره عن شهر محرم (فبراير / مـــارس ١٨٤٢) أوضح احمد باشا ان عمليته العسكرية ضدهم كانت ناجحة • فقد أدرك احمد خطورة الموقف على الحدود ، وتوجه أولا الـــى الروصيرص • ثم بعد مسيرة ستة ايام عليهـــا وصل اقليم القلابات ليسمع نبأ هزيمة الاحباش على يد قائد (كاشف) ذلك الاقليم • وعلى أثـــر

ذلك قبل الزعيم الثائر عثمو أحمد باشا لك ، فساد من الهيبة ، وأنعم عليه بكسوة شرف . ومضى أحمد قدما في الهجوم على الأحباش فهزمهم ، وأسر منهم أعدادا هائلة ، واستولى على نحو ألف و سطائة رأس من الماشية . ثم عرض أحمد الملك عليهم شجرية ان يعيدوا ثمانية ألف عائلة لجأت اليهم من السودان

(Bull. Soc. Georg. de Paris, 2e Ser., XVIII, 1842, PP. 135 - ?)

ولا تختلف هذه الرواية كثيرا عن الرواية الرسمية لحادثة أبو ريش مع أن المؤلف يرويها عن الرويين غير مباشر بعد تدولهما للمرة الثانية أو الثالثة كما يبدو .

الفصـــــل الخامـــــس

(١)
المثل ، والسلوك ، والعادات عند السودانيين :

يعرف السودانيون باعتقادهم في السحر ، الأمر الذي جعلهم يؤمنون بوجود سحرة في سنار وما وراءها . ويروى أن ساحرة من أولئك وجدت صديقها في آسن مع امرأة شابة وهما يشربان المريسة . وغضبت الساحرة ، وكان انتقامها سريعا حيث مسخت العشيقة الجديدة الى متسولة . أما الرجل فلم يجد أعضاءه التناسلية في موضعها ، ولم يستردها ثانية الا بعد اعلان توبته أمام الساحرة ، وتعهده بعدم الاتصال بامرأة غيرها مرة أخرى .

ويسود الاعتقاد بين الأهالي هنا أن للساحرات قدرة على التحول الى ضباع ونمور وتماسيح وغيرها من الوحوش القاتلة . لذلك فان من يتعرض لهجوم بسوء هالك لا محالة . والقصة التالية عن جاويش أساء معاملة احدى الساحرات في سيرو . وبينما كان الجاويش يغط في نومه ، شعر بآلام حادة في معدته ، فاستيقظ . وخيل اليه ان وحوشا مفترسة تأكل في احشائه . ومن خلال توجعه وعذابه ، تذكر الجاويش انه قد أساء الى امرأة ذلك اليوم ، فايقن أنها لابد أن تكون ساحرة . وسارع الرجل بتكليف احد اصدقائه بالبحث عن تلك الساحرة ، واسترداد اعضائه الحيوية منها بشتى السبل ، فقد تأكد تماما انها قد اخذتها وتركت جوفه فارغا .

وتوجه الصديق الى كوخ الساحرة . ولم يجد الساحرة ، ولكنه رأى قطة سوداء ضخمة تلتهم احشاء الجاويش المسكين ، فأدرك انها الساحرة نفسها . وجثم الرجل على ركبتيه امام القطة واخذ يسألها الشفقة بصديقه والرحمة به باسترداد الاحشاء المفقودة الى احشائه . وبعد برهة مرقت القطة من الكوخ كالسهم وهي تحمل الاحشاء في فمها . وما هي الا لحظات حتى

دلفت الساحرة حاملة سلة لم يتبين الرجل محتوياتها للوهلة الأولى ، وسألته عن سبب زيارته . فأفضى لها بكل شئ طالبا منها الرحمة بصديقه الجاويش . فردت الساحرة فى نبرات حادة انه لا أمل مطلقا فيما يأمله ، بل أضافت انها سوف تشوى أحشاء الجاويش على نار هادئة امام صديقه حتى يزداد عذابا فوق عذابه . ثم اخذت قطعة من الكبد والقتها على الجمر وهى تتمتم ببعض العبارات المبهمة .

ولم يتمالك الرجل نفسه فارتمى بين قدمى الساحرة باكيا ومسترحما ، على أن ذلك كله لم يحرك فيها شعرة واحدة . أما صاحبنا الجاويش فقد استمر فى آلامه وأوجاعه . وأخيرا لجأ اصدقاؤه الى أحد خلفاء الساحرة لكى يتفاهما بوضع حد لشقائه ، فاستجابت بعد لأى هذه المرة ، واسترد الجاويش أحشاءه وانتهت آلامه .

حسن الضيافة عند السودانيين :

والسودانيون مشهورون بالكرم . ويخصص الموسرون منهم جزءا من المنزل (قد يكون منزل شيخ من الشيوخ أو أحد الأثرياء) لاستقبال الضيوف ومعاملتهم فى غاية الكرم وحسن الوفادة .

ويستقبل الضيف عند حلوله أول الأمر فى حجرة الضيافة حيث يتأنسون الأثاث من عنقريب واحد عليه فرش مناسب . واذا كان الجو دافئا يقدم له الأبرى ، وهو مشروب منعش (٢) .

والضيوف درجات ، وكذلك طريقة معاملتهم فعامة الناس يكرمون عادة بالكسرة (٣) والملاح (٤) . أما الضيوف من ذوى الصفة الرسمية فيجب أن يقدم لهم الفراخ أو يذبح حمل صغير على شرفهم . ويحضر هؤلاء اللحوم يدمسون مع الذرة وبعضها يسلق لتقدم الشوربة مع الخبز .

وعند حلول شخصية هامة ، يذبح كبش في الحال ويطبخ في أشكال متنوعة . فهناك الشواء مع الذرة ، والمسلوق ، والمحشي حيث يحمر البصل ويقطع اللحم الى شرائح ويخلط مع صلصة البصل ، فتتكون مرقة كثيفة . وبعد نضوج اللحم يضاف الماء والطبخ وبعض الشطيطة (٥) ، وهو نوع من الفلفل الأحمر صغير الحجم وحار المذاق . وبجانب ذلك يقدم طبق يتكون من نفايات الذبيحة حيث يؤخذ جانب من كل جزء من محتويات الامعاء بقدر معلوم ، ثم يقدم هذا الخليط الذي يسمونه المرارة ، نيئا . ومن عادة السودانيين أيضا تقديم بعض اللبن المخمر (الروب) (٦) والعريسة لكبار الضيوف وحاشيتهم وعبيدهم ، واطعام دوابهم . وهذه هي أقصى درجات الكرم عند هؤلاء القوم (٧)

فتيات للايجار :

ومن عادة السودانيين ، مهما كانت مراتبهم ودرجاتهم مسح أجسادهم كل مساء بمعجون مكون من الطايوق وزيوت القرنفل والصندل . وعندما يأتي ضيف ليلا يبعث اليه صاحب المنزل باحدى الفتيات الجميلات من الرقيق لتقوم بعملية المسح هذه قبل أن يأوي الى السرير . ويمكن بالطبع أن تقضي معه الليل اذا رغب . ولكن المضيف لا يسدي هذه الخدمة للضيف مجانا ، فالفتاة تسلمه كل ما تأخذه من الضيف مقابل خدماتها .

ومن المهم ، ونحن في معرض هذا الحديث ، أن نذكر أن هؤلاء القوم لا يهتمون كثيرا بتقاليد ومثل باتت راسخة في انحاء اخرى من العالم . فليس عيبا عندهم مثلا ، ان يدير احدهم منزلا للدعارة لمجرد الربح . ويمارس الجميع هذه التجارة ، سواء كانوا اغنياء او فقراء ، وذلك لسببين . اولهما هو ما تدر عليهم من مال وفير . أما الثاني فلأنها وسيلة لامتلاك المزيد من الرقيق ، فالأطفال غير الشرعيين نتيجة لذلك هم في الواقع اطفال لخدمهم .

ويبلغ الحوش في بعض الاحيان شخصا واحدا يمتلك عدة منازل للدعـــارة منتشرة في كثير من المدن ، كما أن بعض المناطق ، خصوصا الصحراويات تحتوي على قرى لا يسكنها سوى البغايا (٨) .

بـــلاد الأمـــيرة نصـــرة :

هنالك قرية كبيرة تقع بجنوب ود مدني ، على الطريق الى سنار ، تسمى السوريبة يبلغ عدد سكانها اربعمائة نسمة . وجميع سكان هذه القريـة هم في الواقع من عبيد الأميرة نصرة ، شقيقة ادريس ود عدلان وسليلـة قدامى الوزراء في سنار . ويحتل قصر الأميرة قلب المدينة ، وهو مبـني بالطوب ، ويمتاز بجودة التخطيط والنظافة والاناقة رغم انه من طابـق واحد . ويحيط بالقصر سور مرتفع متوازي الاضلاع . وخارج السور ، علـى الجانب الشمالي الشرقي من المربع الضخم الذي يمثل مركز القرية ، يقـع الحائط الامامي لحجرة كبيرة ، أي الديوان ، وهو في الواقع حجرتـان متجاورتان . وامام الحجرة تمتد فرندة تستند في نهايتها على أعمدة ضخمـة وتظلل المساحة التي تقع على طول الحائط .

وفي مواجهة هذا الحائط ، أي في منتصف الفرندة يوجد سلـم بدرجات دائرية يؤدي الى أرضيـة المبنى تحت الفرندة . وهذه الارضيـة وغيرها في هذا المبنى كلها من الطين . وترتقي درجات السلم لترى بابا في منتصف الواجهة يقود الى حجرة صغيرة بها نافذتان على جانبي الباب للاضاءة والتهوية . وبالدخول الى هذه الحجرة ، علـى يمينـه ويساره ، بوابتين من القضبان الحديدية يؤديان الى الحجرتين على جانبي المبنى . وفي مواجهة الحجرة الصغيرة تجد مدخل القاعة الكبرى . وبالمثل تجد على جانبي هذا المدخل ايضا نافذتين بحواجز حديدية لاضاءة الحجرة ، وعلى كل ركن من هذه الحجرة الصغيرة بابان يؤديان ايضا الى الحجرتين

الكبيرتين . أما الحجرة الكبيرة نفسها ففيها ست نوافذ ضخمة .

وبما أن الحجرة قد امتدت جنوبا عدة أذرع من بقية المبنى (٩) ، أو بالأحرى أمام القرندة ، فيمكن للمرء ملاحظة الأساس الذى تم حفره لبناء مزيد من الحجرات واصطبل . هكذا قال زوج الأميرة ، محمد دفع الله "الارباب" ، وهو لقب ينم عن النبل وعلو المرتبة . وأضاف الارباب بأنه كان فى النية احاطة هذا المبنى بسور مربع الشكل حفاظا على حديقة حول المبنى الذى انشئ على غرار معبد قديم .

وعلى الجانب الشمالى من القصر يوجد مبنى آخر ، هو منزل ابنة الأميرة ، لكنه لا يسترعى الانتباه كثيرا . ثم نأتى الى منزل ابن الاميرة الذى يستعمل الآن استراحة للضيوف بعد وفاته . ونواصل السير جنوبا لنصل الى مطابخ الأميرة على الجانب الشرقى من القصر . وكل هذه المبانى التى وصفناها تقع فى منتصف المربع . أما ما حولها ، فكلها أكواخ متناثرة يسكنها عبيد الأميرة من الجنسين (١٠) .

والأميرة نصرة سيدة تبدو فى الخامسة والأربعين على أكثر تقدير ، وتدل تقاطيع وجهها على جمال أخاذ فى شبابها . أما لونها فيميل الى الصفار الذهبى ، وتمشى فى خطوات وئيدة ووقورة . ورغم أن زمانها قد ولى ، الا انها ما تزال تغرى وتأسر بعض المحظوظين من المعجبين . وقد عرفت نصرة منذ طفولتها الباكرة بتحررها فى اختيار اصدقائها سواء كانوا من الحكام أو غيرهم انسياقا وراء نزواتها .

وقد تزوجت ابنة الأميرة من الشيخ الذائع الصيت عبدالقادر ولا تسمت مثل نباح والدتها حيث لم تكن تبخل بنفسها على معجبيها . بل انها فى الحقيقة فاقت الأميرة نفسها فى هذا المجال لانها كانت تستجيب لأى شخص يأسر قلبها . وقد كان احمد باشا أبوودان ، الذى توفى وهو ما يزال حاكما للسودان ، أحد عشاقها المداومين . لذلك كان يختلق الأسباب

ليجعل زوجها في سفر دائم حول أقاليم السودان حتى يجد الحرية في الاستمتاع معها . ولم يلبث أبو ردان أن تسبب في طلاقها من عبد القادر ، وأرسلها الى والدتها . ثم تخلى عنها الباشا طالبا حين تبوأت بمنازلة موسى بك [11] مدير شبه جزيرة سنار ، لأنه كان يتخذها من قبل أميرة بكل ما تحمل الكلمة من معنى دون أن يكشف سره أحد . واستمر حقد الباشا على موسى طويلا بعد ذلك ، غير أن ابنة الأميرة نصرة ما اكترثت لذلك ، بل انها ، بالعكس تماما ، وثقت علاقتها بموسى أكثر فأكثر .

ترابط الفرقة الثامنة في حامية ود مدني ، على بعد ساعة ونصف بالبحر من السوريبة . وكان كبير المفتشين الطبيين للفرقة فرنسيا في نحو الأربعين ، قوي البنية ، ذو مقدرة لارضاء أكثر النساء رغبة في الجنس [12] . وذات يوم التقت به ابنة الأميرة فباحت به وراودته عن نفسها فتمنع ، فقد كان يخشى سبعية كافر بها قبل عدة شهور . ولكن ابنة الأميرة لم تيأس فذهبت اليه في منزله في اليوم التالي مباشرة . فأثارت صفاقتها الرجل ، فردها على أعقابها في جفاء . وشعرت بخذلان شديد وخيبة على فعلها ، ولكنها على أية حال ، عادت ادراجها دون أن ترتكب حماقة ، لا لسبب غير انها ما وجدت اليها سبيلا .

مما تقدم يخيل لنا الحكم على السوريبة ، قرية طيبة وخيرة ، الملقبة البستان لطائفة فينوس . ولندع القارئ يتخيل منظرا طبيعيا أحسن وصفه الشعراء ، ولكن ، بدلا من النوافير والأنهار والمروج الخضراء التي تخيلها أبطال المروج ، فاننا نجد قرية تحيط بها مزارع الذرة والقطن والقاسن والباميه وغيرها . هناك الحور الحسان وعرائس البحر ذوات اللون الابيض المشرب ، وهنا أميرة بيضاء ساحرة ، وعرائس بحر من المولدات المهجنين من كل لون وجنس . هناك الصحة دون مقابل وهنا يدخل المرء وجيبه منتفخ ، ويخرج وهو [illegible] .

ومن بين نساء القرية جميعا ، هنالك نحو خمسين من أجمل الفتيات لا عمل لهن غير خدمة الأميرة . وعند قدوم شخص ذى خطورة ومال، تذهب هؤلاء الفتيات على الفور ليرفهن عنه طوال فترة اقامته . ويختار الضيف من تروق له أثناء الليل أو النهار . وواضح ايضا انهن يأخذن اجرا اعلا بكثير من بقية نساء القرية .

الفقــر يدعـو الى الفضيلـــة :

في أحد الايام قدم خمسة من الاوربيين كانوا يقيمون في ود مدني ، قرية السروريبة لقضاء ليلة بها . وبمجرد نزولهم من الخيول ، احاطت بهم خمس فتيات حسان من حاشية الأميرة تحمل كل منهن قرعة عليها نقوش جميلة فيها شراب الابري . وتقدم كل فتاة الابري الى احد الزوار ، وهي تضع احدى ركبتيها على الارض وتمد ذراعيها نحوه قائلة في صوت رقيق ، "سيدى ... أشرب ."

وتزينت الفتيات باجمل الحلل ؛ عقد على كل معصم ، احدهما من الذهب والآخر من الفضة ، وعقد ثالث حول رسغ القدم . كذلك كن يضعن قطعا من الذهب على الاذن والانف ، وعلى العنق عقودا من اللؤلؤ الاحمر ، كما تدلت سلاسل من الخرز على صدورهن بين النهود البارزة . أما الخصر فقد طوقه حزام من حبات الفضة وكان ضربا من ضروب الرحط(٢)، والشعر مضفور حسب الموضة عندهم . وتلالات خرزات من الزجاج على الرأس ، فبدت من خلال الشعر خليطا من اللونين الاحمر والابيض ، وتدلت من فوق تلك الخرزات ميدالية ذهبية انيقة الشكل اضفت على الجبهة رونقا وجمالا . وكانت الفتيات عاريات الا من الرحط الذى غطى الاجزاء الحساسة من الجسد .

وبعد تناول الشراب احسنت وفادة الزوار على النحو الذى بيناه من

قبل . ولما كان الوقت مساء فقد اعد لهم طعام العشاء وحمل اليهم فى حجراتهم ، طعام فخم متنوع على الطريقة التركية ، ومعه أصناف من الحلوى الشعبية ، وكلها من صنع الفتيات الجميلات .

وما أن فرغوا من تناول الطعام حتى جاءهم احد خدم الاميرة برسالة منها تعرض اثنتين من المولدات الجميلات للبيع . الا أن أربعة من الاوربيين ، لسوء الحظ ، لم تكن معهم من النقود ما يكفى لاستكمال الصفقة . أما الخامس فقد كان يملك النقود ، ولكنه آثر أن يتريث حتى الصباح ليتمكن من معاينة البضاعة فى الضوء للتأكد من سلامتها .

ورد الخادم على الضيف بأنه قد اساء الفهم ، فبيع الفتاتين لا يتم عادة الا اثناء الليل . ثم ابدى استعداده فى احضارهما تلك الليلة فى الحال . عندئذ فهم الرجال عن أى نوع من التجارة كان الخادم يتحدث ، فضحكوا وطلبوا منه الفتاتين . وأقرر هنا أن دافعهم كان مجرد حب الاستطلاع والفضول حيث لم يكن فى وسعهم التمتع دون نقود . أما الوحيد الذى كان معه المال فلم يكن يطمع فى ذلك هو الآخر فى وجود زملائه فى نفس الحجرة .

وبعد قليل عاد الرجل بالفتاتين المولدتين ، وثالثة سوداء فى شكل عجوز ، لكنها غاية فى الجمال ، تحمل مصباحا لانارة الطريق امام الفتاتين . ولا يمكن وصف جمال المولدتين بكلمات مقتضبة ، وللقارئ أن يتمنى كل ما يحب أن يراه فى امرأة جميلة ، وله أن يتخيل ، ما شاء له الخيال كل صفات الحسن والجمال ، واراهن انه لن يوافى الحقيقة الماثلة أمامه .

وتبلغ احداهما السابعة أو الثامنة عشر من العمر ، والاخرى الرابعة أو الخامسة عشرة . الاولى طويلة القامة الى حد ما ، والثانية معتدلة فى قوامها . وما اختلف لبسهما عن الاخريات الا من درع كبير من الفضة يتدلى

على سلسلة فضية يتدلى جانبا من البدن والفخذين . أما لون البشرة فقد كان فى مثل لون نساء صعيد مصر . سأل الضيوف ما اذا كانت الفتاة السوداء "للبيع" أيضا ، فجاء الرد سريعا بانها الفتاة الاخيرة لدى سالم كاشف ود مدنى الذى بث عيونا فى كل ناحية ليمسك بمن يقترب منها . ولكن ، ومع ذلك فقد فهم الضيوف منهم أن "بيعها" ممكن تحت ستار من السرية التامة .

وفى النهاية لم يقدر للصفقة أن تتم ، فعاد أربعة من الضيوف الى ود مدنى وهم يلعنون ضيق ذات اليد الذى حرمهم من متعة أكيدة ، بينما واصل الخامس سيره الى سنار متحسرا على تلك الفرصة التى اضاعها عليه وجود الآخرين معه . (١٤)

حوريات النيــــل فى مارنجان :

وبعد مدة قصيرة من زيارة الاوربيين ، حضر ثلاثة رجال من بنى جنسهم أيضا الى مكان يسمى مارنجان وهو يقع جنوب شرق ود مدنى على ضفة النيل ، حيث تمتلك الأميرة منزلا به حديقة صغيرة على بعد ساعتين شرق المدينة . ويبدو هذا المكان موحشا رغم مناظره الخلابة حيث تنمو فيه أشجار السنط والاعشاب الكثيفة الخضراء . كان هم الزوار الأكبر هو طعام الغداء ، فانطلق احدهم ببندقيته وسار داخل الغابة عله يصيب صيدا يأكلونه ، بينما ذهب الآخران فى جولة على ضفاف النيل ، رغم أن الاشجار المتشابكة حجبت عنهما رؤية النيل تماما .

وأثناء سيرهما ، سمعا اصواتا صاخبة فى اتجاه النيل . ولم يتبين الرجلان مصدر تلك الاصوات ، ولو انهما اعتقدا انها طيور تصدح بين الأشجار . ولكن حدة الضوضاء كانت ترتفع كلما اقترب الزائران من النيل ، حتى انتهيا الى منطقة رطبة على الشاطئ . هناك وجدا امامهما منظرا يشرح

القلب ويبهج النفس . فقد كانت هنالك مجموعة من الفتيات من مختلف الالوان يبدو عددهن على المائتين . بعضهن يسبحن فى الماء عاريات ، وأخريات يغسلن ملابسهن على حافة النهر ، أو يتوثبن على الرمال ، أو يتبارين فى السباحة . وسرب آخر انتشر داخل الغابة فاصبحن يتناقلن من خلف الاشجار مثل الحوريات .

استمتع الزائران بالمشهد الشائق برهة ثم تقدما نحو الفتيات على حافة النيل ، فقد تأكدا انهن قادمات من السوريية لغسل الملابس فى النهر . وما أن اقتربا حتى تفرزن داخل الماء فى حياء وخفر . يا له من منظر رائع !! عشرات من الرؤوس الصغيرة تطفو فوق سطح الماء ، وتكاد تنفجر من الضحك . وانبرت بعضهن تؤمئ للضيفين بالابتعاد ، ولكن فى لهجة تنم عن الرغبة فى نقيض ذلك تماما . وأخذ البطلان يحصيان رؤوس الفتيات بشكل صغيرة من الذين حتى اضطررن الى الغطس فى الماء . وحيال اصرار الرجلين على البقاء خرجت الفتيات من النهر كما ولدتهن امهاتهن ، وخرجت كل واحدة منهن الى ارتداء رحطها .

ثم تجمعن فى سرعة وحاصرن الضيفين ، وبدأن فى الانتقام منهما بفاصل من المضايقات ، مجموعة تشد أذرع الرجلين ومجموعة أخرى تمكنت من خلع الطربوشين ورفضت تسليمها الا بمقابل . واحرج الضيفان غاية الحرج ، فلم يكن لهما الحال لاستردادهما ، فلجأ الى المهادنة والتملق ، وعرضا عليهن دفع الفدية بشرط أن يستردا الطربوشين أولا . وفى نهاية الأمر أطلق سراحهما بعد تدخل من كانت تتولى أمرهن . وهكذا عادا الى ود مدنى حيث انضما لثالثهما الذى كان قد خرج للصيد ، والذى اخبرهما انه استهلك ما كان يحمل من بارود دون أن يصيب شيئا . وعندما علم منهم تفاصيل المغامرة توجه فورا نحو مكان الفتيات علّه يعوض خسارته فى الصيد . ولكن هيهات !! فقد انطلق السرب نحو السوريية ، فكانت خيبة أمل أخرى لصاحبنا .

وجبة عشاء فى المسلمية :

بعد مضى يوم أو أثنين ، اجتمع شمل الاوربيين الخمسة فى ود مدنى بقدوم الناصرى من سنار . وقرروا جميعا زيارة المسلمية ، وهى مركز تجارى هام ، على بعد أربع ساعات بالحمير ، شمال غرب ود مدنى . وفى المسلمية توجهوا الى تاجر يسمى الفكى طه كانوا يعرفونه ، فأكرم وفادتهم . فقد هيأ لهم الاقامة فى منزل له كان خاليا ثم مضى يطلب لهم الطعام فى أطباق معدنية امعانا فى اكرامهم ، لانهم فى الظروف العادية يأكلون فى أطباق خشبية محلية الصنع .

وفى هذا الأثناء خرج اثنان من الضيوف وجلسا فى الفرندة يتنسمان الهواء الطلق هربا من حرارة الجو داخل الحجرة . وبعد قليل لمح الضيفان من خلال حاجز القش بعض الخدم مقبلات نحو المنزل فى الطريق وهن يحملن أطباقا من الطعام . ولفت انتباههما قدر كبير مغطى أيضا تحمله احدى الخدم . وازداد تعجبهما ودهشتهما كلما اقتربت منهما حاملة ذلك القدر العجيب ، فقد كان عبارة عن قصرية بها طعام اليخنى ، فاستغرق الضيفان فى ضحك هستيرى حتى طفرت الدموع من عينيهما .

ولكن امرا آخر غطى على هذه الصفاقة من الضيوف . فقد كان اثنان من الضيوف يسميان "جيوفانى" ، ولكن المضيف الذى كان معهما داخل الحجرة ظل يناديهما "جوانى" وذلك لعجز فى لسانه العربى عن نطق الاسماء الافرنجية . وعند شعوره بانه لا يستطيع التفاهم معهما ، تساءل الفكى طه - مازحا - من منهما "الجوانى" ومن "البرانى" ، فضحك من كانوا داخل الحجرة . واعتقد الرجل الطيب ان دعابته هى سبب ذلك الضحك المتواصل فيما بعد ، فتركه الضيوف على اعتقاده ، ووجدوها فرصة للاستمرار فى الضحك طوال فترة العشاء . ومما زاد الموقف طرافة انهم

التهموا ما بداخل تلك القصرية من الحمام .

وبعد العشاء ، لم يتمالك احد الضيوف نفسه من البحث بالسبب الحقيقى للضحكة ، وشرح للفتى أمامه ان مثل ذلك القدر يستعمل فى أوربا لاغراض مختلفة تماما . فانتفض الشيخ الفاضل ، ودافع عن نفسه قائلا انه لم يستعمل ذلك القدر فى الاغراض التى ذكروها مطلقا منذ أن ابتاعه من أسواق القاهرة ، وذكر انه قد تعرض للكسر اثناء الرحلة فلم يستطع أن يبيعه . ثم اضاف ان السودانيين لا يستعملون مثل هذه الاوانى الا فى تقديم الطعام لكبار الزوار . واختتم حديثه بأن عبر عن أمله فى أن يكونوا راضين عنه فيما أقدم عليه بنية حسنة ، ووعدهم بانه لن يقدم طعاما لاوربى فى ذلك القدر اللعين ثانية .

ومكث الضيوف مع الشيخ لمدة يومين آخرين دون أن تقع عينهم على ذلك الوعاء . ثم رحلوا ونفوسهم تمتلئ بالاعجاب ببساطة ذلك الرجل العظيم .

هوامش الفصل الخامس

١ . عنوان وضعه المؤلف نفســـه .

٢ . هنالك نوعان من الأبــرى ، النوع القديم الاحمر الذى يعتبره السودانيون ذا خصائص علاجيــة ، والنوع الأبيض الذى اكتسب الافضلية حديثــــــا ، وأنا مدين لمدام فخرالدين محمد للوصفة التالية فى صناعة الابـــــرى الاحمـــر :

تؤخذ كمية من الذرة (ويفضل صنف الفتريتة) ، وتقســـم الـــى ثلاثة اقسام متساوية . ينشــر القســم الأول على قماشة قماش مبتلة ويترك لمدة ثلاثة أو أربعـة أيام ، مع رش ماء عليه من وقت الى آخــــر ، حتى تبدأ الحبوب فى النمو . يطحن القســم الثانى ويغربل ، ثـــــم يغلى الدقيق فى الماء حتى يتكثف الخليط ، ويترك ليبرد ويتماسك . يطحن ويغربل القســم الثالث والأخير من الذرة ، ويعجن الدقيـــق مع الماء . وعند اكتمال الخلط ، يضاف الى القسم الثانى فى جـــــرة من الفخار ، ويترك ليوم واحد . بعدها تنشف وتطحن الحبـــــوب النابتة (القســم الأول) وتضاف الى الجرة نفسها مع القسمين الثانى والثالث . تغطى الجرة وتترك لمدة ثلاثة أيام حتى يبدأ التخمير . فى وعاء آخر يخلط ١ - ٢ أوقيـــة حبهان ، وأوقية شطة ناشف ، وثـــلاث أوقيات من عصير العرديب ، ويضاف الخليط كله الى العجين . واخيرا يخبز الخليط فوق صاج ساخن أو دوكـة ، على شكل فطير رقيق ، ثـــم يترك لينشف . ويقدم الابرى الأحمر مع الماء البارد والسكــر .

٣ . خبز من الذرة دون خميرة يخبز على شكل أقــراص فوق الدوكة (نــوع مـــن الأطـراق) .

٤ . عن الوصفـة لصنع الملاح ، أنظـــر صفحـة ١٦٦ مـــن الكتـاب .

٥ . الفلفــل الدقيـــق ، تصغـــير الشطـة .

٦ . الروب هو اللبن المخثر ، الزبـادى .

٧ . حاشية المؤلف : لم أشر الاسماء المحلية المستنبطة هنا لان الشخص (مانسفيلد بيركنز ؟) الذى يعد له هذا العمل قد مكث بهذه المنطقة لبعض الوقت ، ويمكنه التعرف عليها دون مساعدة .

٨ . اثناء اقامته بدارفور عام ١٧٩٣ (-٦) ، علم براون (W.G. Browne) ان كبار التجار فى سنار كانوا يمتلكون شركات من الفتيات من البغايا الارقاء ، كسبوا من ورائهن ارباحا طائلة (Travels in Africa, Egypt, and Syria, 1799, P. 307)

٩ . دراع ،بدلا من ذراع ، ربما كان القصد منه الدراع المصرى ويساوى ٥٨ر٠ من المتر .

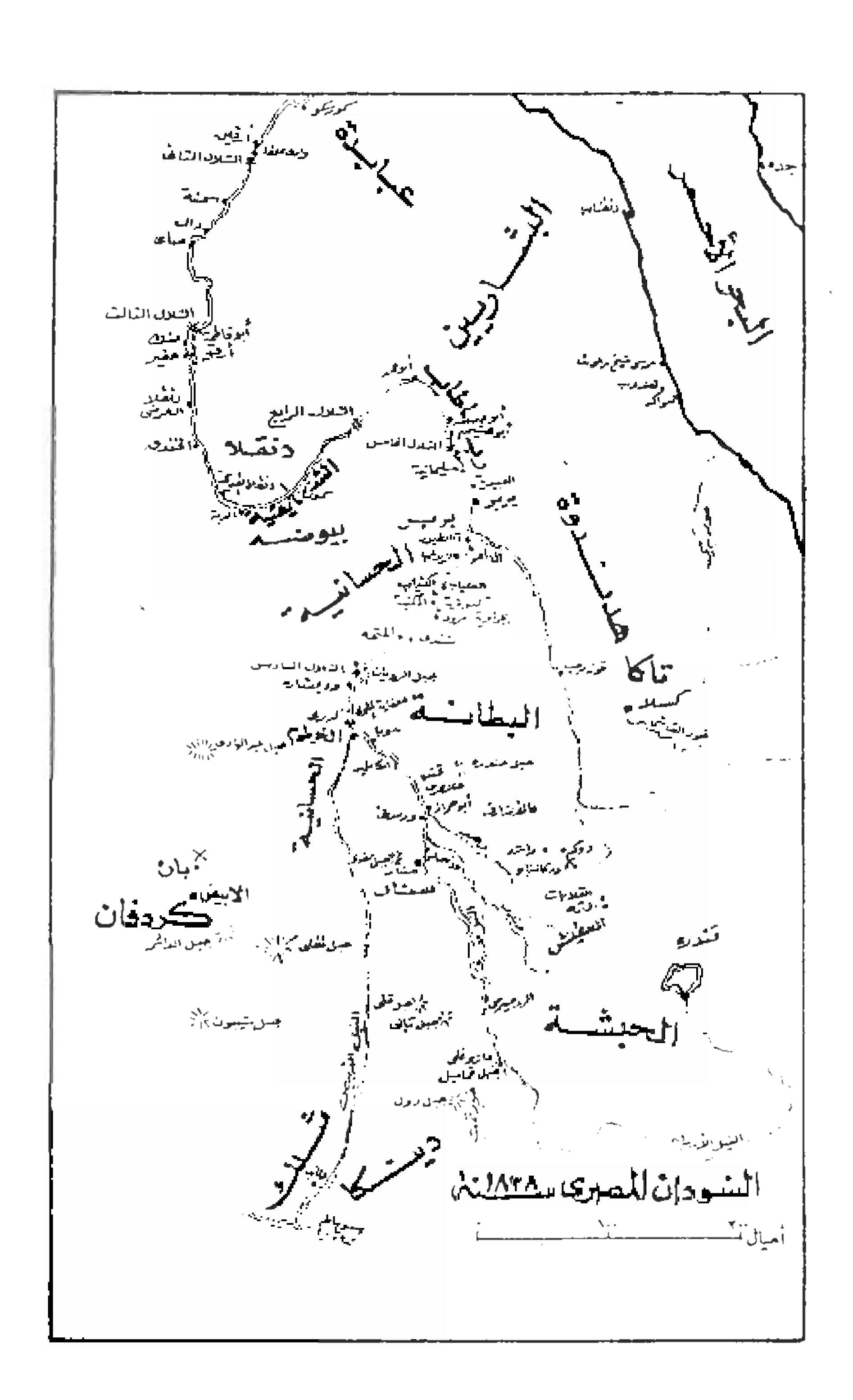
١٠ . فى يناير ١٨٦٢ شاهد المترجم مع بعض رجال القرية المتقدمين فى السن بقايا أساسات المبانى التى اندثرت منذ زمن طويل . ويتطابق تصميم هذه الاساسات تماما مع وصف الرواية . والبئر التى لا تزال مستخدمة الى اليوم تسمى بئر نصرة " عين نصرة " ، وتقع على بعد مائة ياردة شرق أساسات القصر .

١١ . أصبح حكمدارا للسودان فيما بعد ، ١٨٦٢ - ٦٥ .

١٢ . هو دكتور جاسيير (Dr. Gassier) فى اليوميات .

١٣ . رداء حول خصر الفتيات ، من سيور وشرائط من الجلد فى الغالب .

١٤ . زار بيارد تيلور (Bayard Taylor) السيدة نصرة فى الخرطوم عام ١٨٥٢ ، وترك وصفا يتسم بالمبالغة فى اثرائها واثراء فتياتها من الرقيق (Life and Landscapes, 1854, pp. 293-6).



السودان المصري سنة ١٨٣٨
عبابدة
البشاريين
البحر الأحمر
دنقلا
بيومنة
الحسانية
البطانة
تاكا
كسلا
الخرطوم
كردفان
الأبيض
الحبشة
أميال

the Revision of the Agricultural Production Relations in the Sudan March 1973, November 6th, 1973.

95. SGB, Barakat H.Q., No. SGB/Confidential/30-G_1, date: April 20th, 1973.

96. SGB, Barakat H.Q., No. SGB/Confidential/M-30-G_L, A Letter from the Gezira Scheme's Managing-Director to the State Minister of Agricultural Production, December 17, 1973.

(H) Newspapers:

97. El-Gezira Weekly, Vols. (31), (32), (33), (34) and (35) for 1980, 1981, 1982, 1983, and 1984 respectively.

98. el-Maidan Daily, No.(764), September 3, 1985.

99. el-Sahafa Daily, July 2, 1985.

100. ---------------, No.(8020), April 1, 1985.

101. ---------------, No.(6508), June 12, 1980.

(I) Personal Interviews:

102. Abdel Aziz Abdel Hafiz, Cotton Public Corporation, July 31, 1985.

103. Khidr el-Hag el-Agib, Head of Fadasi el-Halimat Villages Production Council, Fadasi el-Halimab, August 30, 1985.

104. Omer Mustafa, A Tenant in Taiba Block, Fadasi el-Halimab, August 30, 1985.

105. el-Tag Sir el-Khatim, Senior Research and Head Dept. , CPC, Khartoum, August 16, 1985.

106. Interviews with Several Tenants in Barakat and Fadasi in August 1985.

107. Mohammed Abdel Rahim Said, Senior Social Researcher Barakat, September 2, 1985.